

| مجموعه قصصية |

فنيان قصة

رغد عثمان السعد

(كاتبة سعودية)

مجموعة قصصية

فنجان قهوة

رغد عثمان السعد

كاتبة سعودية

طوبى للأيام عبقتها نسيم البساطة وأشواق تنقصها
العناوين، ذُيِّلَتْ بأسماء الغد.

اهراء

للأيام زمان التي رحل عنها من رحل وبقي
فيها أحبة مكانهم قلب من وفاء مطرز بعقود
من زهور الفل وأزرار الياسمين

رغد

الرسوم الداخلية من إبداع والد المؤلفة .. عثمان السعد

الى ابنتي رعد .. اللهم .. التي ضاعت بدمع طحوم العمل ..
واثبات الذات
فسيتم بأفها قدرة على أن تكون الثانية والتفاهة رعد السعد

بابا



أبواب موصدة

افتح الباب حبيبي..

ألا تريد أن تراني؟!



- افتح الباب حبيبي .. أرجوك ...

قالتها تكاد تبكي رجاء وخوفا....

بكلتا كفيها قرعت على الباب المقفل ... أمسكت بمقبض الباب تهزه بعنف .. تحاول أن تقتلعه من مكانه ... لم يستجب الباب ولم يجيبها من داخل الغرفة ... وكأنه في عالم آخر... تؤلمها ذراعاها... تحتنق بدموعها وقهرها.. يخف قرعها.. تمرر كفها بحنان على سطح الباب... تهمس وقد خارت قواها... تستعطفه والباب معا.. قد يحن الباب .. يستمع.. يفتح لها بعد طول جفاء..

- حبيبي .. ألا تريد أن تراني؟ ...

يجيبها صمت ثقيل لا تفهم منه شيئاً..

تنصهر ببطء مؤلم.. تجثو على الأرض تعباً..

تدنو من الباب .. تلصق أذنها به.. تغمض عينيها.. لعلها تسمع أفضل.. تبتهل إلى الله..

تتضرع..

يارب ... يا من شرعت أبواباً من الرزق والرحمة والسعادة في وجه عبيدك.. لا تُبق هذا الباب موصداً في وجهي..

..... فنجان .. قهوة

تبكي خاشعة مؤمنة بأن الله لن يخذلها.. سيفتح الباب .. عاجلا أم
أجلا... لن يبقى خلف الباب للأبد...

هتفت برجاء

- صغيري..

تثبتت بأرجوحة الأمل.. تارة ترفعها على أجنحة من تفاؤل وتارة
تهوي بها لتستقر في ضريح من يأس

- سأقتلع الباب.. إن لم تفتح لي ..

قالتها صارخة بغضب .. جحظت عيناها بالوعيد والتهديد.. نهضت

- فليكن إذن..

تلفتت حولها بحيرة.. كيف يقتلع الباب؟ مطرقة؟ أم تدفعه بقدمها؟
أم ترميه بكرسي؟

قلة الحيلة.. والحيرة..

أدركت أنها لن تستطيع حتى اقتلاع مقبض الباب ..

فكرت بحزن...

ضعيفة .. لا تملك سوى صوت مرتفع سلاحا تستخدمه كمحاولة
لتنفيذ ما تريده...

..... فنجان .. قهوة ..

والصوت .. كلما زاد ارتفاعه قل تأثيره ..

كثيرا ما كان صوتها الأعلى .. وكثيرا ما كانت الأضعف ...

قالت هامة مستجدية:

- لم تكن يوما قاسي القلب متحجرا .. لماذا لا تحيب ؟ ما الذي حدث لك ؟

وانهارت على الأرض تبكي بحرقه .. تناجيه .. تناديه .. تستعطفه ..

تباطأت نبضات قلبها كثيرا .. خفتت كصوتها .. لم تعد تقوى حتى على البكاء .. تمددت أمام باب غرفته .. استسلمت .. أصغت لحفقات قلبها الضعيفة .. مادت الأرض بها .. غرزت أظفارها في السجادة .. تشبث بقوة .. آلمتها أظفارها .. لا يهم .. فإن لم تفعل ذلك فستقع .. سقف الغرفة أصبح أرضها وأرضها السقف ... أغمضت عينيها ... وارتاحت ..

توقف الزمن .. وتوقفت الأرض عن الدوران .. وتوقفت عن مناجاته ...

لم تعد تسمع دقائق ساعة الحائط .. ولا صوت صفير الريح المترسب من فتحة النافذة التي لم تغلقها بإحكام .. ولا نعيق بومة كانت قد اتخذت من عقلها عشا لها .. لم يبق إلا الفراغ فراغ هائل .. لونه أسود .. لا صوت له ... ذبلت مشاعرها .. لم تعد غاضبة .. أو حزينة .. أو يائسة أو

..... فنجان .. قهوة ..

متلهفة... كالباب الموصل في وجهها بصمت غدت.. بلا ملامح.. بلا
مشاعر.. بلا ماض أو مستقبل.. لا فرح.. لا حزن.. لا ذكريات...

من بعيد .. بعيد جدا.. سمعت صوت الأذان ينادي..

الله أكبر... الله أكبر...

غابت عن الوعي.... أخيرا....

لم أعد أقوى على متابعة المشهد... لم أعد أقوى على كبت دموعي..
شهقت بقوة وبكيت دون خجل بصوت عال كالأطفال.. صدق الممثلة
وعمق المشهد حملاني داخل الكادر لأشعر بأنني أحيا معها بكل تفاصيل
اللحظة..

أطفأت التلفاز .. لا أريد تكلمة الفيلم... ولا أريد أن أعرف لماذا
تقرع الأم باب غرفة مظلمة فارغة.. لا أثر لأحد فيها.. هل مات
ولدها؟ هل انتحر؟ هل تركها ورحل ببساطة؟ هل تهذي؟ هل يكون
لها ولد فعلا؟ أم هي مجرد امرأة ضلت في دهاليز أمنياتها؟ لا أريد أن
أكمل المشاهدة.. ولا أريد أن أفكر أساسا .. أريد أن أنساها...مسحت
دموعي.. استعذت من الشيطان كثيرا.. نهضت بسرعة .. هرولت نحو
غرف أطفالي.. نظرت للساعة.. إنها الرابعة فجرا... فتحت الباب الأول

..... فنجان .. قهوة ..

.. اقتربت .. أسمع صوت تنفسهما الهادئ... الباب الثاني أميرتي الصغيرة
نائمة تحتضن أحلامها ولعبتها ... أغمضت عيني و تتمت شكرا لله ..
خرجت .. لم أقفل الباب ورائي .. لا للأبواب الموصدة بعد اليوم...
من بعيد سمعت صوت أذان الفجر...
الله أكبر.. الله أكبر...
رددت الأذان .. وسجدت شكرا لله

٢٠١٧/١/١٠



عزف منفرد

اعذروني اليوم فإنني مصابة بنزلة ملل..



قلبت نظرها بين الوجوه بملل... اثنا عشر رأسا وأربع وعشرون عينا.. ليست متأكدة من عدد الأدمغة.. فكرت بسخرية.. وضحكت بينها وبين نفسها... نهزت نفسها قائلة.. لماذا أشكك بعقول أناس أنا اخترتهم بنفسي ووظفتهم ووثقت بفكرهم ورؤيتهم؟

أيكون الملل سببا في ذلك؟ بالتأكيد.. لأن نجاح الشركة ونموها وأرباحها ينافي تفكيرها..

نظرت لساعتها... لم يمض على بدء الاجتماع إلا عشر دقائق.. متى ستنتهي النقاشات؟.. تريد أن تكون وحدها.. تحتلي بنفسها..

تستطيع أن تنهي الاجتماع بكلمة... لكن لا.. بأي عذر؟ أتكون صريحة معهم وتقول: اعذروني اليوم فإنني مصابة بنزلة ملل؟ أو تكذب وتقول لديها طارئ وتطلب منهم التأجيل؟ لا.. لا معنى ذلك أنها ستجتمع معهم مرة أخرى بالغد أو بعد الغد... لا مفر...

ما بي؟ سألت نفسها... ما الذي يحصل؟ أين حماسي ونشاطي واندفاعي؟...

سأصبر.. عاجلا أم آجلا سيتهيء الكلام وكل سيذهب لمكتبه أو عالمه... وأنا سأبقى مع عالمي هنا... أو هناك...

..... فنجان .. قهوة ..

هنا في مكتبي وسط الموظفين والسكرتيرة والحواسب والأبواب
والجدران.. أو هناك... في منزلي وسط الغرف الخاوية والأبواب
والجدران الصامتة... عالمان متشابهها التركيب مختلفا الأنفاس...

قال أحمد: أود أن أطرح عليكم نقطة بالغة الأهمية.... ولم تعد تسمع
.. لا تريد أن تسمع تكملة النقطة.. مهما بلغت أهميتها.. وظفتهم كي
يطرحوا مواضيع وفرضيات ويجدوا الحلول ويحققوا الأرباح ويضعوا
القوانين و..و.. الى آخره.. الصبر يا الله.. من أين آتي بالصبر؟ أريد أن
أخرج من هنا..

جالت ببصرها بينهم نسخ مكررة.. فروق بسيطة .. محمد يدها
اليمنى وعصاها السحرية .. يتميز بشخصية هادئة .. يلبس نظارة وكل
نصف ساعة يخلعها ويدعك زجاجها بالمنديل بهدوء وبرود شديدين
حتى يتأكد من لمعانه ثم يلبسها... عبد الإله يُفرط في لبس الخواتم
والساعات الثمينة.. صالح يرمش بصورة عصبية طوال الوقت تسبب
لي القلق والتوتر .. عمرو فخور بكرشه .. دائما يتحدث عنه مربتا عليه
باعتراز قائلا بصوته العالي (الراجل من غير كرش ما يسواش قرش)
ويتبعها بضحكة مجلجلة وغمزة عين.. تفكر.. من يراه للمرة الأولى
صعب أن يصدق أنه مدير.. هشام مدمن عمل.. يحضر قبل الجميع
ويخرج آخرهم.. حمزة واثق من نفسه ومن قراراته ورؤيته.. فؤاد ويحيي

..... فنجان .. قهوة ..

يتميزان بالخبرة وقوة الشخصية... ياسر وأحمد و منصور يجمعهم حماس الشباب ونشاطه.. سريعي الحركة.. يكثرون النقاش وتحليل النقاط.. يؤمنون بالعمل الجماعي.. وجودهم جدد الدماء والروح للعمل فهم الجيل الجديد وركيزة المستقبل...

أعادت النظر لساعتها.. غير معقول.. عقارب الساعة تزحف زحف السلاحف... تعاندها.. تشاكسها... تثير غضبها... تكاد تصرخ بها أن تحركي.. دوري.. فكرت.. ترى هل تكون الساعة ضحية الملل مثلها اليوم؟ هل ثارت على دورانها المستمر وتكرار نفسها وتفكر بالتوقف؟.. لكن إن قررت التوقف عن الدوران فماذا عساها أن تفعل؟ غير مقدر لها أن تكون أهلاً لشيء غير الحركة المستمرة وإعلان مرور الثواني والدقائق والساعات ومنها الأيام والشهور والسنون... مسكينة الساعة... مسكينة أكثر مني.. إن توقفت عن العمل فمصيرها الوحشي المنتظر أن تقبع في سلة المهملات لتتهشم وتتمزق وتتبعثر وتستبدل بساعة أكثر نشاطاً وأكفاً عملاً... فلا وجود لإعادة التدوير في ثقافتنا... تخيلت بتهكم إعادة تدوير البشر... ابتسمت تسخر من فكرها... شكرت الساعة في قرارة نفسها فقد شغلتها بضع دقائق عن مللها..

لا يزال الاجتماع دائراً.. الشفاه تتحرك.. والعيون تتسع مع أهمية النقاش ثم تعود لطبيعتها.. الأيدي ترتفع ثم ترتاح على سطح طاولة

..... فنجان.. قهوة

الاجتماعات.. الشفاه تلتوي أو تنفرج مبتسمة حسب موافقة أو رفض صاحبه... الأصوات منها الخشن ومنها العميق ومنها الخافت ومنها المزعج... لغة الجسد... فهمتها مبكرة وأتقنتها.. كانت أحد أسباب نجاحها.. تقرأ الشخص أمامها كأنه كتاب مفتوح.. تعلم صدقه.. كذبه.. أمانته... معرفته.. مهارته... لكن نفسها تلاعبها.. تتوه منها في زقاقات مظلمة.. أو خلف جدران شاهقة.. أو في قلاع مهجورة..

منذ أن استيقظت اليوم لم تجد نفسها... أو تشعر بوجودها.. نفسها خاوية.. فراغ كبير لا تعرف سببه.. كغريقة في بحر من اللا شيء.. مع كل لحظة تسحبها سلاسل لقاع المحيط.. يزيد الضغط على رثتها.. تكادان تنفجران... تريد أن تتنفس.. تصارع.. تتخبط.. تبتلع الكثير من الخيبات... ولا تموت...

أين وصلنا في الاجتماع؟ البند الخامس.. جيد.. بقي السادس و السابع.. ثم؟ ثم ماذا؟ لا شيء تماما...

يشتكى الكل من ملل الروتين... أتفق معهم.. لا جديد في هذه المعلومة.. ما أخشاه أن يغدو الملل جزءا من الروتين... سأفرغ جرار الملل وأزرعها ورد أمل وفرح... ما يحدث لي اليوم بمنزلة هجمة صداع وسيزول سريعا... علي أن أجد المسكن المثالي ككل مرة... لا أريد السفر.. أو زيارة صديقتي.. أو ممارسة اليوجا.. لا..

..... فنجان .. قهوة ..

قد تكون نفسي جوعى... تحتاج إلى الغذاء.. ترى ما الذي تشتهي يا نفسي؟
التقت عيناها عيني محمد.. قطب جبينه وضيق نظرتة.. كأنه يسألها
دون صوت أو حروف.. ما بك؟ هزت رأسها بخفة أن لا شيء..
ثبت نظرتة عليها وكأنه يحاول قراءتها... يعرفها أكثر من نفسها..
نظرت بعيدا.. لا تريده أن يعلم بوعكتها الروحية.. توقف عن قراءتي..
تمنت بسرها... أمنية متأخرة.. ربع قرن من العمل معا جعلت منه خبيرا
بكل تفاصيل تفكيرها ونفسياتها...

- هكذا أنهي كل المواضيع وإن لم يكن هناك أي نقاط أخرى غير
مذكورة في الأجندة فنكون بذلك ختمنا اجتماعنا اليوم شكرا
لحضور الجميع يمكنكم الانصراف الآن..

بكلمات قليلة أرخى محمد حبل الملل الذي كاد يقضي عليها شنقا...
تنفست الصعداء... بعمق.. شهيق.. زفير... شهيق... زفير...

لم يبق في غرفة الاجتماعات إلا هي ومحمد... اقترب منها.. قال لها
بحب وحنان أبوي.. اذهبي.. لا تقلقي على العمل.. بقاؤك في المكتب
لن يفيدك... لا تذهبي للمنزل.. أعلم أنك ستكونين غدا بحال أفضل...
خرجت من المكتب... لتقلها السيارة.. قالت للسائق.. لن أعود
للمنزل.. قد حيث تشاء... تردد السائق لا يعلم أين سيتجه؟ أو إلى

..... فنجان .. قهوة

أين سيذهب؟.. قالت له بصوت حازم.. عم حسين.. انطلق... لو سمحت... لأي مكان حتى لو كان

من شارع لآخر وبهدوء نسبي سمحت به طرق الرياض المزدهجة
تحركت السيارة... ساعة.. ساعتين... غابت الشمس... حل الظلام....
قال لها عم حسين: يجب أن أتوقف لملء السيارة بالوقود...

قالت بهدوء: المنزل أولاً لو سمحت بعدها اذهب لمحطة الوقود..
وصلت إلى البيت.. اغتسلت... لم تأكل... لم تحدث أحدا.. لم تقرأ أياً
من رسائل الواتساب أو البريد الإلكتروني..
انفصال تام عن العالم... لن يتوقف الكون إن لم تجب عن الرسائل...
ليتنظر كل شيء..
نامت...

استيقظت صباح اليوم التالي... ابتسمت.. صباح جديد... عودة
لنفسها التي هجرتها بالأمس.. هاهي تجد نفسها من جديد.. لا بأس إن
ثارت على وحدتها... على روتين حياتها.... المهم أن تدل طريق العودة
لواقعها كما تفعل دائماً....



أقبل الليل

لا أشرب القهوة ولا أحتسيها ..

إنما أرتشفها .. كأني أقبل طفلة صغيرة ..



هات يدك

مدت يدها بإذعان كالمنسحورة دون تردد، رعشه خفيفة عبرت خطوط كفها إلى ذراعها حتى وصلت إلى آخر عنقها.. احتضن كفها.... غرقت في سحب آه بكاء.... أغمضت عينيها... رقصت أصابعه معربة على أوتار يدها... تسارعت أنفاسها... غيوبة من لذة...

قال لها هامسا: لن أقرأ طالعك... لن أتنبأ بمستقبلك... مستقبلك هنا لا تريد أن تفتح عينيها... كل ما كانت ترجوه بضع لحظات أخرى من الغياب...

جلسا في الزاوية.. آخر منضدة بالبار.... خلفها جدار من زجاج يطل على البحر المتوسط... لا تستطيع رؤية أمواجه.. الظلام دامس بالخارج.... تداعب أذنيها نغمات البيانو مصاحبة لصوت عشقته من الهمسة الأولى.... تتهادى المطربة بدلال بين طاولات البار تغني بكل اللغات.. الإيطالية.. الفرنسية.. العربية... الإنجليزية... وبكل رقة تميل على الحضور همس لأحدهم بكلمة فيغدو أسير الكلمات واللحن... الإضاءة خافتة.. تسدل ظلالا من غموض على وجوه السامعين...

رددت كلماته في أذنيها... مستقبلك هنا... فتحت عينيها... تريد أن

..... فنجان .. قهوة ..

تعرف أين يكون مستقبلها.. ورأته يشير إلى صدره ... تحديدا لقلبه...
دمعت عيناها... اقترب منها.. أنفاسه حارة... أحرقت أعصابها وما
تبقى من صوابها... لثم دمعته.. انهارت أبراج إياها...

أمسكت وجهه بكفيها .. اقتربت منه... قالت هامسة: أنا كلي ..
حاضري.. مستقبلي... حياتي... مشاعري.... لك .. لك وحدك...

نهض.. رمى بورقة من فئة المئة دولار على الطاولة... تكفي حساب
مشروبيهما وسيتبقى بقشيش سخى للنادل.. سحب كفها بحنان واتجهها
معا للمصعد ... تحملها أحلامها وتقوده أطماعه..

من مقعدي المجاور لهما كنت أراقب بصمت... لم يشعرابي أو لم يعبئاً
.. سيان .. كانا في عالم آخر لا يقطنه سواهما.. أتابع حديث نظراتهما..
وكلمات كفيهما.. أستمع بكل لحظة منها.. مشهد متكامل لقصه حب
جميلة.. الفارس.. الأميرة... اللحن.. الصوت.. الكلمات... حين دخلا
المصعد معا وغابا خلف بابهِ الأنيق.. لم أستطع اخفاء ابتسامة سخرية..
انتهى المشهد الأول.. باقي المشاهد لن أستطيع رؤيتها... سأتحيلها..
الخيال أقوى وسائل الغواية وساحة الشيطان وملعبه.. ما لا نراه نصوره
بأجمل الصور... نمطها طولا وعرضا حتى ترضى غرائزنا... نجوب

..... فنجان.. قهوة

سراديبها بلا رقابة.. لا نهاب عتمتها.. فمفاتيح أقفالها بحوزتنا.. أما الحقيقة فصماء.. جافة... جامدة... لا نستطيع زركشتها أو تزيينها.. قاسية.. تأبى الانصياع.. كم من حقائق ولدت ضغائن... ودمرت علاقات.. وجردت الحكايا من المتعة... لعله السبب الجوهرى لخلود قصص الخيال.. كقصة الأميرة النائمة و قصة سندريلا وبياض الثلج والأقزام السبعة... ببساطة $1 + 1 = 2$.. جملة رياضية مملة.. حقيقة لا تقبل المغالطة أو التشكيك.. ولكن إن قلنا $1 + 1 = 5$ فستبدأ فقايع الخيال بالغليان كي تثبت أو تنفي هذه الجملة على بدييتها الساذجة..

أیحق لی أن أغزو میدان حب لست فارسة... حتى وإن كان بأفكاري؟ ولم لا؟ أين هو قاضي الخيالات؟ وأين يقبع شرطي الأخلاقيات؟ أنا حر بخيالاتي... سأتحيلهما بكل أوضاع الحب الممكنة والمستحيلة... سيأخذها بكل رجولة وستعطيه عطاء الأثنى السخي.. تهبه جسدا وروحا ووعودا بالمزيد... لا أدري إن كانت زوجته أم خليلته أم مجرد امرأة أخرى تشاطره سويغات في دنيا شهواته؟... تفاصيل لا تهم كثيرا... رأيتها تحمل في نظراتها أطفالا من أمل.... وثمارا ناضجة من رغبات فاضحة..

أشرت للنادلة الحسنة أن تأتيني بالحساب.. يكفيني خيالات.. سأذهب أملك بعضا من حقائبي.. خرجت هاربًا.. لم أخبر أحدا عن

..... فنجان .. قهوة ..

وجهتي... أريد أن أختلي بنفسي وأبتعد عن كل من حولي... لا أريد أي صلة لي بواقعي.. بحقيقتي... حتى اسمي سأخلعه.. وسأرتدي اسما جديدا ليكون صداه براقا... كي أشعر بأنني شخص جديد... سأختار شخصيتي.. وأختار طباعي... مظهري... ملبسي... مشيتي... شرابي...
أتمصص شخصية جديدة... أكوئها بمكواة الخيال لتظهر بلا تجاعيد... مصقولة.. لامعة.. وأتعطر بعود الغموض... فشذاه أقوى من أن يقاوم... وأضع نظارات من جهود... لا لإظهار العواطف أو الإعجاب.. ابتسامة ساخرة أعلقها على مشجب فمي... وأمشط شعري بأصابع قلمت بالثقافة والرقى..

بهذه الشخصية قررت أن أستوطن المقعد الأخير في البار و أشاطر الموجودين بفضول قصصهم وخيالاتهم حتى أملّ من التطفل على حكايات الآخرين وأقرر العودة..

أقبل الليل... ارتديت ملابسني وتأهبت للنزول إلى البار.. اخترت هذا الفندق تحديدا كي أقضي به أياما من وحدة مزدحمة بالناس.. وحيدا بأفكاري.. محاطا بمئات الوجوه.. وجوه بلا أرواح... هي أقرب إلى الظلال.. لا تعينني إلا أنها تشدني لسبر أسرارها و الاستماع لكل ما تقوله من إيماءات وحركات.. أحاول كشف صدقهم.. كذبهم... التمتع

بابتساماتهم والإحساس بضحكهم .. محاولة التنبؤ بهمساتهم وما يدور بينهم من أحاديث .. حتى إنني أرقب أنفاسهم بين تسارع وتباطؤ ... هي هواية جديدة أكمل بها شخصيتي الجديدة .. أدرك جيدا أن لهذه الهواية آثارا جانبية قد تكون مدمرة .. فمشاركة المشاعر والأسرار قد تؤدي إلى الغيرة أو الحزن أو السعادة الوهمية .. خوفي الأعظم من الإدمان ... قد أدمن قصص الآخرين هروبا من واقعي ... لم أقرأ مسبقا عن مخدر كهذا ... أأكون لي سبق اكتشافه؟

أتمنى ألا ينظر لي الناس كرجل وحيد وفضولي أحاول استراق السمع لأملأ حياة فارغة ... أبدا لست كذلك ...

إنما أريد فهم نقطة حيرتني كثيرا ... هأنا أحتل مقعدي اليومي ... على يميني تجلس فتاتان في بداية العشرينيات ... حديث عينيها يسبق كلامها ... الأولى تشكو للثانية .. والثانية تنصح الأولى .. لم تتوقفا عن الحديث لحظة ... أشكر إدارة المحل ... فتلاصق الطاولات يسمح بالكثير من المشاركة في الأسرار والأحاديث .. ولكن كيف لسر ما أن يقال في مكان كهذا؟ .. هل يعقل أن يكون الإنسان بطبعه ميالا لإفشاء أسرارهم؟ هذه الفتاة تحكي بيأس لصديقتها كيف أنها وزوج صديقتها الأخرى على علاقة وأنها لن تستطيع كتمان الأمر لمدة أطول ... أنا لا أعد هذا الأمر سرا فقط .. بل أعدّه كارثة ... أخلاقية .. و معنوية ... بالتأكيد جنت ...

سر كهذا يقال في بار به ما لا يقل عن ثلاثين شخصا؟ أين السرية؟ الخصوصية؟ أين الخوف من أن يستمع أحدهم إلى هذا الاعتراف القنبلي ويكون على معرفة بالصديقة المخدوعة فيفجره دون رحمة أو شفقة وبيعثر حقيقة أنها ضحية سر لوبقي طي الكتمان ما تألمت مرتين... قبله ستسقط ثلاث أرواح وتمزقهم دون رحمة... ستتطاير أشلاؤهم دون أن يكون هناك أمل في إعادة تجميعهم من جديد.. روح المغدورة وروح الزوج وروح الصديقة.... مأساة ذكرت في بار.... سخرية.. هراء... عيب... عيب ألا نحترم علاقاتنا.. ونخون مبادئ بديهية فطرية.. والعيب الأكبر أن نعلن عن خياناتنا دون تحفظ ونطالب بحقوق سراية هيأتها نفوسنا البشرية الملتوية... نسينا أن الستر يجب أن يصاحب البلية... وأصبحت جرائم الأخلاق أحاديث بارات ودردشات تحتل التصويب أو المغالطة أو الدعم... للأخلاقيات قدرة هائلة على التمدد.. نستطيع أن نحشر جريمة أخلاقية من الوزن الثقيل في ثوب نزاهة نحيل... ما يضحكني أنني أبحث عن الأخلاقيات في بار.. التناقض.. قضية أخرى صعبة الفهم.. أسبابها غير واضحة... كم من الأمور في الحياة يصعب علينا إدراكها.. وإن أدركناها لا نفهمها...

تعبت من سر هاتين الشابتين.. أرهقني ثقله ولن أستطيع حمله معي.. سأرمي به أرضا لتدوسه أقدام النُّدُل لعلها تقتله وآخر الليل حين يأتي عامل النظافة سيمسح بقاياها بممسحته فتغدو سوداء ويغمرها في ماء

..... فنجان .. قهوة ..

ربما يزيل عنها قذارتها .. سيتعكر الماء .. و ستذوب المسحة .. وستبقى
حروف الخيانة منشورة على جدران الحياة تشع ظلمة وتومض قهرا... لم
أعد أرغب بالجلوس ... سأسير قليلا ... أتشق هواء البحر... أأخذ
صوته في قوارير ذكريات شفافة وأضيف عليها رحيقه فيصبح مزيجا
مسكرا أتجرعه عند الظمأ فأنا أسكن صحراء نجد وصحراء نفسي....
والظمأ عنوان أيامي...

هل جلست العصر مثلي
بين جفئات العنب
والعناقيد تدلت
كثريات الذهب
غنتها بكل غواية .. كحورية تقطن أعالي تلال شعر وألحان .. ولدت
من عتمة الليل ظلال شمس ... فكاني أجلس في حديقة ليس لها آخر..
محاطا بأذرع الدوالي .. أتسمع عبث التربة الخضراء
توالت الأغاني والكلمات والألحان والمستمعون يذهبون ويحيئون..
يتبدلون... وأنا ما زلت أجالس مقعدي .. أترقب قصة جديدة .. لا
أفكر بنفسي أو بأسباب ضجري من حياتي وشخصي... ليس الآن.. أنا

..... فنجان.. قهوة

معضلة.. أحتاج لشيفرة خاصة لفك رموزها... أعلق عده شخصيات على ذراع الأزمنة تتوافق حسب لونها... كالحرباء أبدل ألواني حسب ما يمليه علي ضمير مصالحي و رغباتي... احترفت التبديل حتى ضاعت بذرتي الأولى... ما عدت أعرف مقاساتي.. ولا ألواني.. أضعت حقيقتي... اختلطت مع خيالاتي... أصبحت حياتي طبقات من خيال متكدسة فوق حقائق منسية رخوة... مريرة المذاق... لم أعتل يوما عرش الاختيار... اسمي.. موطني... أمي.. أبي... إخوتي... زوجتي... عملي... وإيماني بالله كان ينبع راحة متدفقا يهدد لي ساعة النوم فينزع عني أسمال القلق والخوف.. أتدثر بدفء آيات القرآن وأنام بلا أحلام.. ألم أقل لكم أضعت الحقيقة وسط ركام الأحلام؟...

لا أحلم ليلا والناس نيام.. أحلامي غزت نهاري واحتلت ساعات يقظتي لتركني منهارا على عتبة الحقيقة.. في مجتمع مرجعيته اسم عائلة وحساب بنك كنت مصنفا من فئة الوسطية... المفترض أن تكون الوسطية جيدة.. أقصد من الناحية الاجتماعية والمادية.. وبناء على أننا خلقنا أمة وسطا... إلا أن الحقيقة غير الواقع.. ونعود إلى دائرة الحقيقة والواقع والخيال والأحلام... منتهى الضبابية... الطبقة الوسطى في مجتمعنا تشبه الفتاة التي رقصت بالعامية على السلام.. من هم أعلى منها لم يروها ومن هم أسفل منها لم يشعروا بها... وأعتقد أنها في نهاية الأمر

..... فنجان .. قهوة

تعبت ووقعت أرضاً فدقت عنقها وماتت ... مأساة ...

إلا أن ما يضحكني هو تصنيفات مجتمعا... نصنف المجتمع حسب
أسس كثيرة...

أهم تصنيف في مجتمعنا القبلي أنه مجتمع يفصل ما بين القبلي وغير
القبلي. . فيصبح إما قبيليا أو حضيريا... أو بمسمى آخر ١١٠ أو
٢٢٠.. أو بمسمى آخر أسياد أو طرش بحر... كلها مسميات ناتجة
من احتقار طبقة لأخرى ... كنتيجة حتمية لكل التصنيفات والفئات
انهارت الطبقات واختلط أفرادها حتى ذابت الفروقات وأدت إلى
ضياع أكبر... سخرية....

قد تتكرر الوجوه ولكن بغرابة لا تعود لنفس الأرواح... وهنا يأتي
معتقد تلمص الأرواح ... معتقد لا أعترف به ولا يقنعني .. ويصعب
عليّ فهمه.. إنما قد أقول تلمص الشخصيات أو تلمص الأمزجة...
أفكر بسخرية: ترى لمن تعود روحي السابقه؟ كيف سيكون شعوري إن
كانت روحي السابقة روح خنزير مثلا... أضحك ... قراءاتي في تلمص
الشخصيات ليست عميقة وإنما إيماني بأن الروح بيد الخالق سبحانه
وتعالى وبأن مرجعها إليه وحده هو المتكفل بالثواب والعقاب جعلني
أشعر براحة كبيرة فروحي بأيدي أمينة..

..... فنجان .. قهوة

أذكر أنني رأيتها من يومين... مع شخص آخر... بشخصية أو روح أخرى... كانت ترتدي روحا من غنج.. أنوثتها صاخبة... رقتها فاضحة... همساتها.. نظراتها... شلالات دعوات جريئة... أكاد أقسم بأنني شممت رائحة رغبة تفوح بالمكان حال دخولها...

اليوم ترتدي عباءة من عفة.. وتربط شعرها جديلة البراءة... تحيط جيدها سلسلة من حياء.. على عينيها نظارة سميكة تحجب نظرات الغواية عن كل ما يقع عليه بصرها... طفلة ساذجة... حلوة... رقيقة... إذن فلست أنا منتحل الشخصيات الأوحده...

كم عدد الشخصيات التي يحق للمرء تقمصها؟ أخلاقيا... وتوازنيا... فهي عملية تحتاج لتوازن نفسي عميق يتيح لحامل الشخصيات وجود.. زر تحويل يقظ لضمان عدم اختلاط الشخصيات وانهار عوامهم...

يبقى السؤال.. هل انتحال الشخصيات هواية أم عادة أم احتياج؟

هل أذهب وأسألها؟ وإن استجمعت شجاعة الكون بأسره وسألتها فهل سأحصل على إجابة؟ ترى أي شخصياتها ستجيبني؟ وهل أتوقع إجابة بسيطة؟ كم أنني ساذج... سأحترم عمري ومكاني وشخصيتي.. وسأحرص على عدم فقد مكاني في البار ولن أسألها.. ما الفائدة؟ الأفضل أن يبقى السؤال معلقا بأرجوحة الأجوبة الثلاثة أختار ما يلائمني... لماذا نسعى دائما لاقتباس الأجوبة من الغير؟ ونقيد أنفسنا بقراراتهم.. لماذا لا

..... فنجان .. قهوة ..

نستفتي قلوبنا؟ نراجع خبراتنا ونستنتج... نعطي أنفسنا حق الاختيار
والتجربة... أم لأننا نخاف تحمل مسئولية قراراتنا؟....

رحلت سريعا... وحملت معها تساؤلاتي الكثيرة... وتناسيتها...

من مقعدي الوثير أراقب بصمت.. أحيا مع الآخرين فترة وجودهم
حولي.. ما إن يغيبوا عن ناظري.. تغيب قصصهم معهم.. يحملونها بكل
ما فيها من مشاعر وأحزان وصدق وكذب.. بكل ما فيها من إنسانية أو
ملائكية أو شيطانية...

في نهاية الليل ما نحن إلا كما قال جبران خليل جبران «إنما الناس
سطور كتبت لكن بقاء»

أنا قلب خفاق في دنيا الأشواق

أنا روح هيمان في وادي الأشجان

تاه فكري بين أوهامي وأطياف المنى

لست أدري يا حبيبي من أنا أين أنا

أغلقت جهاز (الآي بود) فامتنعت أم كلثوم من تنمية أغنياتها التي
أعشق «أقبل الليل»... تأكدت من وجود بطاقة الغرفة في جيبتي..
أوصدت باب غرفتي جيدا وانطلقت في رحلتي الليلية الغامضة..

..... فنجان..قهوة

يقودني شوق الاستماع و حب المشاركة أو بمعنى آخر حب الفضول...
الرقمي والعراقة هما ما يميزان هذا المكان عن غيره يبدأ البرنامج
عند السادسة مساء بعزف بيانو هادئ... روحانيات.. هكذا أطلق على
أنامل العازف الرشيقة... روحانيات.. حين يبدأ مراقبة أصابع البيانو
تتهادي تحت وطأة رفته أحلى الألحان وترقص في البار مشاعر الحب
والإحساس... أبتسم وتخفني العبرات ..
شو يبقى من الرواية..

لحن في مكانه وجمله تعبر عن نهاية كل قصة

ومن لحن فيروزي إلى لحن غربي هادئ... تتصالح الأفكار.. ويعلن
السلام في ساحات نفسي الثائرة... وتبدأ الأمواج بمغازلي من خلف
الزجاج اللامع... تحتضن الموجة أخرى.. تمد ذراعها تشدها.. تنصهران
في عناق مقفى .. لا وجود لشذوذ قافية أو اختلال وزن... رقصة موج
ترافق غروب شمس ولحن رحباني....

أرتشف قهوتي ببطء شديد... تعلمت أن للقهوة أصولاً.. لا أشرب
القهوة ولا أحسبها .. إنما أرتشفها.. كأني أقبل طفلة صغيرة.. أخاف
أن تجرحها منابت شعر ذقني أو شاري.. هكذا أتذوقها ... أشمها...
أعيشها.. كل فنجان قهوة يعني لي تجربة لذة ومتعة... فنجان واحد كل
يوم.. موعدنا ساعة الغروب... لا أحب استغلال حبي للشيء.. أحب

القهوة لا أريد الابتذال في حبها... لتبقى غالية.. مطلوبة.. ذات مكانة ..
لتعني لي الكثير دوما... هكذا قدر للقهوة أن تكون دورة حياتها قصيرة
ومكتملة... تمر بكل المراحل بهدوء.... دون ثورات... دون نزاعات...
دون مفاجآت... طفولة ساخنة .. شباب فاتر... ثم شيخوخة باردة..
وموت فنان.. ترسم على جدران فنجانها مودعة مسكنها بغموض أحلى
الرسوم.. تحاول أن تخبر الجميع قصتها... ومن جهل البشر يعتقدون
أنها تخبرهم عن أنفسهم... لا يدرون أنها تريد أن تخلد قصتها هي .. لا
قصتهم... ما يديرها بقصصهم؟... حكاياهم متشعبة معقدة.. يلجئون
لها كي تخبرهم .. كي تقص لهم عنهم... وهي أبسط من ذلك كثيرا..
ببساطة... تحب الرسم.. تحب خط القصص التي تعنيها... تدرك ببساطة
أنها حيرت الكثيرين برسومها.. وتأبى أن ترحل دون أن تثير الجدل...
تريدون قصصا... سأهيبكم أجمل الحكايا.. وأكثرها استفزازا.. سأترك
لكم عصافير وأسماكاً وثمانين.. سأترك طرق سفر طويلة... وأبوابا
مغلقة ونوافذ مفتوحة... هذا ما تقوله لنا القهوة ... مع كل فنجان
قصة.. وأبطال.. وأحداث.. متكاملة أو متناقضة .. لا يهم.. المهم أنها
لا تكل ولا تمل من الروايات والحكايا... فنجاني يستفزني.. يغنييني..
أسمع الكثير من الناس يقولون إن على صفحة فنجانهم ظهرت لهم
صورة قلب أو صورة قبضة مما يعني أن الحب أو المال ظاهر جلي لهم
وعلى مقربة منهم.. أما فنجاني فيظهر لي صورة عقل... ملل.. من يريد

..... فنجان .. قهوة

العقل في هذه الأيام؟ أنا أحسد المجنون... نعم... أحسده لأنه لا يعي ولا يحاسب ولا يحلم..... أكثر الناس راحة للبال.. وأهناهم عيشة... ألم يقل المتنبي:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله .. وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم
العقل... أتعبني عقلي.. أجهدي وأجهده لا نفتأ ندخل معارك
ضارية... يناقشني وأناقشه.. أسبه.. ألعه.. أكرهه.. أغضب منه.. أتمنى
أن أعاقبه... أطوعه.. لماذا لا يرضخ لي ولرغباتي؟... لماذا يجادلني... و
يعصيني... ويأبى أن يكون طيعا... رضيا؟... ما يقتلني أنه دائما على
حق... ما أفعله هذه الأيام مناف تماما لعقلي... رفعت القلم عن نفسي...
كل ما يمليه علي عقلي أفعل عكسه.. أستمتع بعصيانه... لا عمل... لا
تخطيط... لا حساب لمكانة اجتماعية.. لا مواعيد... لا صفقات... لا
أهل... لا صداقات... لا مسؤوليات.... هل يعقل أن يكون الإنسان
سجين عقله؟... احتمال...

نسم علينا الهوى من مفرق الوادي... يا هوى دخل الهوى خدني على بلادي
لا.. ليس الآن.... لن أعود الآن... ولا أعرف متى سأعود... لن
أعود حتى تنتهي ثوراتي... زلازلي... وحتى أخمد براكيني...
تصفحت جريدتي.... لا تهمني الأخبار.. كلها أخبار سوداء... تتشع

..... فنجان.. قهوة

الصحافة بالسواد... تتقبل العزاء على مدار السنوات... الموتى كثير...
عروبتنا... إنسانيتنا... إخواننا... أمتنا... دياتنا... مثلنا... قيمنا...
رموزنا... لم يتبق منا شيء... غدونا كأعجاز النخل الخاوية... جفت
سرائرنا.. وتوالدت أطماعنا.. طموحاتنا دنيوية... بديهية... نتكالب على
كنز الذهب والبترو و المعادن والأسهم... تطاولنا في البنيان.. خلعنا
عباءة الصحراء... لبسنا «البكيني».... وأدنا أطفال حقيقة الوجود...

أراقب الغروب... أودعه سليتي... لا يستطيع حملها كلها.. كل
يوم أسلمه جزءا... أئتمنه على ضياعه... أدعو بسري.. «اللهم إني
استودعتك همومي وأحزاني... فلا تردها لي»....

دخلت بكل ثقة... تتهاذى بتمهل... وقفت في منتصف البار... تلفت
بهدهوء كمن تبحث عن أحد... يمينا.. يسارا... شعرها المتماوج يتحرك
بحرية مع كل التفاتة... على جبينها بضع شعيرات خفيفة ترقص مع حركة
عينها.. تضع حقيبة سوداء صغيرة تحت ذراعها اليسرى... ترتدي ثوبا
أسود يظهر تناسقا مخيفا بين ما يخفيه وما يظهره... بشرتها سمراء..
عينها سوداوان واسعتان تشهدان لعروبتهما... اتجهت نحو النادلة...
تبعثها بنظري بخنوع وطاعة أريد أن أعرف أين ستجلس.... تملكني
الفضول... تقدمت منها النادلة.. اعتدلت في جلستي... صلحت ياقة

..... فنجان .. قهوة

قميصي ... شربت ما تبقى من فنجان قهوتي سريعا... وكأن وجودها لا
يعنيني .. التقت نظراتنا... عدلت عن قرار اللامبالاة ...

لم أكن زيرا للنساء يوما.. ولم أكن من هواة جامعي مغامرات وقصص
الحسان إلا أن تجاهل وجود امرأة كهذه يعد ضربا من انعدام الرجولة
والحس والمنطق والذوق وكثيرا ما كنت رجلا ذا إحساس مرهف ومنطق
قوي وذوق رفيع .. وأنا أشهد لنفسي .. ولم لا؟ فليس هناك من يدقق في
أقوالي أو أفعالي .. أنا هنا لأدون معتقداتي و آرائي بنفسي و بالآخرين ..
أنا هنا لي الكلمة الأولى والأخيرة... وأنا هنا أسمح لنفسي بالحكم على
الكل وأسمح بنسج القصص واختيار النهايات...

وكان القدر استمع لأمنيتي الشقية ولدعوتي الخفية فكانت أن جلست
بجانبي .. أو من بالقدر .. وقد باتت جزءا من قدري ... أو هذا ما تمنيته
في مقعدي جلست أرقبها.. جلست .. طلبت كأسا من (الفودكا
بالبرتقال) ... لم أتفاجأ.. فنحن في البار... ليس هناك أحد غيري يحتسي
القهوة بدلا من المشروبات الكحولية...

هكذا أنا ... أحب الرسم ولا أجيده.. أزور معارضه... وأهوى
الموسيقى ولا أجيد العزف.. أعشق سماعها ودندنتها... أحب الجلوس
في البار ولا أحتمي الخمر... أحب الأطفال ولم يُكتب لي الذرية... وكأن

..... فنجان .. قهوة ..

صوري تأبى الكمال.. لا بد من النقص بطريقة أو أخرى.. ودائماً وأبداً
اللهم لا اعتراض...

كأس تلو الأخرى حتى دون توقف.. وأنا أرقبها.. دارت إبرة
بوصلتي من إعجاب من اللحظة الأولى لشفقة مفرطة... ما قصتها؟
ما بها؟ أتكون يائسة؟ مكتئبة؟

قرأت في عينيها كثيراً من الكلمات منها المفهوم ومنها المبهم.
يرن هاتفها كثيراً وترفض الرد على أي اتصال..

باعتقادي الناس كالكتب... كل له عنوانه وتصنيفه ... شقي...
سعيد... محروم... محظوظ.. كنت أتلذذ بتصنيف من حولي وأنا مسترخ
بمقعدي الوثير المريح ... بل وأتخيل كلا منهم ككتاب فعلاً أبداً بقراءة
صفحاته باللغة التي تحلوي ... حالما ينتهي من مشروبه ويحاسب وينطلق
في طريقه خارجاً .. أكون أنا أنهيت قراءتي له .. أقفل كتابه وأضعه في
مكتبة الذكريات المهملة وفق ترتيب مكتبي رديء.. على رف اكتسى بغبار
الأيام ورماد الدقائق.. قد أعيد قراءته إذا صادفني في يوم ما وقد أجعل
له جزءاً آخرًا إذا تذكرته... لا يهم.. في النهاية كلنا كتب مهما كثرت
كلماتنا أو قلت كل قصصنا مكونة من ثمانية وعشرين حرفاً لا أكثر...

وأعود بأفكاري لها... لا يفتأ هاتفها بالرنين الصامت ... أعرف من
إنارة الشاشة .. مكاملة واردة... وهي لا ترد... تنظر إلى كأسها وكأنها

..... فنجان.. قهوة

تعابها.. لا تحبها... ثم تلين نظراتها .. وكأنها تحن عليها... ومن حين
لآخر تبتسم لها.. وكأنها تروي لها نكتة.. عرفت أنها بدأت تفقد توازنها
وتدخل عالم السكر.. بدأت أقلق ... لماذا القلق؟ لا أدري.. قد يكون
لأنها جميلة.. أو لأنها نصف حزينة.. أو لأن فضولي يطرق رأسي بكل
الطرق الممكنة... وأريد أن أعرف و أساعدها... كيف ستغادر المكان؟
مع من؟ هل ستقود سيارتها؟ أم معها من يقلها؟

استجمعت شجاعتي ... ثم بددتها... لا ... لن أتصرف تصرفا
أخرق... ما عدت صغيرا... ولست أحمق... سأنتظر.. وأراقب...

أشارت للنادل من بعيد... أو هكذا هيئ لها... لم يرها النادل ...
فإشارتها كانت حركة خفيفة من يدها مع إيلاء من رأسها ... بعد خمس
دقائق.. أعادت نفس الحركة.. ولم يرها النادل أيضا .. كانت قد وصلت
إلى حد الهدوء الذي يجعل من الإنسان غير مرئي أو منسي ... فأشرت
للنادل بالنيابة عنها ووجهته للسيدة.. وطلبت حسابي أنا أيضا... فإن
غادرت فساغادر..

بعد أن دفعت ما عليها وبعد أن حاسبت أنا بدوري انطلقت خلفها أريد
أن أرى إلى أين ستذهب... وقرأت في عيني النادل نظرات سخيفة أخرجتني
.. هاهو ذا النادل يقوم بالحكم علي.. إنها لعبتي أنا لا تحاول أن تطلق الحكم
علي.. من نظرتة وابتسامته أكاد أجزم بأن أفكاره خلعت ثوب البراءة وبدأت

..... فنجان .. قهوة ..

تعربد في رأسه... لا يهمني... نفحته بضعة دولارات أريد أن أشتري حكماً آخر.. إلا أن الدولارات أكدت الحكم وأثبتته.. فقد اتسعت ابتسامته وأكاد أقسم بأنني لمحت خيال غمزة من عينه... يا إلهي كيف يجرؤ؟ سأعود غدا.. الآن ليس لدي الوقت فقد خرجت ولحقت بها...

كانت تقف متعبة وقد فقدت الكثير من جمالها بجانب المصعد... إذن فهي من النزلاء... أشفقت عليها... ترى هل رأت نفسها وهي بهذا الشكل؟ وقفت بجانبها بأدب.. وكأني لم أرها من قبل.. وكأني لم أعرفها خلال الساعتين السابقتين.. وكأني لم أحك القصص حولها وأنسج ما طاب لي من حوارات وأحداث عنها...

طلبت المصعد... أمسكت بالباب لها.. دخلت.. تبدلت رائحتها من عطر إلى سكر.. خسارة.. مسكينة.. استندت إلى جدار المصعد.. سألتها.. أي دور؟.. تلعثت.. تمتت.. حركت يدها بلا مبالاة وقالت whatever?

قلت لها: سيدتي أي دور غرفتك؟

قالت: السادس عشر... أغمضت عينيها.. وكأن الوصول للدور السادس عشر سيستغرق ست عشرة ساعة.. وقد قررت أن تغفو حتى تصل..

اعتقدت أنها قد تقع بأي لحظة.. وتأهبت لإسنادها.. بالنسبة لي صعود الأدوار الستة عشر كان بمنزلة دهر... ثوان شعرت بأنها ساعات... ترى

هل ستصل للغرفة؟ هل تعرف ما رقم غرفتها؟

وصلنا.. أخيرا... خرجت.. خرجت وراءها... وتركت بيننا عدة خطوات... تمشي بصعوبة.. تلف بها الدنيا.. تقف وقد باعدت بين ساقها تحاول التوازن.. فتحت حقيبتها وأخرجت بطاقة الغرفة... نظرت في الأرقام والاتجاهات تبحث عن غرفتها.. أتكون يسارا أم يمينا؟... بعد لحظات اتجهت يسارا.. ألصقت نفسها بالجدار تستغيث بسنده وتابعت السير.. وقفت أخيرا أمام باب ما.. وحاولت فتح الباب.. مرة.. مرتين... ثلاثا... قلبت البطاقة للجهة الأخرى... لم تكن قادرة على وضعها في القفل... هممت أن أساعدها.. ترددت.. لا... سيده ثملة وأمام غرفتها... لا أدري كيف ستفهم محاولة مساعدتي لها.. ماذا لو صرخت؟ ماذا لو اعتقدت أنني أريد سرقتها؟ ماذا لو لم تكن غرفتها من الأساس؟

تريثت.. قررت ألا أتدخل إلا إذا فقدت وعيها ووقعت أرضا... ماهي إلا لحظة حتى فتح الباب من الداخل وخرج منه رجل غاضب يحاول كبت صوته المرتفع قهرا وغضبا.. أين كنت؟ لم؟ وسكرانة؟ أجيبيني.. أين كنت؟ تصرفك هذا غير مقبول وحسابك عسير....

دخلت مترنحة... أجابته بلا مبالاة وسخرية: كنت في البار... لو بحثت عني لوجدتني... ولو وجدتني.. ما سكرت..

وأغلق الباب خلفها.....

طويت آخر صفحة من قصتها بعناية... ورصصتها في مكتبة خيالاتي..

..... فنجان .. قهوة

واتجهت للمصعد أريد أن أصل لغرفتي... ففضول اليوم أجهد أعصابي
وخيا لاتي...

في غرفتي... خلعت سترتي .. رميت بها على السرير.. أحتاج إلى
أن أغسل ما علق بي من أدخنة وروائح وأفكار وقراءات.. كم أكره
رائحة السيجار.. لا أدري ما السر بين ربط البار والسيجار... وإن كانتا
كلمتين متجانستين .. السيجار بكل أنواعه سواء الرخيصة الموجودة
في الدكاكين المرمية في الأحياء والموضوعة على الأرفف بإهمال بجانب
علب بسكويات الأطفال أو موسى الحلاقة أو الغالية التي لا توجد إلا
عند محلات السيجار المتخصصة والتي استحققت غلاءها بسبب كيفية
صناعتها .. فلف السيجار على ساق العذارى يستحق أغلى الاسعار..
كلاهما.. الرخيص والغالي يحيطني بروائح القمامة.. فكأنني أجلس بجانب
برميل قدر من القمامة تعتليه بضع قطط تحتفل بوليمة من بقايا طعام...
متى ستتعلم التفرقة ما بين أن نكون بشرا ذوي رأي ومنطق؟... لست
مقتنعا بأن كل من يدخن يكون هدفه متعة التدخين أو من باب الإدمان
على التدخين.. الإدمان ما هو إلا تهيؤات يتقمصها المدخن كي يستمر في
التدخين.... هناك من يدخن لا اعتقاده بأنه يحقق ذاتا وهي كلا وبأنه يضع
نفسه في إطار راق غير مهتم بصحته وكأنه أقوى من أي مرض.. لا يعلم

..... فنجان .. قهوة

بأن خلية عجفاء مشوهة قد تقتله... هذا هو الإنسان.. مغرور....

لا يهم.. كل له معتقداته وآراءه...

حمام ساخن.. ماء ينصب علي من رأسي حتى أطراف أصابعي..
أغسل شعري جيداً.. أفرك جسدي بقوة.. أريد أن أخلص من أفكارى..
اشتياقي.. ضياعي... حيرتي.. توهاني... أحزاني غير المبررة.. أشعر
بالإعياء.. البخار يضغط على أنفاسي.. وأبدأ باللهاث... أشعر بدوار
خفيف.. أغلق الماء الساخن فينهمر الماء البارد ليعيد لي توازني... أسحب
نفسي بهدوء ألتف برداء الحمام الأبيض الذي نقش عليه بكل احترافية
اسم الفندق... أنتعل خفي... وأخرج من الحمام لألقي بجسدي على
السريр.. أغفو بين أحضان وحدة بدأت ترعجني بإلحاحها...

تساؤلات أخيرة تمخّرت بكسل في طرقات تفكيري المشوش.. إلى
أين؟ وإلى متى؟ ولماذا؟

غدا سأجيب عنها كلها...

وبعد كل ليلة..

وفي الصباح.. أنسى الوعود.. وأعيد أحداث يوم سابق.. فكأنني لم
أشبع من آلام الأمس.. وأريد أن أنهل المزيد من اللاتيقين...

أصحو على رسالة يومية من زوجتي... كل يوم في نفس الساعة والدقيقة.. لا تكل و لا تمل.. محاربة... جلود... أقوى من أي شيء عرفته... حين أدركت أنها أقوى مني هربت...

(أنت لي كعطر شعري كعطر جسدي غالي الأثمان.. أشتاق لك .. أتلفت يمينا و يسارا كي تصلني نفحات منك مع تراقص خصلات شعري ومع حركات جسدي .. تتغلغل داخلي وأحفظك في مساماتي وفي ثنايا مرفقي كي أتففسك كلما همست اسمك)

امسح الرسالة بسرعة.. لا أريد أي تأثيرات... قد أكون قاسيا.. قد أكون مجحفا... لكنني أريد... أريد... لا أدري ما الذي أريده بالضبط... أعتقد أنها تعلم ما لا أعلم... أكره كونها على حق دائما.. تغيطني... أحبها.. ويغيطني أكثر حبي لها...

أشتاقها.. أحن لها.. أريد أن ألقى برأسي على صدرها.. تمشط شعري.. تنحني فوقني.. تقبلني.. تقول لي إن كل شيء على ما يرام... جعلت من نفسي طفلا لأعوضها حرماننا من الأطفال.. وأحببت أن أكون طفلها... أحسست بأنها أعذب أم .. وأحن أم.. عذبتني أمومتها لي.. وقتلني استسلامها لقدرنا بأننا لن نكون أبا و أما في يوم ما... كيف ترضين؟ أليست امرأة؟ ألم تعجن بمشاعر أمومة ؟ لماذا لا تدعني أتألم وحدي؟ اليوم.. وبعد كل سني الحب والألم والرضا.. أتمرد كمراهق..

..... فنجان.. قهوة

أثور على كل شيء.. ومن أي شيء.. ومن لا شيء.. أثور لغاية الثورة..
نعم.. أنا متمرّد.. ثائر.. هارب..

وأتساءل.. إن كنت حقاً متمرّداً.. فلماذا أمدّ يدي لأمسك بالهاتف
و أبحث بين الرسائل عن رسالتها كل صباح؟.. قبل أن أضئ مصباح
الغرفة.. قبل أن أنفض من السرير.. قبل أن أغسل وجهي؟.. أريد أن
تكون رسائلها أول صباحاتي... ببساطة هي العلامة الفارقة بين الطبيعة
والصورة... هي الروح....

يحلم المرء دوماً برؤية الحب الأول مصادفة وقد يعيش على هذا الحلم
سنوات طويلة.. حين رأيته عرفت أنها الحلم الحقيقية.. حين اختصر
وجودها حضور الآخرين.. تجاوزت كل حدودي... تخطت كل
حروف النفي... أضعت «ال لا» في دروب حب وردية و شواطئ أمل
فيروزية... وكان أن حققنا الحلم.. أو بتعبير أدق جزءاً من الحلم...

لصة هي... لا تسرق مجوهرات أو مالا وإنما سرقت لحظات متعة لا
أكثر من أزمّة شتّى.. وخبأتها في محافظ الأيام.. جعلت منها قوتا تشبع
بها جوع رغبتنا لطفل سنوات طويلة..

ومع كل صباح.. وكل رسالة.. أعيد اكتشاف حقائق كثيرة.. فللفرح
دونها عنوان مختلف وأبعاد ضيقة حسب ما تسمح به إشارات ذكرياتي
المرورية. ستحضر الشمس كل صباح لتلقي برداء الليل بعيداً.. ستخلع

..... فنجان .. قهوة ..

عن يومي رداءه الأسود وترمي عليه بشلال من نور .. و ستضئ عالمي ..
وتبعث الدفء في الأجساد الباردة من حولي .. حينها أدرك أن شروق
الشمس لم يعد كما كان .. وأنها سلبت بريق الشمس بغيابها ... لم تكن أبدا
ملاكي ... كانت دائما شيطانتني الصغيرة

أعلم أنني حطمت مراسي الأمل التي كانت تحيط بحارنا وأقر
بأنني لم أتلح بطوق نجاة يحميني من الغرق .. كانت طوق نجاتي ..
واخترت أن أبعد ورحلت ...

ما زلت تحت صدمة طلاقنا ... أحاول أن أنسى قصتي وأحيا قصص
الآخرين في بار الفندق ... لا تبرير مقنع .. ولا منطقية لتصرفاتي ...
لماذا على أفعالي أن تكون مبررة ومنطقية في حين أن الكثير مما يحوطني
يفتقد المنطقية والتبرير ..

كيف أكون الجلاد والمجرم في الوقت نفسه؟ ... حكمت على زواجنا
بالإعدام ... اتخذت القرار الذي كان يجب أن يؤخذ من سنين .. منذ أن
عرفت عقمي حينها خذلتني شجاعتي .. وتسلحت بسيف الأمل
... تعلقت بحبال الدعاء والقيام والصبر والطب ... أنادي الله بكل
يوم و كل لحظة ... اللهم لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين ... وهي ..
صابرة ... محتسبة .. داعية ... متفائلة ... أبت أن تتركني ورسمت لي حياة

..... فنجان .. قهوة ..

عنوانها السعادة والراحة.. قالت لي إن لم يكن ابني ابنك فلا حاجة لي به... بكيت يومها كثيرا... أحبها... أريد لها الكمال.... والسعادة... لكنني ضعفت... ولم أستطع أن أهبط الفرصة.. وكان أن اقتنعنا بأن الله استجاب دعاءنا بأن سخر أحدهما للآخر وبذلك لم أعد فردا فهي بجانبني ومعني.. أعترف بأنني خفت الوحدة.. وفضلت نفسي.. أبيت أن أَرْضِخ لعقلي وأدعها تحيا بعيدا عني.. أحبها نعم.. لكنني أحببت نفسي أكثر.. لسنين طويلة خفت من حياة هي ليست جزءا منها.. أصبحو كل صباح أطمئن على أنها تغفو جانبي.. أتخيل صباحي دونها.. ترعبي الفكرة.. أنفضها من ثنانيا عقلي.. أحضنها.. أقبل شعرها.. أشكرها هامسا...

تشعر بحضني.. تصحو.. أدرك أنها استيقظت.. فنغم أنفاسها بات أسرع.. أقبل عنقها.. تقول لي بدلال كسول.. تحبني؟
لا أرد..

تضحك بصوت هامس نعل.. تقول: حسنا أحترم صمتك.. إليك سؤال آخر.. لأي مدى تحبني؟

أقول لها: حين تلتقي أعيننا وتشيحين بنظرك بعيدا عني... أشيخ وأصبح بعمر الجبال.

تلتفت لي ثم تقول.. سؤال آخر: ماذا أعني لك؟

أقول دون تردد: أنت الهواء... قد لا أراك دائما ولكن أشعر ببرودتك وصهدك... وإن انقطعت عني ببساطة أموت.

..... فنجان .. قهوة ..

تجلس .. تسرح شعرها الطويل بيديها .. تنهض .. تدندن بطرب ...
«نحننا والقمر جيران .. بيتو خلف تلالنا .. ع قناطر دارنا»

ويضيع صوتها خلف الباب ...

سحر، إدمان أم حب؟ كلها مفردات لمعنى واحد

هروبي بعد الطلاق نوع من أنواع العقاب .. التشرذ .. الإحساس
باللاوطن .. اليتيم .. الضياع .. تمنيت الموت .. أرعبتني أمنيّتي .. هربت
منها بعيدا .. واستوطنت بار الفندق ..

نظرت للساعة .. إنها الرابعة فجرا .. كنت ما زلت جالسا على المقعد
في شرفة غرفتي أرقب موج البحر غير المرئي ... أسمع صوته واضحا ..
رتيبا منتظما حنونا .. يرسل همسات مبهمة .. لا أريد تفسيرها .. من آن
لآخر يثور على رتابته .. يطلق موجة صرخة تتميز عن أخواتها بقوتها ..
غضبها .. تمردها .. إصرارها على التميز ... تشبهها .. تذكرني بها .. حتى
موج البحر يتشبه بك حبيبتى .. أتذكرك .. وهل نسيتك؟ ... دعوة صريحة
من كل ما يحيطني .. أندم .. آسف ... عد ... ارم بنفسك تحت قدميها و
اعتذر .. قبل يديها .. واعتذر ... ابك .. نُح نوح الثكالى .. اذرف دموع من
فقد وطننا .. أرضا .. فهي أغلى من كل الأوطان .. هي حواء .. ضلعي ..
ونصفني .. وسكني .. أمسي ويومي وغدي .. من يقتل أمانه بسكين غير

..... فنجان .. قهوة ..

مشحود.. يحكم عليه بموت بطئ مؤلم.. هل أكون غيبا.. أم معتوها؟..
هل رفع عني القلم أخيرا؟.. ولكن المجنون لا يدرك جنونه.. وأنا أدرك
أن كل ما فعلته ضروب من جنون.. إذن فلست مجنونا بعد... يا ويلى..

سأتوضأ وأصلي.. أطلب الغفران والرحمة.. .. ارتكبت إثما.. وذنبا
وخطيئة.. هزرت عرش الرحمن ودمرت عرشي ومملكتي.. حكمت على
نفسي بالإعدام وحدة وقهرا.. سأنزف ذكرباتي وسأطلب الرحمة مرارا
و تكرارا.. ولن تجدي توسلاتي فهي توسلات بكاء لا صوت لها ولا
مستمع.. فكأنى ألقى بنفسي في بئر عتيقة ذات جُدر ملساء.. سأقضي
عطشا لأنفاسها وأنا في بئر من عبيرها سخرية.. أم سخافة.. أم
سذاجة.. أم ضياع؟... كلها حبال واهنة متدليه تومئ لي بأن أتعلق بها..
وأدرك أنها لن تصمد تحت ثقل يأسى وسأقع لأدك رقبة آمالي الضعيفة..

أنهيت صلاتي.. وأتبعها بسجود رجاء لله.. اللهم اهديني.. اللهم
اهديني.. اللهم اهديني... الصراط المستقيم... هل هناك أكثر من صراط؟
احتاج إلى أن أهتدي لصراط الدنيا وصراط الآخرة...

كان يجب أن أقرر.. أنا الرجل.. والحكم بيدي.. أنا القوام..
أنا صاحب القرار... أنا كامل العقل والدين... حياتي أم حياتها؟
فرصتها مقابل وحدتي... حياتي مقابل حياتها.... يأسى مقابل أملها..
معادلة يجب أن تحل.. قضية يجب أن تقفل.. واتخذت القرار ومارست

..... فنجان .. قهوة ..

رجولتي وأقفلت القضية.. بل قتلتها.. وأدتها.. وأنا الآن أجالس
ثراها .. أبكيها كل يوم..

من شرفتي .. أراهما .. يحضنها بقوة .. يكاد يرفعها .. على رمال البحر
الواسع .. في دنيا اللا حدود .. لا أفق .. لا حواجز .. وبكلتا يديها تحيطه ..
تتعلق به ... تعشق ضعفها تحت ظلال قوته .. تستسلم لقيادته .. تثق بأنه
يسير بها نحو الأمان ... لا وجود للخذلان في عالمها ..

بالأمس القريب كان عالمنا أيضا .. قبل أن أغتال اللا حدود .. وأصهر
الأمل بنيران يأس مستعرة ..

وأتساءل .. ترى هل استبدلت نغمة هاتفها؟ أسمع رنة هاتفها
مرارا و تكرارا كل يوم .. تأبى تغييرها .. «أنا لحبيبي وحبيبي إلي» تقول
ضاحكة .. «أخاف أغيرها يتغير حبيبي ... بعيد الشر .. لا أحب الفأل
البشع ... وهذا بالنسبة لي كابوس» ...

بيدي .. وبأربعة حروف .. حققت أسوأ كوابيسها .. طالق ... هل
انتهى الكابوس أم ابتداء؟ وهل هناك أسوأ من كابوس الوحده مخيما
بعتمة اليأس ..

خرجت من غرفتي .. اتجهت للبحر .. أحتاج إلى بحار لأطفئ
بها نيران ندمي ... بملابسي كاملة دخلت البحر .. ركبت موجة تلو
الأخرى .. أبتعد .. وأبتعد .. تغمرني المياه ... أقحم نفسي داخل المياه ..

..... فنجان.. قهوة

أحبس أنفاسي.. وأغوص.. خلفا فوق سطح المياه حياتي و يآسي
وأفكاري المجنونة... حاملا معي أملا بأن أنهي ألمي ووحدي... يضيق
نفسي.. أصارع رغبتني بالتنفس.. أقاوم.. أدرك أن الموت والحياة ليسا
من خياراتي.. ولا قراراتي.. أخرج رأسي من بين الموج.. أدرك أنني
بعرض البحر.. بعيدا عن بر الأمان... وأين هو الأمان؟ أبكي كطفل...
أرفع صوتي بنحيب يقتلني صدهاء... وأقول يا رب.. يا الله... أنجدي...
فأمواج حزني عاتية..

أمد يدي.. أحاول التعلق بأي شيء.. ولا شيء حولي... اخترت أن
أكون وحدي في عرض البحر.. لا منجد ولا معين.. ولا يد تتشلني...
وأدركت أن لا يد كيد الله.. وتملكتني طمأنينة.. سبحت بهدوء وكأني
مركب مسير ببحور استسلام لله..

ولم أغرق يومها... كان مقدرا لي أن أحيا... وشكرت الله على نعمة
الحياة حين وصلت إلى غرفتي...

من شرفة غرفتي.. أرقب البحر... الوقت قبيل الغروب.. فوق
صخرة مهترئة.. أكلتها السنون ومزق أرديتها انتهاك الموج المستمر خلفا
وراءه ثقوبا وفجوات كحلها الألم.. وقف صياد بيده سنارة.. ألقى بها
في بطن البحر.. وجلس يرتقب.. هو ينتظر.. و أنا أنتظر... هدوءه

يأسرني.. أريد أن أتعلم منه الصبر.. أحاول أن أغير فطرتي التي فطرتني الله عليها.. فقد خلقتني هلوعا... أريد أن أمرن وأطوع نفسي .. سنوات طويلة أحاول دون كلل أو ملل.. وهذا نوع آخر من أنواع الصبر... أعتقد أنني لن أتغير فالتطبع يغلب التطبع.. والفطرة هي القوة العظمى لساعد الطبيعة ساعة.. ساعتان.. و لا سمكة واحدة ... ولم أعد أحتمل الانتظار... تركته فوق صخرته واتجهت لموعدي اليومي.. ترى هل ستكون حكايا اليوم مسلية أم مستفزة.. واقعية أم خيالية... مضحكة أم مبكية؟.. سنرى...

حالما دخلت ... لمحت صديقا لي ... رجعت خطوة للخلف.. لكن سبق السيف العذل.. رأيي ... قفز من مقعده صارخا باسمي متبعه بكلمة حبيبي.. وانطلق نحوي.. أقول انطلق لأنه بغمضة عين كان يعتصرني بأحضاناه وقلبه ويضحك بصوت عال.. شاكرا الله على هذه المصادفة.. اجلس .. اجلس يا رجل... سحبني من يدي وأقسم ألا يدعني حتى يحين موعد سفره اليوم التالي... حمدت الله على أنه سيغادر سريعا.. لم أكن مستعدا لأي حياة اجتماعية .. ما زلت أحتاج إلى وحدتي.. احتاج إلى ألا أسمع إلا صوت أفكاري... لا أريد شراكة من أي نوع.. لا لشراكة اللحظات.. أو الأماكن.. أو الأفكار.. أو المعتقدات.. أو الكلمات... أريد أن أبقى وحيدا.. لمتى؟ لا أعرف بعد.. إنه احتياج وقد اعتدنا أن نلبي حاجتنا حتى وإن كانت ضمن اللامعقول...

صديقي أضجرتني.. خنقني بقصصه القديمة المكررة... لم يستطع أن يقرأ تعابير الملل التي كانت تسردها عيني بصمت واستمر بالكلام دون توقف... أحاديث عن فلان وعلان.. والأسهم.. والعقار.. وغلاء المعيشة... يا صاحبي.. أنا الهارب من دنياك لماذا تلحق بي لتطلق رصاصات الواقع السخيف بوجهي؟ .. أنا غير مهتم .. لا تخبرني.. لا تقص علي ما أعرفه.. ما أحفظه عن ظهر قلب.. ما أستطيع التنبؤ به.. قصص مكررة مملة.. لم يكتف بذلك.. بدأ يسألني عن قصصي.. ما الذي تفعله هنا؟ ولماذا بقيت كل هذه الفترة؟ ومتى ستعود؟ وأين تقيم؟ ولماذا هذا الفندق بالذات؟ يا إلهي كم يزعجني التطفل... وتذكرت بأنني المتطفل الأكبر فقررت عدم التذمر والصبر..

غربت الشمس وبدأت قصة الحب اليومية بين العازف والبيانو.. يغازل أصابع البيانو بحنان.. يقبلها.. يلثمها.. يغنجها.. وتبدأ بدورها بتغريد أحلى الألحان.... علاقتها محبة.. سعادة.. فرح... دموع.. أشجان... تفاهم... إن كانت هذه أسس كل العلاقات الإنسانية لساد السلام.. حين تشوهت أخلاقنا أنجبنا علاقات هي أشبه بالمسوخ..

وما زلنا نبحث عن السعادة وراحة البال والرضا وكأننا سنحظى بها في دكاكين البقالة المتناثرة في الأزقة..

تناسينا أنها جميعا حصاد لإيماننا بالله وثقتنا بأن كل ما عند الله خير.. أحاول أن أذكر نفسي من آن لآخر وأحدث نفسي بذلك و لكن عندما

تجلل بصائرنا بملاءات من عمى سيعجز المنظار عن توضيح الرؤية..
حين تكون الضباية دثارا لنا.. واللاوضوح و المواربة دروبنا.. حين
تكون منافعنا أهدافا لنا.. وحين نضع مشاعرنا وإنسانيتنا في قفص
صدئ ونقفل عليها بقفل من القسوة.. وحين يكون السجن الأنانية..
نكون دمرنا حقول المحبة واخترنا حياة البراري وقوانين الغاب..

البحار.. الأشجار.. الرمال الذهبية.. الجبال.. المطر.. الرياح الندية..
كلها نعم رزقنا الله بها كي تكون ملاذا لنا.. وكثيرا ما ننسى ذلك.. أو
نتجاهله.. أو نرفضه... وحين أرى شجيرة شديدة الخضرة تنبثق من
وسط صخرة تتجلى قدرة الخالق وإبداعه.. وأتذكر قوله تعالى « يخرج
الحي من الميت ويخرج الميت من الحي »

أفكاري لا تنتهي كأحاديث صديقي.. لم يدرك ضجري ولا ضيقي..
أعتقد أن شرابه أطلق العنان للسانه في مضمار الكلمات.. امتطى صهوته
وأطلق ساقيه لريح الأحرف .. فأضعته... ولم يعبأ واستمر في سباق هو
فيه المتسابق والفائز والحكم أخيرا... انتهت قصصه.. كان لا بد أن
يتعب في مرحلة ما.. كثرة الشرب والأكل والكلام استنفدت طاقته بعد
بضع ساعات .. وقف مبتسما وكأن الترنح يدغدغ عقله .. اتجه للنادل
فقد أصر على دفع الحساب وهو يغادر.. لا أدري ما سر كلامه الكثير..
حتى مع النادل وقف يتسامر ويتكلم.. وقد بدا لي أنه يتحدث عني إلا
أنني نفضت شكوكي وتجاهلت ملاحظتي ... أخيرا.. رحل.. والتقطت

..... فنجان .. قهوة ..

أنفاسي .. وجوده خنقني ... كرهت نفسي ... وصلت إلى غرفتي .. أكاد لا أعرفني: أستغربي ... أدق في انعكاسات ظلاي على مرآتي ... أرتدي ابتسامتي ... أتنفس الصعداء ... فأنا ما زلت أنا ... الحمد لله .. تعلي أسطحي طبقات من غبار الحزن والشك والسلبية و القلق .. أعرف أنني سأنفضها طبقة تلو الأخرى .. وكغريق .. أنتظر أن أصطدم بالقاع .. لأدفع بنفسي عاليا .. وأتساءل: كم أن محيطاتي سحيقة ... يهمس لي عقلي : لا تصرخ طلبا للنجدة بعد فوات الأوان فعند الغرق لا تسمع الأصوات ...

وقف فجأة وقال بصوت سمعه كل من حوله:

هنيئا لك فزيفك سيتمزق ويتعري بمخالب قبحك

قالها بعينه وشفثيه ويديه .. بجسده كله نطقها .. الكره والاشمئزاز و القرف أحاطوا به كهالة من سواد القبور .. أكاد أجزم بأنني لو اقتربت منه أكثر لشممت رائحة للكره ...

ترى ما قصتهما؟

من مكاني .. ومن مقعدي .. وبكل صفاقة المتطفل .. ملت بجذعي قليلا باتجاههما .. أريد أن أسمع أكثر ..

حين وصلت إلى مكاني لم يلفتا نظري .. كانا كأبي ثنائي .. يجلسان و قد اقتربت رأسا هما ... من الواضح أن جدالا كان يدور بينهما .. ولم

..... فنجان .. قهوة ..

أعبأ بهما.. تكررت لدي هذه القصص حتى أضجرتني.. كانا يتهاامسان بصوت خفيض حتى إنني تساءلت كيف يسمع أحدهما الآخر... ولم أرد هدر طاقتي بمحاولة معرفة قصتهما.. وشاء الله أن يصيح هو عاليا بتلك الجملة فأقع فريسة فضولي مرة أخرى.. ولكن هذه المرة نصف الموجودين شاركوني الفضول.. حتى إن النادل اقترب وقد تأهب للتدخل إن تطورت الأمور..

ودقت النظر فيها..

فتاة عشرينية قوية النظرات لم تتأثر بأي حرف مما قاله.. ولا بالنظرات الموجهة لهما... تجلس بهدوء.. تنظر له بثبات.. وكأن ثورة غضبه لا تعنيها.. كأنها متفرجة غير مكترثة... قلبت شفتها السفلى بخفة.. شعرها يحيط وجهها معربدا.. ثائرا.. متموجا.. تلعب بأظفارها وكأنها تفكر بها...

حسنت أمرها...

وقفت مقابلة له.. متحدية.. وقد باعدت بين ساقيهما وكأنها تتأهب للهروب.. قالت بصوت واضح قوي:

هل انتهيت؟ إذن فاسمع..

لا أريد أن أكون رهن حسن ظنك بي؟.. لا أريد أن أتصف بالكمال من أجلك وحدك؟ رأيك لا يهمني..

..... فنجان .. قهوة

السعادة مادة نسبية... طموحي أن تكون نسبتي ١٠٠٪.. هاك خاتمك
مقابل حريتي..

وانطلقت... وبقي واقفا كالمدھول.. اعتقد أنه تفاجأ بردها... لم يكن مستعدا
لهجوم معاكس.. اعتقد أنه سيد الموقف وغدت صاحبة الكلمة الأخيرة..
انهار على مقعده.. وضع رأسه بين يديه كمن يختبئ من الحضور و
من نفسه..

ساد صمت عجيب للحظات .. هل كان احتراماً لحزنه.. أم تعاطفا
مع موقفه.. أم مشاركة نفسية ومعنوية لما يمر به؟...

إلا أن البار كالحياة لا تتوقف عند إنسان.. قد يتعرقل.. وقد يقع..
قد يموت.. وقد يختفي.. والحياة تسير وفق دورة محددة لا خلل بها..
هكذا كان البار.. سرعان ما تحرك السقاة لتلبية طلبات الحضور..
وبدأت النغمات تتصاعد من البيانو بحذر ثم هاجت مع صوت المطربة
الشجي... أناس يذهبون وأناس يجيئون.. وهو كما هو رأسه بين يديه..
و أنا بدوري كما أنا.. أراقبه وأحاول أن أغزو فكره وعقله... بعد
قراءة الساعة.. رفع رأسه.. طلب الحساب.. التقت نظراتنا.. حاولت
أن أشيح بنظري بعيدا.. إلا أن احمرار عينيه أربعني وأسرني... دفع
حسابه.. نهض.. اقترب مني.. توترت.. تمنيت ألا أكون المشهد التالي
لزبائن البار...

..... فنجان.. قهوة

مال نحوي.. قال بهدوء: خسارة... أبسط آمياتنا تكون هي
المستحيلة..

رحل...

وبقيت كلماته تتردد في عقلي كأغنية عتيقة حزينه سرعان ما غدت
مزعجة لم أستطع الهروب منها إلا عند ساعات الفجر الأولى عندما غفوت
وقد عاهدت نفسي أن أبتعد عن عالم التسول الفكري والعاطفي...

«أعشق صوت دقات الساعة وخيرير الماء وجندب الليل... وصوتك»
أغلقت صفحة الرسائل في الهاتف... هذه الرسالة بها دعوة
للحوار... تريد أن تسمع صوتي.. وأسمع صوتها.. وتعلم بأن لا حجة
لي.. و لا منطق.. سأخسر.. أشتاق لصوتها كثيرا.. كلامها.. أحاديثها
.. تفاؤلها... ليس لدي ما أقوله... لن أتصل... سأبقى أعمه في غيبي لا
أصغي لعقلي... أتخبط في ظلمات من غباء وعناد وجهل...

أشعر بإعياء شديد.. كلي أوجاع... أكابر وفي جسدي مئة فاه تئن الآه..
... ألامي تناديه... تحن لها.. أتقلب في سريري.. أشم رائحتها مخبئة في
أفكاري.. عبر السنين تعلمت كيف تخبئ أجزاء منها في كل أركان حياتي..
هنا ضحكة وهناك أمل وفي زاوية أخرى تزرع أنوثتها لتزهر رياحين من

..... فنجان .. قهوة ..

حب .. تنثر عطرها في صفحات أيامي لتكسيها شذى الخلود...
تعب أنا... مرهق... أنظر من النافذة .. أريد فتح الستائر .. أريد ضوء
الشمس .. أحتاج إليه .. ولا أقوى على النهوض...
جررت نفسي .. سحبتها .. استجديتها .. تسللت للنافذة .. أزحت
الستائر الثقيلة .. غمرني الشمس بحنان ... قبلت جيني .. همست
بغواية و تحد .. يوم جديد .. فهل لديك الشجاعة لتعيشه؟
أنا المنهك .. عديم القوة .. متزعزع الهمة .. مرتجف الأنا .. هل لي أن
أقبل بتحد كهذا؟ بالطبع لا...

في تلك اللحظة عرفت أن روتين الحياة هو إكسيراها... نتضجر منه
و نحاول الهرب منه .. نحمله أسباب تعاستنا وتأففنا... اليوم أتمنى
لو كان بإمكانني أن أحيا روتين حياتي اليومي... ففيه تختبئ سعادتي...
أشتاق لقهوة الصباح .. وطريق العمل .. مكتبي .. دفاتري .. أوراقتي ..
أفلامي... لا قيمة لجواهرنا إلا عندما تسلب منا .. وأتمسك بأن روتين
حياتي يبقى أحد حقوقي كإنسان ما زال يتنفس ذكرياته...
أغلقت الستائر بسرعة وارتميت على السرير...

تدق الساعة ثوانها على رأسي .. تنوي تمزيقه .. دون رحمة .. تك ..
تك... تك .. تك .. أنتظر خطأ واحدا في الإيقاع .. أنتظر سكتة
قلبية تودي بدقاتها .. أنتظر جلطة تشل أذرعها... ولا أستطيع النهوض

..... فنجان .. قهوة

أو الوصول لها.. لماذا لم أسمع صوتا لها طوال إقامتي؟ لماذا اليوم بالذات؟
أحتاج إلى السكون.. لا لأي صوت سوى صوت الصمت... اصمتي
حبا بالله... لا تنته من الدقات.. و أتذكر ساخرا... أنوثة الساعة تأبى
عليها الصمت... وإلا فكيف لها أن تكون من حملة تاء التأنيث؟

مارست الحمى لمدة ٢٤ ساعة.... دون توقف... أثيرها وتثيرني...
أجذبها وتجذبني.. تصارعنا.. تعاركنا... أصبح السرير حلبة تدور بها
أعاصير سجالاتنا... تشهد علينا الوسائد المبعثرة.. والأحلام المطعمة
بنكهتي الكوايس والهلوسات....

ما كنت أعلم أن المرض سيأتي بها إليّ.. أحلامي كانت عنها... حال
اختفائها يغدو الحلم كابوسا... وأبدأ أهلوس.. أناديها.. أسألها أن تبقى
... وتبقى.. ويعود الحلم ورديا عطرا... ثم.. تعود لتختفي.. وهكذا..
حتى زالت عني الحمى...

جزء مني تمنى على الحمى أن تبقى كي تبقى هي الأخرى.. حينها
أيقنت أني مريض الجسد والروح والنفس..

هل ينسى الإنسان أم يسلى؟

جلسن ثلاثتهن مقاربات.. أخوات؟ أم صديقات؟ تحوطهن هالة
من حب صاف.. وابتسامات فرحة.. في نظرات إحداهن شقاوة لذيذة..
ليست أصغرهن ولكن قد تكون أشقاهن... تتمايل عليهن بدلع محبب...

..... فنجان .. قهوة ..

طرحت السؤال دون مقدمات... وانتظرت ردهن... وبدأ النقاش...
كنت بحاجة إلى قصة جديدة أعدّها بمنزلة نقاهة لي بعد الحمى غير
المتوقعة.. وكن خير جليس.. خفيفات الروح.. منطلقات... جميلات..
متفائلات.. أطلقت على كل واحدة لقب.. الحكمة.. الحياة.. والأمل
إذ،.. هل ينسى أم يسلى؟

بالرغم من هروبي وابتعادي.. لم أنس ولم أسل .. ترى أي القدرين
بانتظاري؟ هل فعلاً أريد أحدهما؟ ألا يوجد خيار ثالث؟
قالت الحكمة: لا ينسى الإنسان بل يسلى....

ما الذي يجعلها متأكدة؟
هل مرت بتجربة تمت فيها نعمة النسيان؟ هل سأعرف يوماً؟ وهل
يهم؟ بالطبع لا... فأوجاع الآخرين لا تهمني ولا تعنيني.. لكنني أحتاج
إليها.. لعلّي أستصغر أوجاعي...

قالت الأمل: أتمنى لو كنا نمتلك ذكرياتنا .. كنا محونا كل ألم وكل
ذكرى موجعة...

قالت الحياة: هذا ظلم... كلها ذكريات أسهمت بصياغتنا... لنكون
نتاج أيام وآلام...

..... فنجان.. قهوة

قالت الحكمة: كلها فرضيات... النسيان!! .. عندما خير الإنسان لم يخير بين النسيان أو عدمه... في النهاية.. قد تنسين أشياء تتمنى أن تبقى مخلدة في ذاكرتك.. لأنك قد تحتاجين إليها في لحظات جوع لذكرى عطرة.. والعكس صحيح.. فقد تستوطن ذكرى مريرة أحلامك وأيامك.. تراودك لتقض مضجعتك.. وتقرض سلامك لتترك به ثقباً يتسع للحمامة البيضاء بغصن الزيتون فتفر هاربة....

فكرت.. إن كان في النسيان نعمة لكان مريض الزهايمر أوفر الناس حظاً... لكنه عوضاً عن ذلك يشقى بنسيانه... ليت للوسطية مقعداً في مجلس النسيان فقليل منه سيجبر كسر القلوب ويرسم بسمة من رضا على شفاه أحتت زواياها مرارة الذكريات...

«حين تصفح قلاع خصوصيتك بدروع الصمت الباردة كيف لي أن أتجول بين أفكارك وأقلب في صفحات مشاعرك؟ كلما أقرب تصعب قراءتك وأغرق في بحور القلق».

هذه رسالة ... والرسالة الأخرى.. وكل الرسائل.. امتلاً صندوق الوارد برسائلها...

وكأني بانتظار شيء ما... لا أجيب رسائلها.. ولا أريد أن أعود... ولا أفكر.. ولا أتصرف... مشوش التفكير.. ضائع.. أجالس الصمت

..... فنجان .. قهوة

وأشلاء قصص ... أين هي قيودي؟ سأكسرهما ... أحطمها ... وأدوس عليها أفتتها ...

سأعود غدا ... أم هل أرسل لها أخبرها بمكاني؟ نعم .. سأطلب منها أن تأتي .. سأعتذر لها عن هروبي المجنون .. ستفهم .. وستسامح .. بدون أعذار أو تبريرات .. سأكتفي بحضنها .. وسأقول لها أحبك .. وسنعود كما كنا ...

كما كنا ... وكأنه من الزمن البعيد .. من عالم آخر ... كنا؟ .. متى غدونا أشخاصا من زمن ماض هل يعني ذلك أننا مضينا و انتهينا ... أين اختفى مستقبلنا .. حاضرا؟ متى رحلنا من الزمن الحاضر واستوطننا عهودا آفلة؟

من السبب؟ وكيف؟ كلها أسئلة لا بد أن أجد أجوبتها ...
كم مضى على تشردي؟ أسبوع؟ أسبوعان؟ شهر؟ شهران؟ لا أدري ..
صدقا ...

أنا جد مرهق ... وتعب ... لكنني اتخذت قراري ... غدا سأضع الحد ... وأنهى فصل الشتاء ...

أغمضت عيني ... أهرب من خليط أفكار ومشاعر غير متجانس ..
وأنا أكسل من أن أنهض فأغتسل وأنطلق ...

..... فنجان.. قهوة

بعد فترة لا أعلم إن كانت قصيرة أم طويلة.. سمعت طرقا على الباب.. بدأ خفيفا ناعما.. ثم بدأ يعلو شيئا فشيئا.. وددت لو يرحلوان.. لا أحتاج لتنظيف الغرفة.. ولا أحتاج لأي من خدمات الفندق....

الإصرار أجبرني على النهوض... فتحت الباب...

بكل ما فيها من إحساس وأنوثة وقفت أمامي.. وابتسمت...

بكل بساطة.. وحب... وتسامح..

اقتربت مني حتى شعرت بحرارة أنفاسها.. همست: لا تخطئ قراءتي.... ابتسامتي ليست تصریحا عن الرضا وقد لا تكون إعلانا عن سعادة وليست حتما بيانا للسخرية.. قد تكون مزيجا من ألم وحيرة وعجز.. وقد تكون ببساطة بديلا عن الصمت..

لمست شفتها شفتي بخفة... ثم ابتعدت سريعا... رعشة شفتينا حين التقتا كانت ميثاق غفران..

اتجهت للستائر المسدلة.. رمت حقيبة يدها على السرير.. فتحت الستائر والنوافذ... ثم رمت نفسها على المقعد عيشة لا حب فيها... جدول لا ماء فيه....

..... فنجان .. قهوة ..

صحوت .. مددت ذراعي أريد أن أحضنها .. همست: صباحي أنت يا أحلى صباحاتي ... عمري كتاب كل حروفه اسمك .. لم تسمعي .. لم أجدها .. نهضت مرتاعا .. أين هي؟ أتكون في دورة المياه ... قفزت أبحث عنها ... لم أجدها .. أين ذهبت؟ لا .. لا .. لا .. لن تتركني وترحل ... تعلم كم أحبها ... ستعود ... اليوم .. غدا .. بعد غدا .. متفائل باياني بالله رغما عن أنف شياطين التشاؤم . نيرانها لن تطالني .. فلتحترق بها ..

بالأمس لم نتحدث .. لم تعاتبني .. لم تحاسبني ... لم تسألني ... اكتفت بنظرات الحب .. واكتفيت بوجودها ..

لا أعلم كيف عرفت مكاني وكيف وصلت لغرفتي ... ولم أهتم .. كل ما أهتمني أنها كانت معي ... وأننا معا كما كنا ..

واليوم .. الغائبة الحاضرة .. أين رحلت؟ ومتى ستعود؟ وهل ستعود؟ كالكرة أقذف بين ملائكة آمالي وزبانية تشاؤمي .. وما أصعب الانتظار ... وما أقسى المجهول؟

من شرفة غرفتي وقفت أبحث عنها بين المارة .. لا أريد أن أغادر غرفتي .. ماذا لو رجعت ولم تجدني؟ سأنتظر وأنتظر وأنتظر ... لأنها ستعود ..

مر يومان .. وبدأ الثالث .. ولم تعد ... أتصل بها .. هاتفها مغلق .. أحاول أن أتبع وجودها .. ولا أثر لها .. صفحة (الفيس بوك) لم يحدث

..... فنجان .. قهوة ..

بها أي تحديثات .. البلاك بيرى أيضا .. أتنتقم من غيابي بغياب أقسى؟ ...
هي تعلم أنني لا أقوى على بعدها .. وأن رحيلي لم يكن اختياري بل
قدرى ... وقفت أمام تساؤل أرعبني .. أأكون سارقا لسويغات متعة من
رصيد الزمن أم يكون الزمن سارقا لسنيني؟

فُطرنا على الحب والحنان .. إلا أننا لا ندرك أنه يأتي بعبوة واحدة مع
الخدلان ...

لماذا أفكر هكذا؟ لأنها لم تعد؟ وهل يجب أن تعود؟ ألم أتخل عنها و
أخذها؟ لكنها وجدتني .. وأحببت ذلك .. هل جاء دوري كي أعود
لمنزلنا .. لبيتنا ... لزماننا؟ لكن شيء ما في داخلي يمنعني من العودة ..
يأبى علي أن أخطو خطوة نحو ذلك .. أشعر بأنني لن أجدها .. لن تكون
بانتظاري كما اعتدت ... ولذلك لن أعود ..

من شرفتي .. لا أفتأ أراقب المارة ولا أمل ... غدت هوايتي
الجديدة ... لعلني أرى طيفها ..

أتذكر كلامها «أشواقى لك مراكب بيضاء صغيرة نسجت أشرعتها
مذ كنت طفلة بإبرة خيالاتي البريئة ... صنعت قواعدها من أوراق
دفاتري المدرسية .. أبحرت الواحدة تلو الأخرى في بحار أيامي لترسو
بمرافئ حنانك»

..... فنجان .. قهوة ..

أصدق كل حرف وكل معنى... أعتمد على مراكبها الصغيرة لعلها
تبحر بها نحوي..

أنهض لصلاتي.. أنتظر انتهاء الركعات والتشهد والتسليمتين..
أسجد.. أنيخ مطايي عند من لا تخيب عنده الآمال أغلق عيني بشدة..
أتمناها.. يا رب.. لا أريد غيرها.. أبكي كطفل.. نشيجي يخيفني..
يؤلمني.. شيئاً فشيئاً خفّ الألم.. خف نحبي.. سلمت للواقع.. نهضت..
رميت بنفسي على مقعدي في الشرفة.. أغمضت عيني..

أعلم أنها تكون أقرب لي عندما أغمض عيني.. أستطيع تخيلها وضمها
لي.. أستطيع محادثتها والاستماع لها...

سمعت صوت الباب.. قفزت من مكاني.. وقفت قبالها.. ها قد
عادت.. ابتسمت.. ارتحت.. بعمق تنفست حتى امتلأت رئتي بالهواء..
زفرت.. قلت: هأنا أتنفس من جديد.. أين كنت؟ لم رحلت؟

قالت مبتسمة: تذكر أني أحبتك بكل لحظة أعمارا خالدة.. لا يهم
إن كنت هنا أم هناك فأنا دائماً بقربك... وبأنك وهبتني سعادة نثرتها
كمجرات مضيئة في سماواتنا الواسعة لتهجئ اسمك...

أتعلم ما الذي يعيدني لك؟ إنها أشواقِي .. كلها.. جميعها بلا نهايات
و بدايات مفاجئة...

..... فنجان.. قهوة

سحبتي من يدي.. أتجهنا للشرفة.. قالت: لا تنتظري.. سأكون
بانتظارك في بيتنا.. وإن لم تعد فلا تبحث عني.. فأنا دائما هنا...
وأشارت لقلبي...

في الصباح.. كما في ذلك الصباح.. لم أجدها.. تحضر.. ثم تختفي..
تغزوني.. تعبت بي.. تسعدني.. تنشيني.. ثم تشقيني.. وتبكييني.. أعلم
بأنها تعاقبني.. تجلدني.. تدمرني... وأستحق ذلك.. وربما أكثر من
ذلك...

أحتاج لفنجان قهوة كبير كي أفكر... أعددت القهوة وجلست في
الشرفة... لن أنتظرها.. لتأتي وترحل كيفما شاءت.. فما عدت رجلها منذ
أن طلقته... طالق كطلقة من بندقية صدئة استوطنت وسط عمرنا..
حولته لشظايا جارحة نحرت أيامنا وذكرياتنا.. ألقى بها على قوارع
طرقات سنين عشناها..

يا لها من غيبة.. لم تدرك أنني طفل.. ساذج.. متألم.. لا أعنيها... لم
تدرك أنني خلعت ثوب الرجولة لحظتها وبأنني حتى اللحظة عار..
هي السبب.. وأنا السبب.. والظروف السبب.. وأقدارنا السبب...
سلمت بقدرنا.. لا أطفال.. لا خلف.. لا زينة الحياة الدنيا.. واستبدلت

..... فنجان .. قهوة ..

بها فلذات أكبادنا أطفال الآخرين .. عملت في روضة للأطفال .. وبدل
الطفل .. أصبح لديها ٢٠ طفلا .. كلهم ينادونها ماما ... الغيرة قاهرة ..
حاولت أن أتفهم .. حاولت أن أشاركها سعادتها .. فرحها .. أمومتها
المزيفة .. رضاها .. قناعتها .. حبها للحياة .. لكنني فشلت و غضبت .. لم
أستطع .. ولم أعرف كيف .. قهرت وكرهت نفسي .. غرت منها وعليها ..
ولم أكن أعلم أن الغيرة شيطان .. وأن للغيرة مخالب وأنيابا كما الأسود ..
فتكت بنفسي قبل أن أقضي عليها ..

وطلقتها ..

وهربت ..

ولحقت بي ..

ثم اختفت ..

ثم عادت ..

واختفت ..

ليتها تترفق بي فما عدت قادرا .. إحساس الوحدة .. الذنب .. الخوف ..
القهر .. الانتظار .. المجهول .. الضياع ...

سحقا للسلبية .. ما عدت قادرا .. سأعود الليلة .. وليكن ما يكون ..
سأواجهها .. وسأعتذر .. لست أول من يخطئ و لن أكون الأخير ..

..... فنجان .. قهوة ..

ستزهر حياتي من جديد وسأعيدها سيرتنا الأولى...

بكل حماس الكون وسعادة من وجد ضالته فتحت حقيقتي .. رميت
كل أغراضي بها .. نظرت للساعة .. ما زال أمامي بضع ساعات قبل
إقلاع الطائرة ... سأذهب لأودع مكاني المفضل .. ما زال الوقت مبكرا ..
سيكون هادئا .. بضعة نزلاء يحتسون القهوة .. جلست على طاولتي ..
أت النادلة بابتسامة كبيرة .. قدمت لي القهوة ..

قالت: جئت مبكرا اليوم ..

قلت: جئت أودعكم ..

قالت بحزن: سنفتقدك ..

قلت مبتسما واعدة: سأعود قريبا .. لكن يجب أن أذهب .. فقد
وعدت زوجتي بالأمس أن أعود ..

رأيت في عينيها نظرة دهشة .. صمتت ..

قلت: مابك؟

تلعثمت .. قالت: لا شيء سيدي .. لا شيء ..

شربت قهوتي على عجل .. ألقيت نظرة و داع للبحر .. بحثت عن
النادلة كي تأتي لي بالحساب ولكنني لم أرها .. نهضت من مكاني وذهبت
كي أدفع ما عليّ عند المحاسب .. طلبت الفاتورة ووقفت أنتظر ..

..... فنجان .. قهوة ..

سمعت صوت النادلة من خلف الحاجز تكلم أحدهم..
قالت بحزن: يتكلم عن زوجته وكأنها موجودة.. حالته تتفاقم..
انفصل عن الواقع كليا..

رد عليها صوت عرفته حالا: وما أخبار كتاباته؟
إنه صوت صديقي الذي جاء ليزورني من فترة..
استغربت.. عمن يتحدثون؟ استرقت السمع أكثر..
قالت: يا دكتور.. حين بدأ الكتابة عن الفندق والبار والنزلاء قلت إن
ما يكتبه هو بمنزلة تفرغ لأفكار ستصل به في النهاية لحقيقة وضعه..إلا
أنه توغل في انفصاله عن الواقع..

يعد صالة استراحة المرضى بهو فندق وبيانو بار.. لوحة البحر المعلقة
على الجدار أعدّها بحرا حقيقيا.. المرضى بالنسبة له نزلاء.. ينسج حولهم
القصص ويكتبها.. النافذة جعل منها شرفة.. والآن أصبح يتخيل زوجته..
«هل يتحدثون عني؟ هل يقصدونني؟» ارتعشت رجلاي..

رد عليها: وفاة زوجته في تلك الحادثة.. إحساسه بالذنب..
أريد أن أجلس.. لم أعد أقوى على الوقوف.. لماذا أشعر بأنني محور
حديثهم؟ تذكرت الحادث.. أنا وهي في السيارة.. أريدها أن تترك
المدرسة.. تعود لي.. أكون تلميذها الوحيد.. وطفلها الوحيد.. رفضت..

..... فنجان .. قهوة ..

تريد أن تبقى في المدرسة .. وبين أطفالها .. علت أصواتنا .. تشاجرنا ..
طلقتها .. كنت مسرعا وغاضبا .. لم أر الإشارة حمراء .. اجتزتها .. أدركت
خطئي .. أم أقول أخطائي ؟

كي اتفادى الاصطدام بسيارة تعبر الطريق المعاكس انحرفت بشدة ..
دارت السيارة بنا حلقات إلى أن أوقفها عامود الكهرباء سمعت
صرختها مع صوت تكسر الزجاج .. وتحطم هيكل السيارة .. ضجيج
لا يطاق .. يصم الآذان .. بعدها خيم صوت الموت على كوني .. لا أسمع
إلا أنفاسي .. أناديها .. لا تجيب .. هل فقدت سمعي ؟

أردت أن أنام .. سأغلق عيني فقط للحظات .. هكذا وعدت نفسي ..
سمعت صفارات الإسعاف رأيت رجلا ما يقترب .. همست ..
زوجتي لا تسمعني .. لا تجيب .. هل هي بخير ؟ سمعته يقول : لا حول
ولا قوة إلا بالله .. إنا لله وإنا إليه راجعون .. حينها غبت عن الوعي ..

الآن .. أنظر حولي .. أنا في مستشفى .. ممرضات ومرضى ومرضون ..
لا بحر .. ولا بيانو .. ولا مطربة حسناء ..

يقف أمامي الطبيب .. أو صديقي المزعوم .. يسألني .. كيف حالك
اليوم يا صديقي ؟

بكيت .. بكيت كثيرا ..

..... فنجان .. قهوة ..

سحبني من يدي .. أعادني لمقعد الذي كان وثيرا من لحظات ..
الآن .. أراه جيدا .. مقعد خشبي بقاعدة جلدية خضراء .. من الطاولة
المجاورة أتى بمقعد آخر وجلسنا حول طاولة خشبية بسيطة .. قال و
ابتسامة مريحة على شفثيه: أريد أن أسمعك .. وربت بيده على كتفي ..

بعد ساعة أو ساعتين .. لا فرق .. قال الطبيب: أنا سعيد جدا بك اليوم ..
ابتسمت ..

قال أريدك أن تعود لغرفتك الآن وترتاح .. لدينا عمل كثير غدا ..
أريدك أن تستعيد عافيتك سريعا ..
لم أجبه .. مشيت نحو غرفتي ..
أحسست بخطوات تتبع خطواتي .. شممت عطرها .. تلفت ..
رأيتها ..

قلت : صدقت حين قلت لي إنك هنا وهنا (أقصد عقلي وقلبي)

ضحكت وقالت بغنج: صدقتني الآن؟

قلت: هل سأمحتني؟

قالت: عمري فداء لك ..

..... فنجان .. قهوة ..

قلت: المستشفى كئيب.. لا أحب رائحته ولا ممراته.. الفندق أجمل..
قالت: وما يمنعنا؟ لنذهب للفندق ونجلس في البار معا..
ابتسمت .. هأنأ في بهو الفندق من جديد.. يدها بيدي.. لن نفرق..
حضنتها.. همست : ما أجمل عالمنا..
وقفنا معا أمام النافذة المطلة على البحر.. نراقب الأمواج معا.. المطربة
الحسنة بصوتها الشجي توجت الدقائق ..

أنا لحبيبي و حبيبي إلي
يا عصفورة بيضا لا بقى تسألني
لا يعتب حدا ولا يزعل حدا
أنا لحبيبي و حبيبي إلي
معا راقبنا مغيب الشمس وغز لها حكايتنا..
قالت بدلال: أريد أن أسمع أغنية أقبل الليل
اقتربت المطربة.. ارتكزت على الطاولة أمامنا..

غنت كما لم تغن قبلا..

أقبل الليل يا حبيبي وناداني حيني
وسرت ذكراك طيفها هام في بحر ظنوني
ينشر الماضي ظلالا كان أنسا وجمالا
فإذا قلبي يشتاق إلى عهد شجوني
وإذا دمعي ينهل على رجعي أنيني
يا هدى الحيران في ليلى الضنى
أين أنت الآن بل أين أنا
أنا قلب خفاق في دنيا الأشواق
أنا روح هيمان في وادي الأشجان
تاه فكري بين أوهامي وأطياف المنى
لست أدري يا حبيبي من أنا أين أنا
رفعت رأسها .. شفتيها بجاني أذني .. همست بدفء: أحبك

رغد السعد

٢٠١٢ / ٨ / ٣



دفتر مذكرات

بريق راقص في عينيّ..

حبك يزيدني جمالا..

اغفاده ٩٤١٨١٢٨ مقب



اغفاسه اكا اكا فوب

الجمعة ١٠:١٥ ١٩٩٣/١/١ صباحا

بداية لعام جديد.. يوم جميل.. سماء نقشت بالغيوم .. ترى هل
ستمطر؟؟ يارب.. يارب.. أنزل علينا المطر فأنا أتفاءل به كثيرا.. حتى
بدون المطر أنا متفائلة اليوم لأقصى درجات التفاؤل..

كل شيء حولي يدعو للسعادة.. اليوم جمعة.. أحب يوم الجمعة كثيرا...
عكس كل أخواني وصديقاتي.. واليوم أول يوم في السنة الجديدة.. وأهم
سبب.. أمي دعت صديقاتها اليوم بعد المغرب لزيارتها.. أحب صديقات
أمي كثيرا... وأحب عبدالله ولد نورة صديقة أمي... أعرف أنني أحبه
لأن كل مرة أكتب بها اسمه أشعر بأن حرارة تلفح وجتي فتلهبهما..
قرأت ذلك في مجلة سيدتي أو النهضة.. لم أعد أذكر...

ككل مرة .. حين يقرع الجرس سأسرع لفتح الباب.. سأسابق
الخادمة.. لعلي أراه ولو لمحة.. تكفيني لمحة واحدة لتزف فرشات
قلبي فرحا وسرورا.. فأنا أحبه...

عبدالله... عبدالله... عبدالله

ابتسامة وخدود حمراء وبريق راقص في عيني.. حبك يزيدني جمالا..

..... فنجان .. قهوة

الجمعة ١/١/١٩٩٣ ٨:٠٠ مساء

رأيت.. كم أنا سعيدة.. أنا أسعد فتاة في العالم.. ابتسم لي.. فتحت
لخالتي نورة الباب واندفعت أسلم عليها بدون أن أغلق الباب أو أحاول
أن أختبئ.. أريده أن يراني.. وتلاقت عينانا.. رأيت ابتسامته.. وصلت
كسهم صوبت نحو قلبي.. رعشة سرت من رأسي لأخص قدمي.. يا
إلهي... إنها أجمل لحظات عمري... لهذه اللحظة وبعد أن رحل الجميع
أشعر بفرح وسعادة ليس لها مثيل..
يارب اكتبه زوجا لي...

الأحد ١٨/٤/١٩٩٣ ٦:٢٠ صباحا

قبل أن أذهب للمدرسة سأكتب أمنيتي لنفسي... كل عام وأنا بخير..
اليوم عيد ميلادي الخامس عشر.. رقم مميز.. أحبه.. أتمنى أن أنجح
فأولى ثانوي سنة صعبة وموادها كثيرة.. وأتمنى أن أكون سعيدة طوال
عمري.. وأن يحفظ الله لي أمي وأبي وإخوتي وصديقاتي.. وأتمنى أن تقيم
لي أمي حفلة مفاجئة وتخبز لي كيك الشوكولاتة الذي أعشقه..
وأتمنى أن أتزوج عبدالله...

..... فنجان .. قهوة ..

الأربعاء ٢١/٧/١٩٩٣ ٦:٠٠ مساء

رواية نادية للروائي فارس الرومانسية يوسف السباعي ... أنهيتها الآن ... أسعدتني وأحزنتني ... بكيت وضحكت وسافرت معهم للقاهرة ولجبال الألب .. حملتني التفاصيل الكثيرة لأحيا معهم .. ككل رواياته يأسرني وأبقى غارقة في سطور الرواية حتى تنتهي ..

سأذهب لأطلب من أمي أن نسافر للقاهرة أو جبال الألب .. لن ترفض فنحن في إجازة الصيف ..

الجمعة ٢٠/٨/١٩٩٣ ١٠:٠٠ صباحا

حماس .. حماس .. حماس اليوم رحلتنا للقاهرة .. سأسافر مع أمي وأختي مها وسنلتقي بصديقة أمي نورة هناك مع ابنتها سارة .. ستكون رحلة ممتعة رائعة أسبوع من الزهات والمطاعم والفنادق الفارهة ... أتمنى أن تسمح لي أمي بحضور حفل لعمر ودياب أو للراقصة دينا ... أكاد أظير سعادة وحماسا ..

لن تكفي هذه الحقيبة سأحتاج لحقيبة أكبر أو حقيبة أخرى .. سارة ومها أكبر مني وأحب أن أقضي وقتي معهما لأنني أتعلم منهما الكثير ..

أمنية خاصة جدا: أتمنى لو أرى عبدالله في القاهرة

..... فنجان .. قهوة ..

الخميس ١٨ / ٨ / ١٩٩٤ ٣:٠٠ عصرا

أكاد أرقص سعادة ... اليوم سيتزوج أخي الكبير... زوجته جميلة جدا.. لا أستطيع الانتظار لأراها في فستانها الأبيض . اسمها جميلة وهي جميلة.. ولطيفة.. أحبها كثيرا فهي تحادثني وكأني أختها وصديقتها.. أخي الكبير سلطان أول فرحة لنا .. جميلة وسلطان... يليقان كثيرا ببعض... أدعو الله أن يسعدهما كثيرا في زواجهما خاصة في شهر العسل.. سيكون الكثير من الشموع والورد والرومانسية..

عندما أتزوج عبدالله سأحرص على كل التفاصيل التي ستزيده حبا لي و سأكون خير زوجة وحيية...

قرار أخذته اليوم بعد أن قرأت في المجلة أن أقصر الطرق لقلب الزوج هو معدته.. سأتعلم الطبخ..

الخميس ١٩ / ١ / ١٩٩٥ ١١:٣٠ ليلا

يوم طويل جدا... لكن ممتع جدا.. استيقظنا مبكرا.. اليوم سنذهب للمخيم.. الاستعدادات على قدم وساق من يومين... قوائم كثيرة أعدناها... قائمة الطعام.. قائمة الوجبات الخفيفة... قائمة لوازم النظافة... قائمة التسلية والألعاب... المشروبات...

..... فنجان .. قهوة

الحضور: ماما وصديقاتها وكل بناتهن... أي فسحة نسائية تماما...
استمتعنا بكل لحظة.. لعبنا بالكرة وقفزنا الحبل والأكثر مرحا
لعبة الاستغماية... ضحكنا كثيرا... لعبنا مع أمهاتنا لعبة الشرطة و
اللصوص... هن اللصوص ونحن الشرطة... مارسنا السلطة عليهن و
فرضنا عقوبات انتقاما من عقوبات ماضية نزلت بنا...
غابت الشمس وتجمعنا نحن الفتيات حول نار الحطب نطلب الدفء
وسرت الحميمة بيننا والسكينة.. اقترحت إحدى الفتيات أن نلعب لعبة
الحقيقة أو التحدي...

وجاء دوري... سألتني إحداهن هل أحببت أحدا يوما؟
ما بين الخجل والصدق تلعثمت وضحكن جميعهن .. همست:
عبدالله... ونهضت ضاحكة أطلب التحدي...

الخميس ١٣/٧/١٩٩٥ ١١:٠٠ صباحا

أخيرا... أخيرا... اليوم حفل تخرجي من الثانوية... صبرت كثيرا
حتى تحقق حلمي وأنهيت الثانوية.. اليوم حفل التخرج.. أشعر بأني
كبرت و نضجت وكبرت معي أحلامي.. أشعر بالحماس والاندفاع
يلهب أفكارى و حركاتي.. لا بد أنه الأدرينالين.. كما ذكرت لنا أبله آسيا

..... فنجان .. قهوة

مدرسة الأحياء .. الآن وبعد أن أنهيت الثانوية أشعر بالحب لكل المواد
والمدرسات .. أشعر بالحنين للمدرسة وللفصول والمقاعد والكراسي ...
يجب أن أبدأ التجهيزات للحفل .. سأرسل فستاني العسلي كي يتم كيه
و سأغتسل وأذهب للكوافير .. سأرفع شعري وأنزل خصلا على جيني
و حول وجهي ... أو سأتركه منسدلا ... لا أعرف ... سأذهب لأستشير
أمي و أخواتي ... لن آكل كي أبقى رشيقة .. سأكتفي بالسلطة ..
فرحتي اليوم كييسيرة

الخميس ١٧/٨/١٩٩٥

لا أصدق .. لم أستطع النوم .. قلقه .. غاضبة ... ثائرة ... كلمتني
صديقتي أروى بالأمس تبكي .. بين كلمة وكلمة ضاعت حروفها تشهق
بقوة ... زوجوني .. أبي عقد قراني وتسلم مهري ... وغدا سيكون عشاء
إشهار الزواج .. ماذا أفعل ؟ سأنتحر ... سأهرب سأقتله ...
ذهلت .. لم أحر جوابا ... كيف ؟ وبأي حق ؟ و بأي مشاعر سلمها
أبوها لرجل لا تعرفه ؟ لا تحبه ... خيانة عظمى باسم الأبوه ارتكبت ...
يعاملها كطرد .. كسلعة .. ينحر أحلامها ومستقبلها بسكين السلطة ..
الحمد لله أن أبي ليس كأبيها ... لدي أعظم أب في العالم ..

..... فنجان .. قهوة ..

هدأتها وأخبرتها أن تتعوذ من الشيطان فلا الانتحار ولا الهرب ولا القتل
حلول واردة .. لم أعرف كيف أنصحها ولا كيف أصبرها .. فأنا نفسي رافضة
للموقف كله .. سأدع أمرها لله .. هو وحده القادر على حل مشكلتها...

السبت ١ / ١ / ٢٠٠٠ ٧:٠٠ صباحا

لم ينته الكون .. ولم تتفجر البراكين .. ولم يحدث أي شيء من الأحوال
والتخاريف والفرضيات التي وضعت بدخول الألفية الثالثة .. كرأس
كل سنة سعيدة بوجودي بين أهلي وإخوتي و صديقاتي ..
أتمنى أن تكون سنة مليئة بالفرح والسعادة ..

تأخرت سأكمل الكتابة في وقت لاحق .. يجب أن أذهب للعمل
ونبدأ بإيداع رواتب الموظفين قبل أن ينهالوا علينا بالاتصالات
والاحتجاجات والغضب ..

جمعت دفاتر الذكريات العتيقة .. ابتسمت .. أعادته لصندوق خشبي
أكثر عتقا احتوى على الكثير من ذكريات طفولة وصبا طوتها الأيام
بالأمس جلبته لها أمها بعدما وجدته فوق رف عال في ركن المستودع ..

اليوم الأحد ١ / ١ / ٢٠١٧ الساعة ٦ صباحا...

تمتت.. كل عام وأسرتي بخير.. نظرت جانبيها.. ينام بعمق كعادته..
كم أحبه... نعمة من الله هو... لم يشعر بها عندما أضاءت المصباح الجانبي
وقلبت الصفحات..

فكرت... الحمد لله الذي رزقني خيرا مما رجوته وتمنيته..

... حان وقت المدرسة... وبخفة تنقلت بين غرف أطفالها تناديهم...
فيصل، فارس، ريم. صباح الخير... هيا انهضوا بسرعة كي لا تتأخروا...
الطابور سيبدأ وأنتم نيام... بسرعة اغسلوا وجوهكم ونظفوا أسنانكم
والبسوا الزي

كلمات من زمن قديم جميل رسمت ابتسامة صفاء ورضا... تساءلت..
ترى هل يكون عبد الله سعيدا في حياته كسعادتي؟



سيدة الحمرا

سيدتي: حين ترحلين..

أعيدي لي رجولتي وغروري



اليوم الأول:

(لم تكوني امرأة. كنت مدينة.. مدينة بنساء متناقضات.. مختلفات
في أعمارهن.. وفي ملامحهن.. في ثيابهن وفي عطرهن.. في خجلهن وفي
جرأتهن.. نساء من قبل جيل أُمي إلى أيامك أنت... نساء كلهن أنتي)..

(أحلام مستغانمي)

قلت لها بكل ثقة رجل أربعيني مُحَنك: أراكي في الخامسة عند المقهى
القابع في زاوية خافتة مزينة بأهازيج خيوط شمس الغروب.. كي
تعرفيه.. عليك أن تبحثني عن نوافذه المعرشة بظلال الأماكن..
قالت بحياء طبيعي اشتممت فيه ثقة مخبأة في أدراج الأنوثة: إذن..
عند الخامسة.

كنت بانتظارها.. سيدة في بداية الثلاثينيات.. جميلة العينين.. ممشوقة
القوام.. رشيقة التعابير.. تحرك يديها مع كل كلمة كرقصة فالس ناعمة..
ما جذبني نحوها.. قد يكون أي صفة من الذي ذكرته في السطر
السابق وقد يكون الكل.. لكن حجابها الخليجي الأسود كان كقطعة
قماش لمصارع الثيران.. تحداني.. وقبلت التحدي..

لم أكن على عجلة من أمري.. أعجبتني حين رأيتها أول مرة.. كان
لقاء عابرا.. مثيرا.. قصيرا.. بالنسبة لي.. كانت كفرصة جديدة لقصة

..... فنجان .. قهوة ..

غواية مستحيلة .. أحب تعذبي .. أدرك مدى صعوبة أن أطالها .. وكلمها
زادت الصعوبة ازداد شوقي .. وغروري .. فلا مستحيل في دنيا الغواية ..
تأخرت بلا مبالاة على الموعد .. دخلت المقهى الذي اعتاد مشاهد
غرامياتي وخيالاتي .. جلت بنظري بحثا عن حجابها الأسود المثير
بغموضه .. كثيرا ما حيرني اللون الأسود .. هل أمقته أم هل أرفعه ليعتلي
عرش الألوان؟

اعتقدت أنها تأخرت أيضا .. قلت بنفسي: حتى وإن لم تأت .. لا يهم ..
فهناك الكثيرات ..

لا أدري هل شدي شذى عطرها الأخاذ .. أم أنني سمعت صوتها
الأنثوي يهدل اسمي ؟ .. ذلك الصوت الدافئ ...

التقت نظراتنا .. شككت لوهلة .. هي .. أم ليست هي؟

تمالكت نفسي .. اتجهت نحوها أحاول تجاهل ما رأيت .. مددت
ذراعي لأصافحها .. احتضنت كفها .. بكل لهفة ماجنة فرت من كفي ..
قاومت شوقي المجنون أن أحتضنها كلها ..

سيدة .. وأي سيدة .. سيدتي .. جمعت كل ما يشتهي الرجل .. نظرة
خجلى في طرفها دمعت الخطيئة .. نعومة يدها التي أوجت بنعومة
أطرافها ... مسني دفء صوتها فكأنني ارتشفت من فنجان قهوة في ليلة
شديدة البرودة ... كان حديثنا متقطعا ..

..... فنجان .. قهوة ..

لم أستطع أن أمارس لعبة الحوار التي هي مصدر لرزقي المادي
والعاطفي ..

تقطعت جبال أفكاري .. غدوت كشبكة اتصالات ضخمة استقبلت
تيار كهرباء عالي التردد على حين غرة فقررت التوقف حتى إشعار آخر ...
اتفقت علي كل حواسي .. ثارت جميعها .. اندفعت تريد الحصول على
سيدتي .. لممتها جميعا وزججت بها في معتقل احترامي المتبقي لقدراتي
بضبط نفسي .. في النهاية ..
أنا لست إلا إنسانا ..

لم أكن مستعدا لحرب أنوثة تشنها عليّ بضراوة .. رأيت في عينيها
الكثير .. لم أستطع فهمه . ولأول مرة أقف في حيرة من أمري ..
هل أقاتل بالمقابل ؟ كم من الجبهات علي التصدي لها .. وإن غفرت لها
هجومها ؟

فكيف سأغفر لحلفائي الخونة .. حواسي .. مشاعري .. غرائزي

سيدتي .. جمعت كل التناقضات ؟

جعلت منها حبات لؤلؤ .. زينت به جيدك .. أين حجابك الأسود ؟
لماذا استبدلته بشعر من ليل طويل ؟ حياؤك .. فطري .. طبيعي ..
بديهي .. ما بال الجرأة والإقدام تنبعث من شفئك .. وعينيك ؟ ..

..... فنجان .. قهوة ..

صوتك خافت .. ناعم .. كلماتك .. واضحة .. واثقة .. جملك .. قصيرة ..
عميقة ... هل ستخبريني عنك يوما؟ هل ستحكين لي سرّك؟ أم
سيكون الغموض وشاحك؟

كم أحب هذا الغموض .. يأسرني .. يحيرني .. يربكني .. يجعلني
متعلقا بتلايب تعابيرك وحروفك منتظرا بشوق ولهفة كل ما ستقولينه ..
أو تفعلينه ..

كنت مخطئا عندما اعتقدت أنك فرصة جديدة لقصة غواية .. اعتبرتك
مغامرة جديدة .. لذيذة .. ساحيني .. فقد أبخستك حقك .. أنت أعمق
وأعلى وأروع من كل ذلك ..
انتهى اللقاء ..

خرجت من المقهى بكل ثقة مبطنة بخجل عفوي لذيد المذاق .. مخلقة
بقايا عطر .. وجنديا مصابا يحاول للممة بقايا أطرافه المبعثرة ..

لم أطلب موعدا آخر .. كثير علي أن أراها مرة أخرى .. لا بل من الخطر
أن أبقياها في أجندة مواعيدي .. فما أنا إلا أربعيني مغرور على أهبة الإصابة
بصدمة قلبية قد تكون سببا في نهاية حياتي المجونية العشوائية ..

سأبقياها ذكرى دافئة في بركان أحاسيسي الكامن الثائر .

اليوم الثاني:

أريد أن أحبك، سيدتي
حتى أمتطي عربة الوقت
وأغير التقاويم
وأعيد تسمية الشهور والأيام
وأضبط ساعات العالم..
على إيقاع خطواتك
ورائحة عطرك..
التي تدخل إلى المقهى..
قبل دخولك.

(نزار قباني)

جلست في مقهى غواياتي كعادي في تمام الساعة الثانية عشرة ظهرا..
أستمد من هذه الجلسة الكثير من أفكار قصصي وأشعاري.. قد ألمح طرفة
عين توحى لي بقصيدة غزل ناعمة.. وقد أصادف انحناءة جسد تؤجج
براكين شقيقي فأكتب قصيدة شعر ضارية الشوق.. في مرة كتبت عن امرأة
مسكينة كانت تحمل على ذراعها طفلا.. تجوب أنحاء شوارع الحمرا بحثا

..... فنجان .. قهوة ..

عن بضع ليرات لتقتات بها.. كتبت عنها أصدق أشعاري الماحنة.. ففي
دنيا الشعر لا قوانين .. ولا رحمة .. ولا مبادئ.. إنها خيالات.. وخيالات
والمزيد من الخيالات..

مقهى خيالاتي وغواياتي.. كما قلت.. يقبع في زاوية من زوايا الحمراء..
تسكنه عفاريت الأفكار وغايات الأحلام.. وجدت به منبعاً لا ينضب من
بذور الحب المبعثرة على جوانب الطريق تنتظر زخات من عواطف هوجاء
ليغدو الرصيف حديقة ملأى بزهور الشوق والعشق. طرق الحمراء دائماً
مكتظة بالناس.. ومن هؤلاء أستطيع ارتشاف الكثير من عبق الحب.. لا
أسعى للاستماع إلى رواياتهم.. يكفيني النظر في وجوههم لأقرأ صفحات
من تعابيرهم وأشواقهم.. آلامهم وابتساماتهم.. لست بقارئ للفنجان..
ولست طبيباً نفسياً.. ما أنا إلا هاو في دنيا الخيالات.. عالم بلا نهايات..

لم أكن لأتخيل.. أنا الهارب من شوارع الرياض وبنات الرياض وأقنعة
الرياض.. أن يلحق بي قدرتي إلى بيروت.. أكون شوقي للحجاب
الأسود سبباً للهاثي البدائي خلفها..

طلبت فنجان قهوتي.. غازلت النادلة وداعبتها.. واستقبلت ابتسامتها
الخلجى بكثير من الارتياح.. وازدادت أسهم غروري الذكوري في دمي..
كثيراً ما خدمتني أشعاري وكتاباتي.. تعلمت من أستاذي الكبير نزار قباني
كيف أحب بمجون عاشق وقلب ملاك.. تعلمت كيف أغازل بصفافة

..... فنجان .. قهوة ..

واحترام معا.. فجسد الأنثى خلق للغزل والحب والارتقاء من حالة الدينونة التي نعيشها بكل لحظة وواقعية.. وتقبلني العالم العربي.. أحببني النساء.. استطعت إرضاءهن جميعا.. ومن استطاع في أي من الأزمنة؟

لا أذكر اسما اتفق النساء على حبه والولع به كنزار قباني وعبدالحليم حافظ... أنا عبدالحليم ونزار القرن الحادى والعشرين.. أحببني العذراء والمتزوجة.. أحببني الأم والمأجنة.. أحببني الجميلة والقييحة.. رسمت بقلمى كل ملامح الأنثى..

طبعا كل هذا لأنني أحبها.. أحب الأنثى.. أحب كل ما وضعه الله فيها.. من جمال.. رقة.. عذوبة.. صدق.. ولاء.. سداجة... حتى الغنيات.. أحببت فيهن تفانيهن.. وصبرهن.. إيمانهن بأن لكل بداية نهاية.. كنت أجزم بأن الله لم يخلق فتاة قبيحة.. فمن القبح يستمد الجمال.. لكل امرأة جمالها الخاص.. ولكل فولة كيال.. كما يقول المثل الشهير. وأنا أشهر الكياليين وأكرمهم..

من المهم أن أبقى أفكاري متسلسلة.. لا أستطيع الاستمرار بالتحدث عن نفسي تاركا الهدف الأساسي من هذه الأفكار وإلا فإنها ستذوب وتضمحل وتذوي.. كأي مشاعر أخرى ذهبت في مهب النسيان.. لأن إهمال أصحابها منعها من الخلود والبقاء وحكم عليها بالفناء..

..... فنجان .. قهوة ..

كم أنا نادم على الكثير من الأفكار التي كتبتها على مناديل ورقية ثم رميت بها غير عابئ .. أعدمتها رميا بسلة المهملات ..

أشعلت سيجارة .. رشفت من فنجان القهوة .. يا للسخرية .. أدخن وأنا أمقت التدخين والمدخنين .. إلا أنه تأثيرها .. سيدتي .. مرحى لك .. فقد ارتكبت للتو .. أول معصية في حق نفسي بسببك .. كيف لي ألا أشعل سيجارة بعد أن رأيتك تدخين أمامي ؟ .. وددت لو ألتهم ذلك الدخان الخارج من بين شفتيك .. منتهى الغواية والشهوانية ..

لا أستطيع أن أنكر أنني استهجنْتُ سؤالك لي: هل تسمح لي بأن أدخن ؟ كان سلاحاً لم أعمل له حساباً ..

قلت ببساطة أحاول أن أبدو ديمقراطياً: بالطبع تفضلي ..

نهضت أشعل سيجارتها .. وأحسست بنظرات الآخرين تحرقني كما أحرق طرف السيجارة .. وليتني لم أشعلها ..

رن هاتفني .. اعتذرت منها بلباقة .. وأجبت .. تلك المكالمات كانت بمنزلة حبل ينشلني من بئر المتعة .. تمسكت به شدته كي أتسلق جدران تلك البئر .. وبدأت أسترق النظر لها وهي تقبل تلك السيجارة .. نعم تقبلها .. كم رأيت نساء مدخنات .. إلا أنني لم أر لها مثيلاً .. تمسك طرف السيجارة بين إصبعيها برشاقة .. تقربها إلى فمها الوردى .. تلتقطها ..

..... فنجان.. قهوة

تقبلها بحب.. برقة.. تغمض عينيها وتسحب نفسا شبه عميق.. ثم تفره بحنين وقد باعدت بين شفيتها قليلا.. لتنطلق سحب دخان برقة تجوب المكان هائمة بعد أن فارقت أنفاسها العذبة.. في تلك اللحظة شعرت بأنني أحبها.. سيدتي أحببت الدخان والمدخين..

استعذبت فكرة أن أقضي نهاري أفكر بها.. خاصة أن المقهى كان في أقصى حالات البخل.. كان اليوم الثلاثاء والكل في أشغاله.. قليلون الذين يرتادونه في هذا اليوم.. في الحقيقة.. بدأت أتململ من صوت الباصات الكبيرة وهي تخترق صفاء ضجيج الشارع المنتظم.. ووجوه العجائز والمتسولين بعد أن كانوا مصدرا غنيا لخيلات معقدة باتوا اليوم مصدرا للضجر.. لا أريد أن أرى الأزمنة ترتدي الوجوه.. أريد أن أكون مرتديا زي الشباب والهوى طالما حييت..

وأنا مشغول بلملمة أفكارى المبعثرة على شواطئ الرصيف.. لمحتها.. لمحت سيدتي تتهاذى ببراءة.. تقترب من المقهى بخطوات بها الكثير منها.. كل خطوة كانت لتقول هذه أنا سيدة الحمرا.. ستذكرها أيها الرصيف فقد تغنجت خطواتها فوق حجارك فاكستبت بهاء الطبيعة وصفاء السماء.. بالتأكيد هي سيدتي.. تماشى نبض قلبي مع خطواتها.. باتا إيقاعا خافتا لضجيج الخيال.. عذبني رحيلها بالأمس.. كما يعذبني مجيئها اليوم.. يا ابنة الإنسانية.. ترفقي بي.. فما أنا إلا جريح الأمس..

قلت: تفضلي..

سحبت الكرسي أريدها أن تجالسني ولو لبرهة..

قالت: أتمنى أن تجمعنا أقدارنا دائما..إلا أنني لا أستطيع.. علي الذهاب..

كنت أريد أن أمسك بمعصمها وأجلسها قسرا.. لست جشعا.. لا أطلب إلا الفتات.. بضع لحظات من وقتك.. لا أكثر.. لماذا أجا لكذب؟ نعم أريد الأكثر.. أعني أنني لا أستحق.. وبناء على هذا الوعي فبكل عزة نفس وشموخ أقول إنني أقبل بالفتات.. يكفيني فتات عطرك.. دفء مقعدك.. رماد قبلتك الحارقة..

رحلت دون أن تسمع مني رد.. بل دون أن تنتظر.. جلست صريع اليوم الثاني.. ما بالي أترنح.. أتوق لأنفاسها.. أشواق لحركاتها.. لانسدال شعرها الهادئ فوق أمواج خديها الورديين..

أعلم أنها سترحل بعد خمسة أيام.. ترى هل سأراها غدا.. وبعد غد.. وماذا عن اليوم الذي يليه والذي يليه.. وماذا عن باقي العمر؟..

هل أقبع كإله الحب في ركني المظلل بقصصي الخرقاء أنتظر حضورها كل يوم.. وماذا إن لم تأت غدا؟.. وماذا لو لم آت أنا بالغد؟.. هل أريد أن ألعبها؟ وهل هناك وقت للأحاجي والألعاب؟ .. كل ما تبقى

..... فنجان .. قهوة ..

أيام.. وكل ما سيقى ذكرى.. كإطار واسع جميل يزين حياتي البوهمية
باختياري..

أعترف لك سيدتي.. سيدة الحمرا.. سيدة قلبي.. بأنني أحبتك..
وأحبت سعوديتي من خلالك.. فلتحيا السعودية وشوارعها..
بيوتها وازدواجيتها.. غموضها.. وارتباكها.. أقنعتها وعريها.. أتربتها
وناطحاتها.. أزقتها وفخامتها.. صحاريها وحدائقها.. أكون اشتياقي
لك ما هو إلا اشتياقي لوطني.. ها هي ذي أفكاري تتبعثر مجددا..
لأكن واضحا أمام نفسي وأمام الجميع.. أنت مسألة.. وسعوديتي
مسألة أخرى..

أجهدتني كما لم أجهد في حياتي من قبل.. دعيني ألتقط أنفاسي
وأنساك.. لا أريد المزيد منك.. يكفيني ما أحبتك.. هل أعود للرياض
بحثا عنك؟ ستفرح أُمي.. من السخرية أن أرحل من وطني بسبب قصة
حب.. وأعود إليه بسبب قصة حب أخرى.. إلى متى ستبقى أيها القلب
ككرة ماء تتقاذفك الأمواج وتلعب بك الريح.. أجمل قصص الحب هي
التي تتسم بالبدايات دون النهايات.. وقد اتخذت قرارى.. أنت أعظم
حب ولد في شوارع الحمرا.. فعبلة لم تكن في بيروت.. وليل كذلك.. لم
تطأ أقدامها أطراف شوارعنا المقدسة..

.. سيدة الحمرا..

..... فنجان .. قهوة ..

أريدك وأشتهيك ليس كما يشتهي الرجل المرأة.. بل كما تشتهي التربة
الماء.. وكما العين النور.. وكما يشتهي القلب الروح.. لي رجاء واحد..
حين ترحلين.. أعيدي لي رجولتي وغروري وشبقي..

اليوم الثالث:

ومشينا في طريق مقمر .. تنشد الفرحة فيه قبلنا
وضحكنا ضحك طفلين معا .. وعدونا فسبقنا ظلنا
وانتبهنا بعدما زال الرحيق .. ولت.. أن لا نفيق

إبراهيم ناجي

سيدتي.. بكل الرضا أقول لك.. لم تفارقيني أبدا.. في يقظتي.. في
منامي.. أثناء حلمي.. في طرفة عيني.. نهضت من فراشي.. مسدت
مخدتي بكفي.. علي أزيح عنها بعضا من صورك التي رسمتها ليلا..
غسلت وجهي.. كي أرى ملامحك أوضح في مرآتي.. أعتقد بأن ملامحك
باتت جزءا من قسمات وجهي..

نظرت من نافذتي.. مشطت الشوارع بحثا عنك.. تأكدت أنني بلغت
من العته عتيا.. لماذا تمرين أمام شارع منزلي؟.. وأنت التي تقطين أحد
فنادق الحمرا.. أي قدر سيرمي بك في قدري؟.. سيدتي.. أعدك بأنني

..... فنجان .. قهوة ..

إن التفتيتك قرب منزلي.. أن أجعل منك سيدة النساء أجمع.. سأجمع لك الورد وأثره عليك عله يكتسب بعضا من شذاك.. هل أنا شهواني اليوم؟ هل تخطيت حدود الخيالات؟ هل عشقتك يا امرأتي؟ يا سيدة الحمر... هل سأراك اليوم؟

ماذا أهديها اليوم.. فقد أهديتها بالأمس أحلى رغباتي.. وقبل الأمس أيضا أهديتها نفسي وخيالاتي.. وأنا الذي كنت آبى التخلي عن أي منها.. لم أهدها بل وهبتها.. إذن ماذا أهديها اليوم؟ لعلني أهديها آخر دواويني.. وسأضيف عليها مسرحيتي الغنائية.. التي لم تستطع أن تحضر افتتاحيتها كما وعدتني..

هل أكتب عليها إهداء.. أم أنتظر أن تطلب مني توقيعي وكلمة إهداء.. لدي فكرة أخرى.. لما لا أطلب منها أن تكتب هي لي إهداء.. سأقبل بأي شيء تعطينينه.. حتى وإن كان ديواني أو مسرحيتي..

كنت قد قرأت بكتاب السر لروندا بايرون.. أن الإنسان إن آمن بشيء حقا وأراد به بكل جوارحه.. سيحصل عليه بالنهاية لا محالة.. أي التعامل مع الرغبات من باب قانون الجذب.. وأنا أريدك يا سيدتي بكل جوارحي ورغباتي.. سأراك اليوم وستأتين.. ستقبل يدي يدك وعيني عينيك.. سأحرص على أسرك.. ستكونين لي لبعض الوقت.. وإن لم يتحقق ما أريد فسأقاضي روندا لا محالة وسأقضي عليها إعلاميا وأديبا.. فلا تعرف كم عولت على كتابها وكم أملت أن ألقاك اليوم..

حملت ديواني ومسرحتي ومعطفي وانطلقت سيرا لقهوة غواياتي
كعادي.. لم أعبأ برذاذ المطر يصافح وجنتي.. ويمسد شعري بحنان..
لم أعبأ به متمرغا في ثيابي كقطعة فارسية خبيثة.. أعلم أنه يداعبني الآن
وسينقض بلسعته الباردة لاحقا.. وصلت بعد بضع صفعات من الهواء
البارد.. فقد كنا في نهاية شهر ديسمبر.. نحاول أن نستقبل العام الجديد
بكثير من الأمل والحب والتفاؤل والمتعة.. أياكون هذا سببا لحبي لك..
أياكون شهر ديسمبر أحد المتآمرين الكثير.. أياكون الريح.. أياكون المطر..
البرق.. الرعد.. نيران المدفئة.. وعطش صحاري..

وصلت أخيرا.. جلست منتحلا شخصيتي اليومية الأسرة..
أمازح ذاك.. وأعزم على الآخر.. أنهض بكل ثقل دواويني وكتاباتي..
إنجازاتي ومسرحتي لأسلم على معجبة أو معجب.. أتصور معهم
راسما على جبهتي وشفتي ابتسامه حب كونية.. لماذا أشعر بأن انتظاري
لسيدي ظاهري.. كما المظاهرة في ساعة شقت فيها الشمس الكون بضوء
صاف نقي؟..

رشت من قهوتي.. وأشعلت سيجارتي اليومية.. ووضعتها في
المنفضة كي أشم أي رائحة تصلني بذلك اللقاء القصير الأبدى..

انتهت القهوة.. وأخذت أنفاس السيجارة.. وسيدتي لم تأت بعد..
قررت أن أكتب إهداء الديوان والمسرحية.. كنت أريد أن أكتب أجمل

..... فنجان .. قهوة ..

الكلمات .. القصائد .. التعابير .. الأحاسيس .. إلا أنني كتبت هلوسات ..
جمل كما الكلمات المتقاطعة .. ولأول مرة تخذلني كلماتي .. سيدتي .. سيدة
الحمرا .. اذهبي وأخبري صديقاتك .. بأنني الشاعر والكاتب أُصبت
بشلل في كلماتي وقصور حاد في جملي .. إنني عجزت عن رسمك
بأحرفي .. وأنني أصبحت رسميا إحدى ضحاياك .. لديك الآن إثبات
على ذلك .. لديك ديواني الأخير ومسرحيتي عليهما إهدائي .. لكأنني
لست نفس الكاتب .

جلست أقلب في صفحات ديواني .. أريد أن أقرأ كل أشعاري .. أعيد
النظر في كتاباتي .. لا أريد أن أهديك شيئا لا يليق بك .. قد يكون هناك
تعبير يناقض تصوراتك .. أو رأي قد يبعدني عن خيالاتك .. أريد أن
أراني في عينيك كما المرة الأولى ..

أتذكرين ؟

كنت قد دُعيت لحضور أمسية شعرية لأحد أصدقائي الشعراء ..
واكتظ المكان بالوجوه .. كانت أمسية رائعة .. فقد كنت أحد الحضور ..
وجه آخر .. بلا عنوان .. كأني سيدة تتوق لسماع كلمات الحب والحنان .. ألا
تعلمين أنك كل الحب والحنان والغواية والشهوة ؟ حين التقينا على شاطئ
ناظرينا .. لم أستطع إلا أن أحبيك .. وأنت المجهولة لدي .. ابتسمت لك
كمن وجد حبا ضائعاً .. شعرت بأنك وأنا حرف واحد في كلمة واحدة

لقصة واحدة.. وابتسمت لي.. هل شككت أن يكون سلامي لك.. أنت يا سيدتي مجهولة الاسم لدي.. ولكنك جلية الهوية.. انتهت الأمسية.. واقتربت كل الوجوه سكرى بكلمات الغواية التي صبت في آذاننا لمدة ساعتين.. أصبحت القاعة متحفا للحب والهوى. أصبح الكل يحب الكل.. وتناسينا الفوارق.. وبدأت أتلقي الكثير من المصافحات وكلمات الإعجاب من كل من هم حولي.. وبحثت عنك.. وجدتك تنظرين إليّ.. وأنت مترددة.. هل أقرب أم أدعك تقتربين؟ اقتربي.. فلا شيء مخيف.. لك سأقمع كل شهواتي.. ولكنني لا أضمن ثورتها.. ولم تقتربي.. اقتربت أنا.. شيء ما دفعني نحوك.. كنت أرى في عينيك الإعجاب والحنج والتوق.. كان في رأسك الجميل الكثير من التردد.. الكثير من الأسئلة.. والقليل من الجرأة.. قررت أن أكون أنا المبادر.. كيف لا؟ اقتربت منك.. صافحتك وكأني أعرفك منذ بدء الكون.. لم يكن حديثنا صعبا.. ولا مفتعلا.. كنت تنتظريني.. وكنت أنتظرك.. تحدثنا وكأننا توأمان.. لماذا سريت بكل يسر في أعماقي؟ لماذا أشعر وكأنك أمني.. حبيتي.. وخيالاتي.. طلبت منك حضور افتتاح مسرحيتي.. أعطيتك رقم هاتفي.. وكنت من الغباء ألا آخذ رقمك.. لم أصدق أنني أهوى من أعلى شلالات الحب لأقع في أعماقك ولتكوني كل خيالاتي..

ولم تحضري المسرحية.. ولم أنتظرك.. لم أنسك.. ولكنني كنت أفضل

..... فنجان .. قهوة ..

ألا أراك.. فقد قرعت نواقيس الخطر حول حصوني كلها ذلك اليوم..
وأحببتك أكثر لأنك لم تحضري.. أنت السهل الممتنع.. بكل سهولة
التقيتك.. وبكل صعوبة أحاول أن أتجاهلك.. فكرت كثيرا.. من أنت
لأتجاهلك.؟ من أنت كي أبذل جهدا لأنغاضى عن حضورك الغائب
لمسرحيتي؟ ببساطة كنت بحاجة لوجود امرأة في الافتتاح.. كان المسرح
غاصا بالنساء.. ولكن لم تكن بينهن امرأتى.. المرأة التي اخترت والتي
أردت أن أتأبط ذراعها عند دخولي المسرح.. رافعا رأسي ليس لأنني
الكاتب والمؤلف.. بل لأنني متعلق بامرأتى.. أردت أن أتباهى أمامك
بك.. وعندما لم تأت.. تنفست الصعداء.. بقدر ما احتجتك.. بقدر
ما أسعدني غيابك.. كنت أريد التمرد على حاجتي لك.. عشت سنين
طويلة معتبرا المرأة نبعا لأفكاري.. متجاهلا وجودها الروحي في
حياتي.. أقدرها واحترمها خارج حدود مملكتي النفسية.. احتياجي
للمرأة.. كان احتياجا فكريا محضا.. ليس إلا..

ممارسة هذا القهر.. كان مستحيلا معك..

قيل إن الصبر مفتاح الفرج.. ما زلت أنتظرك، تحيطني شياطين القلق
وتعربد في عروقي ثعابين التوتر.. ورأيتك تقبلين علي كما الأمس.. ملكة
المشية.. خفيفة.. رشيقة.. اعتلت وجهي ابتسامة رضا..
قلت بسري: أشكرك يا روندا.. فقد كنت على حق..

..... فنجان.. قهوة

وكما الأمس.. نهضت أصافحك.. فهذا جل ما صرت أبتغيه.. أريد
أن أستشعر أناملك.. لعلها تقصّ لي بعضاً من أسرارك وأفكارك..
ترى هل استمعت لأناملي بالأمس؟ فقد خطت على راحتك آخر
قصائدي..

والتقى كفانا.. ومن ثم ناظرانا.. وبخفرك المعتاد.. خفضت عينيك
وملت برأسك تحاولين الهرب من إلحاحي.. وانسدلت خصلة من شعرك
غطت طرف وجهك وغمازتك.. حاولت أن أسيطر على رغبتني الجارحة..
أن أبعداها.. إلا أنني لم أستطع.. فكما قلت.. بالنهاية ما أنا إلا إنسان..
ما زالت كفانا متعانقتين.. لم أحاول أن أترك يدي من يدك.. ولم تحاولي
بالمقابل.. وهربت يدي اليسرى تتوق للمس وجهك.. انطلقت دون أن
تأبه لتحذيرات عقلي الشبه مغيب.. وبظهر كفي مسحت بخفة خدك
والتقطت بأصبعين تلك الخصلة المتمردة وأبعدتها لأعيدها مع رفيقاتها.
ومسدت بكفي شعرك من الأعلى حتى أطرافه..

أأكون مخطئاً؟ من سيعاتبني.. من سيلومني؟ من منا دون قلب أو
إحساس؟

التقت نظرانا مرة أخرى.. كان بها الكثير من الحب والاعتذار
والغفران.. حاولت أن أتكلم.. خانني صوتي.. تنحنحت.. قلت:
أرجوك تفضلي..

..... فنجان .. قهوة ..

وجلست صامته .. شاردة .. هل ألتك يا سيدتي؟ هل سلبتك بعضا من
أنوثتك؟ أم لعل أسأت التعامل معها؟ فأنت خلقت للتأمل والخيال ..
قلت: أريد أن أعطيك شيئا .. ومددت يدي بالديوان والمسرحية ..

كانت تجلس وقد وضعت يدها على رقبتها .. نفس المكان الذي
لمسته أصابعي .. حين رأت الكتابين .. لاح لي أنني رأيت خيال غمازتيها
تطلان بخجل ..

قالت بحياء: أشكرك .. كأنك تقرأ أفكاري .. فقد رجوت الله أن أراك
اليوم كي أطلب منك توقيعك على كتاب لك وقد أحضرت لك مسرحيتك
التي لم أستطع أن أحضرها .. وأخرجت مسرحيتي من حقيبتها ..
سألت: هل قرأتها؟

أومأت برأسها ثم قالت: لم أقرأها فقط .. بل درستها .. حفظتها ..
فأنا أعشق الكلمات الصادقة والتي تحمل الكثير من المعاني ..
وكتاباتك تلهب رأسي بالأفكار .. إن فتحت المسرحية ستجد الكثير
من الخطوط والملاحظات ..

قلت بلهفة: لدي فكرة.

لقد أحضرت لك ديواني الأخير ومسرحيتي .. ووضعت إهدائي
وتوقيعي .. هل لي أن أطلب منك إهدائي مسرحيتي ..

قطبت حاجيها..

قلت بسرعة كاذب غير متمرس: لا تستغربي.. فقد اعتدت أن أجمع
تواقيع معجبيّ أيضا..

قالت بابتسامة خلافة خجلي: ولكن ملاحظاتي ماهي إلا ملاحظات
شخصية.. قد أكون علقت على جملة أو كلمة عنت لي أو أثرت في..
وقد تكون بعض الملاحظات ناقدة.. وأنا لست إلا قارئة من ضمن
الكثيرات.. لست بناقدة أو محللة أدبية..

قلت: وهل أكتب أنا للنقاد؟ إنما أكتب لك وللقراء.. أكتب لنفسي..
معظم كتاباتي عبارة عن ملاحظات شخصية أقرؤها للملأ.. وأنا بحاجة
لكل كلمة وضعتها فوق كلماتي..

مدت ذراعها بالكتاب ونهضت.. استأذنت.. ورحلت كما أتت..
دون سابق إنذار.. ولم أطلب منها البقاء.. فقد أخذت أكثر مما تمنيت
ورجوت.. أخذت منها أفكارها مدونة بخطها.. لدي اليوم موعد
غرامي مع ملاحظاتها.. سأقتات بها .. وسأقبلها وسأستمتع بكل ما
أوتيت من شبق ورغبة ومجون....

اليوم الرابع :

وقفت قربها، أحبها، أرقبها، أشمها

النبض نبض وثني

والروح روح صوفي، سليب البدن

أقول، يا نفسي، رآك الله عطشى حين بل غربتك

جائعة فقوتك

(صلاح عبد الصبور)

سيدتي.. من أجلك أريد أن أوقف كل الأزمنة.. وأقتل عقارب
الساعة اللادغة.. من أجلك تعلمت أن أجتر تلك اللحظات اليومية
مرارا وتكرارا.. أصبح موعدنا اليومي طقسا من طقوسي.. نهضت من
فراشي.. كأني يوم آخر.. إنما بزيادة كبيرة في وزن مشاعري واشتياقي..
هل كان حلما أم أن أصابعي لثمت وجهك وشعرك وجيدك فعلا؟ وماذا
سأفعل اليوم؟ هل أطلب منك البقاء؟ أم هل أدعك ترحلين؟ أعلم أن
كليهما مستحيل.. سأترك للأقدار حكمها وحبكها.. فإن لم تكون مقدرة
لي.. لماذا عبرت في جداولي.. ولماذا غدوت منارتي؟ هل أنت سيدة الحمرا
أم منارة الروشة أم الاثنتان معا؟

..... فنجان .. قهوة ..

لدي موعد لتسجيل مقابلة في التلفاز.. أريد أن أنتهي منها قبل أن يحين وقت طقسي المحبوب.. لا أريد أن أتأخر.. لا أريدها أن تعتقد أنني لا أبا لي بها أو بلقائنا.. ستأتي اليوم كما كل يوم.. فما تبقى من أيام لا يحتمل القطيعة.. لدينا الكثير لتحدث عنه.. فما كتبت من ملاحظات أسرني بشفافيته وعمقه.. لم أكن أدري أن ما أكتبه سيلمس شغاف أحد ما كما مسها..

أنهيت المقابلة وانطلقت متعطشا للقيها.. هل تأخرت؟ وإن لم تجدي.. هل ستمر بحثا عني أم ستنتظرنني.. أم ستهجرني؟ لا مجال للتجربة.. علي ألا أتأخر.. وصلت.. سألت النادلة.. هل سأل عني أحد؟
قالت بخبث: الكل يسأل عنك يا أستاذي..

ضحكت وقلت معاتبا: لا أقصد بالأحد أي أحد..

قالت بابتسامة: نعم أعرف.. لا لم يسأل عنك أحد بعد.. لم تتأخر.. غمزت لي بعينها وهي تنطلق وتقول: قهوتك جاهزة.. سأحضرها حالا..

إذا كان ولهي واضحا وجليا لكل من هم حولي.. فلعلك تدركين مدى صدقي.. أنت التي لمست نواياي المخبأة بين حروف كلماتي.. هي الأخرى لم تتأخر.. لاحت من بعيد كسحابة بيضاء.. تسبقها ريح

..... فنجان .. قهوة ..

ندية .. كوردة مكتملة .. يخلق عطرها بخفة ناشرا أسمى معايير الحب ..
اقتربت .. حضنتها بعيني كعادي كل ما رأيته .. ولثمت أصابعي أناملها
وكفها .. وجلسنا معا .. استسلمنا لقدرنا .. لم تعد ترفض مجالستي .. ولم
أعد أطلب منها البقاء ..

قلت: ماذا تشرين؟

قالت: أحب القهوة ..

قلت بنفسني: وأنا أحبك أنت ..

ناديت النادلة وطلبنا فنجاني قهوة .. كان فنجاني الرابع .. إلا أنني لا
أبالي .. فما تأثير القهوة بجانب تأثيرها في ..

خلال ثوان كانت القهوة حاضرة .. كدت أن أصبح بالنادلة .. هل
تريدين قتلي؟ ألا تعلمين أنك كلما تأخرت جلست معها أكثر؟

قربت فنجان القهوة وحملته بخفة .. قربته من شفتيها الورديتين ..
وكما فعلت بتلك السيجارة المسكينة .. وكما فعلت بي حين رأيته لأول
مرة .. ارتكبت نفس الجريمة .. أم هل لي أن أسميها حماقة .. إنها جريمة
وحماقة .. ترفقي بي يا سيدتي .. لماذا تجيدين لثم كل ما يصل إلى شفتيك؟
أأكون مذنبا إن تحيلت ماذا ستفعل شفتاك بشفتي حين تلتقيان؟ نعم
سأكون مذنبا بقدر حماقتك .. سيدتي أنا لست بمحصن .. لذا يجب أن
تقلعي عن التدخين وعن القهوة أمام أي كان .. ولأكن الأول .. فهذا هو

..... فنجان.. قهوة

الحرام بعينه.. لعمرى.. واسمحي لي بأن أقسم بكل طرق الجاهلية.. فأنا الآن أمثل كل عشاق الجاهلية.. أنا امرؤ القيس وأنا عنتره وأنا عمرو.. كل العشاق أنا.. وأنا كل العشاق.. لعمرى ما رأيت أحدا يشرب فنجان القهوة بهذا الشغف.. كلما اقترب شيء من شفتيك أغمضت عينيك.. ما الرابط؟ أكونين محرومة من القبل؟ أم أنك مجنونة.. مهووسة بها؟ كيف لي أن أعرف وجل ما ممارسته معك إلى الآن خيالات..

ازداد جمالك بصمتنا.. ومع الضجيج المحيط بنا.. أحسست بأننا صورة خالدة في المقهى بإطار صاحب.. ما أجملك في هذه الصورة.. ازدان المقهى بأنفاسك وعطرك.. والآن بصورتك..

وتحدثنا.. لا أستطيع أن أقول إننا تحدثنا كثيرا.. فحديثك كأغنيات فيروز وموسيقى عمر خيرت.. من الصعب أن تكتفي من أي منهما.. سألتني عن رأيي في ملاحظاتك المدونة على كتابي..

أجبتك بصدق: أرعبني إحساسك بي.. شعرت بأنني عار وسط عاصفة من كلماتك.. جعلت بيني وبين نفسي حاجزا لا أستطيع أن أخطئه.. فأنت الحاجز.. كشفت كل إيجاءاتي وغمزاتي ولمزاتي.. قرأت بين السطور.. لا بل قرأت ما بين أحرفي.. وأنا الذي أمنت بأنني ملك كتاباتي.. وبأن المعاني الحقيقية في خزانة أماناتي.. في قلبي.. في عقلي.. أتيت وبكل بساطة سبرت أغوارى..

..... فنجان ..قهوة ..

قلت ببساطة وبصوت خفيض: لماذا لا تقول إنني أحسست بك
وبكلماتك وعواطفك؟

كدت أسألك: وهل تشعرين بي اليوم والأمس وغدا؟ إلا أنني آثرت
السكوت..

انتهى فنجان القهوة ورحلت.. وكالعادة لم أطلب منك البقاء.. ولم
تكوني لتبقى..

اليوم الخامس:

بالأمس مس الكوب شفيتها

وقال: إنه يعطي الحياة..

فقلت لا، بل هي التي أعارته الحياة

(حافظ الشيرازي)

تأبطت جريدة الصباح.. وكتابك.. أقصد كتابي الذي به الكثير منك..
أفكارك وملاحظاتك.. واتشحت بك كي أتفادى برودة شهر ديسمبر..
وانطلقت في شوارع الحمرا متجها إلى شاطئنا.. لا أثر للشمس.. فقد
توارت خلف الكثير من الغيوم الحبلى بالخير.. وصلت.. اتجهت إلى

..... فنجان.. قهوة

طاولتي.. بحثت عنك.. لم تكوني قد وصلت بعد.. وبدأت السماء تعزف
لحنها الخالد.. ترعد وتبرق وتسكب الأمطار دون رحمة.. كم أحب
المطر.. ولكن إن كان سيحول بيني وبينك اليوم.. فسأجعل منه عدوي
الأكبر.. وسأحقد على الغيوم.. ترى هل ستقبعين في حجرتك في ذلك
الفندق؟ أم أنك ستأتين للقائي؟.. خلعت معطفي الجلدي.. وجلست
أقرأ ملاحظاتك.. كنت قد توقفت عند الصفحة الأربعين.. فكرت.. ما
سر الأربعين؟ فأنا في الأربعين.. وها قد توقفت عند الصفحة أربعين..
وأربعين المتوفي.. يصبح الرجل شيخا في المذهب الدرزي في الأربعين..
وعلي بابا والأربعون حرامي.. لا بد أن يكون هناك ما يربط كل هذه
الأحداث بالرقم أربعين.. وأنا في خضم أفكارى الدائخة.. وصلت..
مبللة بالكامل.. من رأسك حتى قدميك.. ترى هل قبلت أيضا حبات
المطر.. نهضت مسرعا.. اتجهت نحوك.. كنت تنتفضين.. وكان المقهى
فارغا إلا منا.. ساعدتك على خلع معطفك المخملي المبلل.. طلبت من
النادلة كوبين من الشاي.. وأخذتك من يدك المنتفضة نحو المدفئة..
وجلسنا متلاصقين على الأريكة أمام النار المتوهجة.. أنت تنتفضين بردا
ومطرا.. وأنا أتأجج شوقا وعشقا..

خرجت الحروف من شفتيك مرتعشة: فاجأني المطر ولم أحمل مظلتي...

ابتسمت وقلت: لا عليك ستدفئين الآن..

..... فنجان .. قهوة ..

أحبك أيها المطر فقد تأمرت لصاحبي .. وبت أحد أعواني .. جعلتني
أجلس ملتصقا بها أحيطها بذراعي لعلني أعطيها بعضا من هبيي .. ولم
تستطع حمل فنجان الشاي الساخن .. وبسطة .. حملته عنها .. قربته من
فمها .. وسقيتها .. سحبت بعضا من المناديل الورقية وبدأت أمسح الماء
عن شعرها .. ومررت بوجهها وشفتيها .. ولم تبعد يدي .. استسلمت
للبرد وللمساتي .. وسمعت أنفاسها المرتجفة .. وارتعشت يدي .. وثقلت
أنفاسي أنا الآخر .. لا أريد أن أتوقف .. اقتربت منها أكثر .. ولم تبعد بل
شعرت بأنها التصقت بي فكأنها قطعة فارسية تبحث عن الكثير من الحب
والدفء .. ضممتها لي وضعت رأسها بكل نعومة على صدري .. ضمت
يديها إلى صدرها وتوقعت في حضني .. غير عابئة بأحد ..

حاولت أن أسمع ما تقول إلا أنني لم أستطع .. أحنيت رأسي لعلني
أسمع .. فاجأني عطر شعرها وعبيره .. أيا سيدتي .. ألا تملكين شيئا غير
الأنوثة الكاملة ؟ أيها المطر إياك والتوقف .. حتى نهاية الكون .. وأي
نهاية ستكون كهذه النهاية .. وازدادت السماء ابتهاجا .. رقص البرق
وزغرد الرعد .. وتحولت شوارع الحمرا إلى ظلام في منتصف النهار ..
إن لم أكن شاعرا لأصبحت في تلك اللحظة .. سرت في جسدها رعشة ..

قلت هامسا: أما زلت تشعرين بالبرد؟

..... فنجان .. قهوة ..

حركت رأسها حركة خفيفة.. تنهدت.. فتحت عينيها ثم أغلقتها..
زمت شفيتها ثم أرختها.. أهكذا تستيقظين كل يوم يا سيدتي.. أبعدت
جسدها عني.. انفصلنا.. شعرت ببرودة قاسية تسري في بدني..

قالت بخجل: هل غفوت؟

أومأت برأسي مبتسما..

قالت: أعتذر..

قلت بتأنيب: ولماذا الاعتذار؟..

قالت مخفضة عينيها: لا أتخيل ما سيقوله الناس.. لقد أخرجتك.. لم
أشعر بنفسي..

قلت: أي ناس؟ أنا وأنت فقط اللذان في المقهى.. لا أحد سوانا..
سوى عاشقين احتلا الركن الآخر البعيد.. لا يعيان ما يدور حولهما..

قالت: عليّ أن أذهب..

قلت: لكن المطر..

قالت بإصرار: لا عليّ أن أذهب.. تأخرت..

قلت أستجديها: تأخرت على ماذا؟ انتظري بضع دقائق أخرى لعل
المطر يتوقف أو حتى يخف..

..... فنجان .. قهوة ..

بعناد أحبيته فيها قالت: لا.. سأذهب.. فندقي يبعد بضعة أمتار وإن
بللني المطر فسألجأ لغرفتي...

قلت مستسلما: كما تريدن...

لبست معطفها.. وحملت معطفي.. وخرجنا معا.. قالت: هل
ستذهب أنت أيضا؟

قلت ببساطة: سأوصلك إلى الفندق.. معطفي من الجلد وسيحميك
من المطر..

قالت: وماذا عنك؟

قلت: لا عليك.. أنا لا يهمني المطر.. وإلا لكنت وجدتِ معي مظلة..
جعلت من معطفي خيمة تظللها.. وانطلقنا معا نحو الفندق..
كانت من أمتع الرحلات التي انطلقت بها.. لم يرحمنا المطر وانقض
علينا كشلالات لعوب.. ضحكنا كثيرا.. فتارة تغطس قدمها بحفرة
مليئة بالماء.. وتارة أسحبها قبل أن تجتاز الطريق وتدهس من قبل سيارة
مسرعة.. كانت مندفعة.. تمشي بخفة وسعادة.. بل كانت تقفز فرحا
بالمطر.. رفعت المعطف عاليا وقالت: احتمِ معي تحته.. ستمرض..
والتصقنا تحت المعطف.. رأيتك يومها كما لم أرك من قبل.. رأيت سيدتي
الطفلة.. وما أعذبك من طفلة..

..... فنجان .. قهوة ..

وكما أن لكل شي بداية .. فلكل شيء نهاية .. وصلنا .. ودعتها ..
وقلت: غدا...

قالت بابتسامتها العذبة: غدا..

اليوم السادس:

وأنا في المقعد محترق	نيرانني تأكل نيرانني
أقول أحبك يا قمري؟	آه لو كان بإمكانني
فأنا لا أملك في الدنيا	إلا عينيك وأحزاني

(نزار قباني)

سيدتي .. استطعت أن تجعلني مني حبيبا وعاشقا .. أنا الذي امتهنت
الحب .. ونسيت معانيه .. فأهنته .. جربت الحب مرة واحدة ..
وفشلت .. بعدها .. آمنت بأن الحب مجرد كلمة من حرفين .. وضعها
بنو آدم .. اخترعها وصدقها .. حاك الأقاصيص حولها .. فجعل من
غموضها طعاما لكل ساذج .. بالنسبة لي .. الحب .. وهم .. الحب يعادل
الجنس .. رغبة حيوانية بحت .. حالة تنتهي بكل بساطة .. عكس ضراوة
بدايتها .. وأتيت .. بعد سنين طويلة من النكران .. جعلتني أرى الحب
مجسدا .. جليا .. صادقا .. فقد أحببتك .. كيف للحب أن يكون وهما ..

..... فنجان .. قهوة ..

وأنت أمامي .. كيف له أن يكون غريزة حيوانية .. وكنت في حضني
بالأمس دون أن تخالجنني شهوة امتلاك جسدك .. باختصار .. قلبت
عقائدي رأساً على عقب ..

نظرت من النافذة كي أتأكد من الطقس قبل خروجي .. لا كي آخذ
المظلة .. بل لآخذ معطفي الجلدي .. المعطف الذي لمسك ولمسته .. ظلك
وظللني .. لا أستطيع أن أقول إننا لم نحى معا تحت سقف واحد .. كان
بيتنا شارع الحمرا .. وسقفنا المعطف .. كان الهواء يتلاعب بأغصان
الأشجار وأوراقها .. تارة يصفعها وتارة يتهادى بدلال بينها فتتميل
غنجا وخجلا .. أنت أجمل من الطبيعة وأسرارها ..

بلهفتي اليومية انطلقت فرحاً نحو جزيرتنا .. أم أقول مخبئنا؟ كلاهما
يفيان بالغرض .. هناك أشعر بأننا بعدنا عن العالم بأسره .. لا أرغب أن
أدعوك لأي مكان آخر في العالم .. إلا قلبي ..

سألت سعادتي .. هل أنت السعادة الحقيقية؟ أم أنك وهم من نسج
خيالي؟ كيف للإنسان أن يصل لقمة الرضا والفرح وهو على دراية
تامة بأنها وقتية .. لم يتبق إلا اليوم ويوم الغد .. ما الفائدة .. بدأ شعوري
بالسعادة يضمحل ويحل مكانه حزن وقلق ومرارة .. هزرت رأسي كي
أطرد أفكاري السوداء .. لماذا أقول لم يبق سوى اليوم والغد؟ سأقول
هناك اليوم والغد .. فالفرق كبير ..

حين وصلت إلى المقهى تلفت حولي أبحث عنها.. كأن كل أهالي بيروت يسكنونه إلا هي.. أين الأمس من اليوم؟.. بالأمس لم يكن سوانا.. واليوم الكل حاضر عدانا.. ذهبت أجالس ركني ويجالسني.. لعلك تظهرين في أي لحظة.. وانتظرت.. وانتظرت.. انقضت ساعة.. ولم تأت.. وانتظرت أيضا.. ولم تأت.. ضاق بي الصبر والانتظار.. نهضت متجها لك.. ميمما شطري نحوك.. أين أنت؟ ولماذا لم تأت؟ ألا تدركين أن ما تبقى لنا يعادل عمرين؟ هل تتخلين عن أي منهما؟ ما سبب أفولك عن سمائي اليوم؟ دخلت الفندق.. نظرت في البهو لعلني أراك.. وبالطبع لم تكوني هناك.. جلست أنتظر.. لا أدري ما العمل.. لا أعرف رقم غرفتك.. ولا في أي من هذه الطوابق الكثيرة.. هل أقرع باب كل غرفة أسأل عنك؟ هل أتوجه لموظف الاستقبال وأسأل؟ لا أريد إثارة الشبهات.. إلا أنني على يقين بأن هناك ما يمنعك عن لقائي.. وهو أمر لا بد أن يكون خارجا عن إرادتك.. لن تستطيعي نكران وإجحاد طفلنا.. حينا.. ذكرياتنا.. كلماتنا.. دقائقنا البخيلة.. لعلك خرجت بعيدا.. هل أجوب الطرق بحثا عنك؟ ما هو عالمك؟ من أنت؟ كل ما أعرفه أنك سيدتي.. لا أريد أن أعرف أي شيء آخر عنك.. لا أستطيع تصور حياتك دوني.. لا أعرف ولا أريد أن أعرف إن كان لك زوج وأسرة وحياة كاملة تحيينها.. ولا أريد أن أكون شاطئا ضحلا سرعان ما تظمره أيامك.. لماذا تظهرين في حياتي لخمس أيام متتالية لبضع دقائق

فقط؟ وكأنك تسرقينها من أيامك؟ ما الذي تخفينه؟ وأين أنت إلى الآن؟
لماذا لم تظهرى بعد؟

لم يرحم المعجبون والمعجبات ضعفي وقلقي .. وانقضوا عليّ .. أنا
الفريسة المصابة .. ولم أستطع الدفاع عن نفسي .. صارعت أمواجهم
العاتية .. تحببت يمينا ويسارا .. أجاملهم وأصافحهم وأوقع دفاترهم ..
أتصور معهم وأنا النازف من جرح غيابك .. غيبيني ألي .. وحزني ..
واضطرابي .. لم تحد عيني طرفة عن باب المصعد .. قد تقرر ين النزول بأية
لحظة .. وغابت الشمس ... ولم يغب صبري .. وبرد الطقس .. ولم يبرد
خوفي عليك .. كنار سعيرة يحرق داخلي .. تأكلت .. ذويت .. وتلاشيت ..
بعد أن هدأت زوبعة المعجبين .. جلست على الأريكة المواجهة
للمصعد .. كي أرى كل النازلين في الفندق .. كم أردت أن أسألمهم جميعا
عنك .. أنا الذي لا أعرف حتى كنيك .. ولا أعرف بأي غرفة تقيمين ..
هل كنت أصمّ حين عرفتني بنفسك أول مرة التقيت بك؟ هل أجلس
أندب جهلي أم أتصرف؟ وهل بيدي حيلة؟ لماذا لا تنهضين من فراشك؟
أين أنت؟ سيدتي .. كفاك تعذيبا وقهرا لي ... بعيدا عنك غدوت كطفل
لحظة ولادته .. يحن لأحشاء أمه .. أذكرين بثر الشهوة والغريزة التي
سقطت بها حالما رأيته .. لقد انتشلتني منه .. شددت الحبل .. أنقذتني
من هلوساتي المجونية .. تمددت تحت أشعة أنوثتك بطهارة عذراء
أستعذب حبك .. لقد أعددت نفسي لفراقك يوم غد .. وليس اليوم ..

كنت واثقا من لقاءك وكأني خططت أقدارنا.. مضحك كم أن الإنسان غرور مغرور.. همزات الشيطان في عروقي تدغدغني.. ماذا لو كنت مع زوجك الآن تمرحان فوق سريرك؟ تسرقان من الغيوم ونيران المدفئة لحظات من شاعرية مارسستها معك مرارا وتكرارا.. في خيالاتي.. مستحيل.. أعود بالله من الشيطان الرجيم.. لست متزوجة.. رأيتك كل يوم ترتدين خاتما واحدا في سبابتك.. تعجبت لموضعه.. لماذا في السبابة بالذات؟ هل تحتاجين إلى المزيد من التميز؟ هل تحتاجين لمزيد من الزينة كي يزيد إغراؤك حين تحركين يديك؟ ليس بخاتم زواج.. حتى وإن كنت ترتدين واحدا.. ماذا عن الذي دار بيننا؟ أو تحونيني مع زوجك.. إن كان هناك زوج؟ لست متزوجة.. وأنا مصر.. وإن كنت فلا أريد أن أعرف.. جل ما أريد معرفته.. أين أنت؟ مع دقائق الساعة السابعة.. ونظرات العاملين المتسائلة عن سبب تمسكي بهذا الكرسي لست ساعات متواصلة.. قررت الرحيل.. الساعة السابعة.. لغز آخر.. سموات سبع.. أراضون سبع.. يقولون إن للقطط سبع أرواح.. في الأسبوع سبعة أيام.. وقصتنا مقدرة لسبعة أيام.. مجرد أرقام..

عدت لمنزلي أتعثر بنفسي الجريحة.. لا أقوى على حملها.. كم أن النفس الجريحة ثقيلة.. وسهرت ليلتها مع كتابك.. كتبت فوق كلماتك.. وأعدت رسم الحروف.. حرفا حرفا.. كتبت اسمي واسمك.. جمعتها في صفحات.. بل على كل صفحة من صفحات الكتاب.. لماذا أبكيك يا

..... فنجان .. قهوة ..

سيدتي؟ يكون البكاء على ما نفقده من أشياء نمتلكها.. أو أناس تجمعنا بهم أقدارنا.. وأنت أسمى من الأشياء كلها.. وفي الحقيقة.. وعندما أمعن التفكير.. أجد أن أقدارنا غير متشابهة.. متافرة الأغلفة.. بعيدة النهايات.. ما كان بيننا هو مزيج من مصادفة حب.. فلم البكاء أيها الشاعر؟ لأجمع دموعي وأثرها فوق رماد ذراك.. لعلها تزهر منك الكثيرات.. سيدتي أسمحين بالغيرة؟ شئت أم أبيت فأنا أغار.. أغار منك وليس عليك.. ترى هل تشعرين بحبي لك؟ وهل تحبينني كما أحبك؟ أحتاج لمن يحبني كحبي لك.. وأريدك أن تكوني أنت..

على النافذة الباردة المكسوة ببخار نيراني المشتعلة ودفع الغرفة.. كتبت اسمك.. جلست على كرسي الهزاز.. احتضنت كتابك.. تقلبت على فراش من شوك جنوني وهلوساتي ودموعي.. نمت.. هربت.. هربت منك كي أحلم بك.

اليوم السابع :

أتقولين من أنا؟ طالعيني .. شاعرات بالصباية حيا

(غازي القصيبي)

نقر خفيف على نافذتي أيقظني.. هل أحلم؟ عصفور وحيد جعل من نافذتي محطة له قبل أن يستأنف رحلته.. نهضت من الكرسي.. هذا

الكرسي كان الحزن الحنون الذي استقبلني وهددني إلى أن غفوت بعد ليلة طويلة من القلق والوحدة.. اتجهت للنافذة بحذر.. لم أتوقع أن أرى عصفورا في مثل هذا البرد.. خشيت أن شعري أن يطير.. كيف اهتديت لوكري أيها العصفور؟ أأكون الوحدة بوصلتك؟ استدلت بها على وحيد مثلك.. أأكون ضللت الطريق؟ كيف انفصلت عن سربك؟ هل أشبهك؟ أم هل تشبهني؟ أم أنك تشبهها؟ حرك رأسه يمينا ويسارا.. تلفت.. لا أدري ما الذي يبحث عنه.. حرك جناحيه وطار بعيدا.. ترى.. هل ستعود يوما؟ أجبني أيها العصفور الهارب والراحل إلى المجهول.. هل ستعود؟ أنت.. وسيدتي.. هل سأراكما مجددا؟ هل خط في كتابي أن أسمع لتغريدك؟ وهل نقشت سيدتي على جدران قلبي كما نقشت في حجرات قلبي؟ سنرى.. سأرى..

أعاند الظروف.. وأصارع القلق.. وأقهر اليأس.. أقص الذل.. وأحو ساعات الانتظار.. أشحن سكاكين عزتي.. وبحماس طفل لنزهة.. أرتدي ملابس.. وأقسم أنني سأراك اليوم.. فقد أهدرتك بالأمس قسرا.. حجبت عني غصبا.. اليوم.. يومنا.. عيدنا.. موعدا.. فلأسمه ما شئت.. سأراك.. سأراك..

هممت بالخروج.. حملت معطفي بلا مبالاة.. توجهت للباب.. سمعت نقرا خفيفا.. هل عاد العصفور؟ نظرت من النافذة.. كانت

..... فنجان .. قهوة ..

خالية.. اقتربت منها.. لم أر غير شجرة ثكلى تودع أوراقها الأخيرة وقد
انحنت بحزن فوقها.. سمعت النقر مرة أخرى.. مصدره الباب.. من
يكون الطارق؟ .. لا يهم .. سأعذر بكل لباقة وأنطلق ملتجئاً لك..
فتحت الباب.. أيا أجمل نعمة أرسلها لي الله.. كنت أنت .. تقفين مستندة
إلى الجدار خائفة القوى .. واهنة.. سلبتني المفاجأة كل قدراتي التعبيرية..
هل أقفز فرحاً لرؤيتك؟ هل أضمك؟ هل أسألك أين كنت البارحة؟
هل أعاتبك على هجري؟ أم أحملك وأدخل بك لعالم حلمت لليال أن
يكون مملكتنا؟

جمعت بضعة حروف بالكاد أكملت جملة.. قلت: أتريدين الدخول؟
لم تجيبي.. تحركت بإعياء نحوي.. مررت بجانبني.. شممت عطرك..
دخلت وكأنك تدخلين بيتك كل يوم.. لم تتلفتي.. لم تستغربي حين رأيته
أن كرسي هزاز وأريكة ومكتبة كبيرة تنوء بحمل الكتب المرصوفة هي
أثاث الغرفة.. اتجهت للكرسي الحنون.. ملجئي ومغارتي.. الذي احتواني
ليلة أمس.. خارت قواك.. جلست بكل وهن عليه.. متعبة.. موردة
الحديد.. مريضة.. أياكون المرض سبب غيابك عني بالأمس؟ أو صدت
الباب.. جثوت على ركبتي أمامك.. أمسكت بكفك.. وضعت يدي
على جبهتك.. كانا كلاهما حاراً.. أنت بالفعل مريضة جداً.. سيدتي هل
تتألين؟ وكيف استطعت الوصول إليّ؟ من ذلك على وكري؟ أين ذاك

..... فنجان .. قهوة ..

العصفور؟ ولم تلجئني لي أنا بالذات؟ أأكون بالنسبة لك جسر أمان..
وموطن عزاء.. ومخبأً تحتمين به من المرض؟

نهضت .. وقفت أمامك .. سحبتك من يديك .. انتشلتك من الكرسي ..
أصبحت بين ذراعي .. خائرة القوى .. لا تنسين بكلمة .. أسمع أنفاسك
الثقيلة .. أشعر بألمك وتعبك ومرضك .. حملتك ووضعتك على الأريكة ..
من قال إن السكوت من ذهب أخطأ .. فالسكوت من الجنة .. ذهبت ..
أحضرت بعض الماء الفاتر ومنشفة .. وبدأت أزيل من جبهتك وكفيك
الحرارة المتراكمة من الأمس .. حاولت قول شيء ما .. إلا أنني قلت لك ..
ألا تتكلمي .. أنت متعبة .. سنؤجل الحديث لوقت لاحق .. فأمامنا اليوم
كاملاً .. جلست بجانبك على الأريكة .. تأملت وجهك المتعب .. شعرك
اللامبالي بمرضك .. وكأنه لا يعنيه كل ما تمرين به .. بقي على حاله بهياً ..
أناملك الطويلة الناعمة .. سيدتي .. أناملك أنامل فنانة .. هل تعزفين على
آلة موسيقية .. أم على أوتار قلبي فقط؟

أسمعك تثنين .. خفت أن تبردي .. جلبت غطاء خفيفاً وحجبت
جسدك عني .. بدأت الحرارة بالذوبان ..

سألتك: هل أكلت؟ هل أخذت أي دواء؟ هل أجلب طبيباً؟

أومأت لي .. لم أفهم .. أكان جوابك نعم أم لا؟

قررت.. اتصلت بالطبيب.. شرحت له حالتك.. ذكر لي بعض الأدوية.. لا أريد أن أتركك.. أرسلت الحارس للصيدلية.. وأعددت لك بعض الحساء.. كيف أستطيع شكرك على وجودك معي؟ بعد بضع رشقات من الحساء وتناولك الدواء.. كطفل هذه المرض غفوت على أريكتي.. مسحت بيدي على شعرك.. تمنيت أن تبقي معي للأبد.. فكرت.. هل للأبد نهاية أو حدود.. إنها كلمة غامضة لها الكثير من المعاني.. الأبد قد يكون اللانهاية وقد يكون بعد سنة أو في حالتنا قد يكون غدا.. فأبدي ينتهي برحيلك..

قربت الكرسي لجانبك وجلست أراقبك وأنت نائمة.. كم من المحبين والعاشقين عاشوا كل المراحل التي مررنا بها.. في سبعة أيام شهدنا قصة حب مكتملة.. شوق.. هيام.. عشق.. غياب.. لقاء بعد الغياب.. مرض.. فرح.. دموع.. رغبة.. وهم.. حلم.. ماذا أبتغي أكثر في قصتنا؟ أخاف إن طالبت أو تمنيت الأكثر.. نعم أريدك.. وأشتهيك.. وأتمنى لو نجلس معا في جزيرة بعيدا عن كل الناس.. فبالنسبة لي أنت الكل.. كل الناس.. وكل المشاعر.. وكل الرغبات.. وكل الدنيا.. هل مللت من أفكارى وهلوساتي.. ساحيني.. فأني أهذي بسبب حرارة أحاسيسي المرتفعة.. وهي الأشد ضراوة..

سيدتي.. لساعات.. لم أفارق كرسي.. لساعات.. جلست أراقبك وأنت نائمة.. تورد وجهتيك.. تنهداتك الحارة.. حركة شفتيك الخفيفة..

..... فنجان .. قهوة ..

عينيك المستسلمتين لنوم قلق .. لم أشعر بالملل .. بل بالعكس .. أملت لو
أبقى على حالي لآخر العمر .. لم تفارقني ابتسامتي .. فأنت معي .. في منزلي ..
غافية على أريكتي .. أصبحت جزءاً من هذا المنزل .. من الغطاء الخفيف
الذي دثرتك به .. من الأرض التي مشيت عليها .. حتى من نافذتي .. لم
ولن أعود أقطن هذا المنزل وحيداً .. ستظل ظلالك وأنفاسك يجوبان
غرفة وردهاته .. يملأانه بعطرك وأنوثتك ..

غابت الشمس .. ألقى على صفحة وجهك ظلالاً أرجوانية اللون ..
كانت كأنها تقرأ لك قصيدة وداع .. مدت فروع أشعتها الحانية .. مسحت
على شعرك .. ثم على صدرك .. نزولا حتى أخمص قدميك .. ثم غفت
على سريرها المائي البعيد وقد تدثرت بستائر الأفق الملونة ..

تحركت .. فتحت عينيك .. رمشت .. تعجبت .. قلت بصوت ضعيف:
أين أنا؟

أين أنت؟ .. أنت في قلبي .. أنت في مملكتي .. أنت عندي ..

قلت لك: لا تقلقي .. أنت معي ..

أحنت رأسها .. كأنها كانت مخرجة .. تراجع نفسها .. تغلطها .. كيف
ترتكب حماقة وتأتي لمنزل رجل لا تعرفه .. وأي رجل .. رجل عاشق
ولهان .. رجل كبت رجولته وجمع شهواته كي يحفظ ثقتها .. رجل غبي ..

..... فنجان .. قهوة ..

لم يكن يدري أن الأخلاق والمثل متخفية في معتقداته تحت أطنان من
وحل المجنون والعريضة..

قلت: نادمة؟

رفعت خصلة شعرها الفضولية من على وجهها.. وقالت بسرعة:
أبدا..

قلت: إذن؟

قالت: لا حق لي بالوجود هنا.. إلا أنني لا أعرف أحدا في لبنان..
وخفت أن أموت..

جثوت على ركبتي.. وضعت شاهدي على شفتيها. أريدها ألا تكمل..
قلت: لك كل الحق بأن تكوني هنا.. حتى وإن كنت تعرفين أهل لبنان
كلهم.. أنا من يجب أن تلجئي إليه.. ثم.. كيف تذكرين الموت؟ إياك أن
تفكري.. أما زلت تجهلين مكانتك لدي..

نظرت إليّ.. ثبتت عينيها بعيني.. فاجأني حين أمسكت بيدي..
وبكل حنان العالم.. طبعت قبلة على باطن كفي..

هل تعلمين ماذا فعلت؟ لقد أحرقتني.. أشعلتني.. انطلقت شهواتي
ورغباتي الحبيسة ثائرة.. حتى أنا أخافتي.. كيف تفعلين ذلك بي..
أنا الذي تقمصت دور الملاك.. أنا الذي رضيت بأن أكون حارسا..
مرضا لك.. قبلت بهذا الدور واكتفيت به.. وإذا بك تطلقين حمما لا

أقوى على احتوائها.. سيدتي.. أسمحين لي بأن أقرب منك أكثر..
اقتربت.. أسمحين بأن أضحك لي؟ .. ضحمتك.. أسمحين أن أهمس
بأذنك بأنني أحبك؟ قربت فمي من أذنك.. ولم أستطع قولها.. خرجت
الأحرف محترقة.. مهترئة.. ولم أتعرف عليها.. أجابتنني عن كل تساؤلاتي
باستسلام مذهل.. لا أدري هل إعيائك كان السبب أم أن الشوق كان
سيدا للموقف؟ أغمضت عينيك.. وأغمضت عيني.. اقتربت شفاهنا
تتوق للقاء محرم عذب.. أصبح الكون بأكمله مسرحا أنا بطله وأنت
موسيقاه.. أنت لحن كريموزا «وداعي الأخير» وأنت لحن بيتهوفن
«ضوء القمر».. أنت أرق من نسمة الربيع.. ومن صوت جدول في
غابة.. ليلة غنى فيها الشوق ورقص له الحنين..

ولم يتم اللقاء.. سقطت دمعة من عينيك.. لماذا تبكين؟ هل هو
الشوق؟ أم الندم؟ أم خيبة الأمل؟ وابتعدنا.. أحبك الآن أكثر.. أتعلمين
ما السبب؟ لأنك سيدتي.. قبلتك أم لم أقبلك.. ما الفرق؟ فأسمى معاني
الحب هي أن أكتفي بما تعطينيه.. دمتك يا سيدتي.. هذه اللؤلؤة.. قصت
لي الكثير.. وفهمت.. توقك.. إحساسك.. رغباتك.. كلها سألها
معي.. سأضعها في علبة أسراري وألفها بشرط ذكرياتنا الحريري
الوردي.. وأجعل من وسادتي مخبئا دهريا.. لتكوني معي كل ليلة..

أنا وأنت.. وكل لحظة جمعتنا معا.. كيف استطعت تجاهل إنسانيتي..
كيف استطعت أن أتجاهل ظمئي لك.. وألا أقبلك.. لا تسأليني.. حتى

..... فنجان .. قهوة ..

يومي هذا لم أهتد للجواب .. هل لأنني أدركت أن الميت ظمآن لن يرتوي
ببضع قطرات من عذب المياه .. بل ستزيده ظمأً وعطشاً .. أم هل لأنني
أثرت عدم الاحتراق مرتين بسبب قبلة محرمة .. مرة في الآخرة .. ومرات
في الدنيا .. أم أنني ببساطة خفت أن تعطيني المزيد .. والمزيد ..

مسحت دمعتك بيدي .. حضنتك بقوة .. اعتصرتك .. ضممتني
إليك .. همست بأذني .. أحبك ..

لم أصدق .. وكيف لي أن أصدق ؟ كيف استطعت أن تحبيني ؟ ومتى ؟
ولماذا ؟ وهل تحب الملائكة البشر ؟

أبعدتك عني .. نظرت في عينيك .. وكعادتك خفضت عينيك خفراً
وحياء .. ثم رفعتها إلي .. احتويت وجهي بين كفيك .. وقلت بثبات ..
نعم أحبك ..

كانت تقول الحقيقة .. لم تكن هلوسات مرض .. ولم تكن خيالات
بسبب المطر .. أو ردة فعل لتعري الشجر .. أو لشوارع الشتاء القاسية ..
أو للبيوت المكسوة بالحجر .. كانت تقول حقيقتنا ..

سيدتي .. أنا الأربعيني .. الشاعر .. الكاتب .. أهديك نفسي .. أو ما
تبقى منها .. يجب أن تعرفي أن كلمتك الثقيلة المعنى .. خفيفة الأحرف
قد جعلت منا زوجاً .. أنت وأنا زوج من الأرواح المتلاقية .. لن يفرقنا

..... فنجان.. قهوة

أحد.. سنلتقي كل ليلة.. أشكو لك غربتي.. اشتياقي.. ولهي..
حبي.. رغبتني..

قلت: أحبك من دهور.. لا تستغري.. أنت ملاكي الذي أنس
وحدتي عندما كنت في المهد.. وأنت خيالاتي التي أصبحت حقيقة..
وأنت أحلامي التي سأحيا محاولا الوصول لها.. سأدعك ترحلين..
ولكن سأنتظرك كل ليلة.. أعلم أنك لن تأتي.. ولكنني سأقبع هنا أنتظر
وجودك.. وأعيد هذه اللحظات.. لن أسأم.. فهي عكازي الذي سأتوكأ
عليه وأتجول معه في شارع الحمرا.. شارع الخيالات.. والحب..

ولآخر مرة ضممتك لي.. قبلت جبينك.. ثم كفيك.. جلبت معطفك
المخمل.. وساعدتك في لبسه.. كنت أقف خلفك.. لم تكن تلك آخر
مرة فقد احتويتك مرة أخرى وقبلت عنقك.. ملت برأسك.. تنهدت..
واتجهنا نحو الباب.. خرجنا معا..

سأغلق الباب بإحكام.. أخاف أن تهرب ذكرياتنا.. وأنفاسك..
وتركني وحيدا..

مشينا معا.. أخذ منك التعب والمرض كل مأخذ.. أسندت رأسك
إلى كتفي.. واحتويتك بذراعي.. قربتك مني كثيرا.. أخاف عليك من
البرد.. قلت لك راجيا: أما زلت عازمة على السفر؟

قلت لي: وما الفائدة.. إن لم أسافر اليوم فسيكون الغد.. اليوم أفضل
من غدا..

..... فنجان .. قهوة ..

لم أجب.. يكفيني أنك بقيت معي يوما بأكمله.. عمرا خالدا..

قلت: هل أنتظر ك لأوصلك للمطار؟

قالت: لا .. أكره لحظات الوداع...

سيدتي وماذا إن قلت لك إنني أعيش لحظات وداعنا منذ سبعة أيام
كاملة؟ لم أجادلك.. ولن أسألك.. هل سأراك مجددا؟ متى ستعودين؟
هل تبقين معي؟ لا ترحلي..

ولأول مرة منذ إصداري لديواني الأول لم يوقفني أحد ليلتقط
معني صورة أو ليحصل على توقيعني.. ببساطة لم يعرفني أحد.. أرأيت
يا سيدتي.. بت شخصا آخر معك.. بت العاشق الذي يحوط حبيبته
بذراعه.. يمشيان معا في شوارع الحمرا في ليلة من ليالي الشتاء المزهرة..

وصلنا للفندق.. وقفنا متقابلين.. ابتسمت.. وابتسمت..

نظرت إلي.. ونظرت إليك.. لم تقولي شيئا.. اقتربت.. قبلت خدي..
ثم ابتعدت.. استدردت لتدخلي.. ابتعدت خطوة.. ثم خطوة أخرى..
أوقفتك قائلا: سيدتي من باب الفضول.. كم رقم غرفتك؟

ضحكت.. قلت: وما الفائدة؟ رفعت كتفيك بحركة خفيفة حلوة..
ودخلت..

ليلة ما قبل اليوم الأول:

أعزائي المسافرين .. الرجاء ربط الأحزمة والبقاء في مقاعدكم .. استعدادا للهبوط في مطار رفيق الحريري خلال الدقائق القادمة ..

لم تربط حزامها على غرار باقي المسافرين .. فهي لم تحله أصلا .. منذ إقلاع الطائرة وحتى موعد الهبوط .. لم تتحرك من مقعدها .. غير آبهة بالصيبة التي كانت بجوارها تحاول محادثتها كي تقطع بها ملل الرحلة .. اعتذرت منها .. قالت إنها تعاني صداعا وإنها ستنام .. كذبت .. كانت تريد أن تقضي بعض الوقت مع نفسها .. تحاسبها .. تناقشها .. تحللها ..

هل جنت؟ .. أم هل عدت مراهقة؟ أسافر من بلد لآخر كي أراه .. ولا عذر آخر دون موعد .. دون اتصال .. لم أكن أريد أن أترك أي أثر لي .. لا عنوان .. ولا رقم هاتف .. ومصيبي أنني لا أدري إن كان ما زال في بيروت .. ماذا لو لم يكن؟ ماذا سأفعل حينها؟ هل أعود غدا؟ أم أن عليّ العودة فورا؟ فور هبوط الطائرة .. سأغير الحجز وأعود للرياض .. فما أفعله هو الجنون بعينه .. صدق شكسبير حين قال «ما الحب إلا جنون» ..

هبطت الطائرة .. ونزل الركاب .. استلموا حقائبهم .. وهي معهم .. كانت مُسيرة ولم تكن مُحيرة في تلك اللحظة .. شيئا ما كان يدفعها لإكمال ما بدأت من رحلة أو مغامرة .. لم تسأل عن رحلة العودة كما وعدت نفسها .. وإنما حملت حقيبتها واتجهت خارجة من المطار .. ابتسمت .. كم تحب زحام

..... فنجان .. قهوة ..

مطار بيروت.. وجدت السيارة بانتظارها.. ركبتهأ أخبرت السائق عن وجهتها.. شهور قليلة مضت منذ أن كانت بها آخر مرة.. المرة الأجل.. أول شيء فعلته بعد دخولها غرفتها.. وبعد أن أقفلت بابها .. نظرت لساعتها.. ما زال الوقت مبكرا.. رفعت سماعة الهاتف.. اتصلت به.. وبعد الرنة الثانية.. كان صوته الذي تعشق يجيبها.. حاولت تذكره بنفسها.. تفاجأت حين تذكرها.. واتفقا على أن يتقابلا يوم الغد في المقهى الذي اعتاد الجلوس فيه.. إنها الأقدار حتما.. فالمقهى لا يبعد سوى بضعة أمتار عن الفندق..

اليوم الأول؛

ما الجحيم بالعذاب..إنما القلب الخلي كل الجحيم

(جبران خليل جبران)

ماذا سأرتدي اليوم؟ لا بد أن يكون شيئا مميزا.. هل أرتدي فستاني الأبيض.. أم الأسود.. حملت كليهما وأمام المرأة جربت الأول ثم الثاني.. أم أرتدي بنظالا من الجينز وسترة بنية..

لا..لا.. سأرتدي فستاني الزهري.. كنت أتمنى أن أرتديه لحضور

مسرحتك..

تري أما زلت تذكر لقاءنا في تلك الأمسية؟

بعد انتهاء الأمسية الشعرية تحلق الحضور حول الشعراء والكتاب والمشاهير يصافحونهم ويتصرون معهم.. كانت القاعة مكتظة بالأدباء.. وكنت أحدهم.. لا.. بنظري.. أنت أفضلهم.. وكان حولك الكثيرون.. حين دخلت القاعة ورأيتك تمنيت أن أقرب وأصافحك.. تمنيت أن أشكرك على أشعارك وأفكارك.. وددت لو أخبرك كم أحبك من خلال كتاباتك.. إلا أنني لا أستطيع.. أخجل.. وقفت بعيدا.. بجانب أحد أعمدة الرخام الموجودة في القاعة.. وحيدة.. أنظر اليك.. فأنا معذورة.. وإن كنت في الثلاثين.. أقصد الثالثة والثلاثين.. هل أنا في الثالثة أم الرابعة والثلاثين؟ وهل هناك فرق؟ عادة ما أنسى تسلسل الأرقام بعد الرقم السابع.. من الجيد أن أكون حافظت على تسلسلي حتى الثالثة والثلاثين..

لا أدري لماذا لم أرحل مباشرة بعد انتهاء الأمسية؟ شيء ما دفعني للبقاء.. كنت في منتهى السعادة بأني وأنت في مكان واحد.. لم أكن أحلم يوما بلقائك.. وها نحن ذا قد أمضينا أمسية معا.. أمسية حب.. أمسية شعر..

تلاقت عيوننا.. رأيته تبسم وحييت برأسك.. هل ابتسمت لي؟ هل حييتني؟ ارتبكت.. لم يكن أحد بجانبني.. ولا شيء خلفي سوى جدران

..... فنجان .. قهوة ..

ضخمة من الزجاج تطل على حديقة واسعة .. ابتسمت ابتسامة صغيرة .. وهزرت رأسي أحبيك من بعيد .. وإذا بك تتجه نحوي تاركا من حولك بعد أن استأذنت منهم .. وبدأ قلبي يركض متخطيا في حنايا صدري كمجنون حبيس يحاول الخروج دون جدوى .. وقفت أمامي .. لا تدري أنني كنت أبذل كل جهدي كي لا تلاحظ ارتعاشي .. صافحتني .. نسيت كل الأحرف والكلمات في كل القواميس اللغوية .. انزلق حجابي الأسود الذي ارتديته تلك الأمسية بسبب كثرة المصورين والإعلام .. مددت يدي كي أثبتة .. فضحتني رعشة يدي .. رأيت ابتسامتك .. حاولت أن تخفيها .. لم يكن عليك أن تخفيها فأنا أحبها .. حدثتني وكأنك تعرفني ببساطة وبعقد شاعر .. بالنسبة لي لم تكن بالغريب .. فقد حفظتك وعرفتك منذ سنين .. قدمت لي كارتا مطبوعا عليه اسمك ورقم هاتفك .. لم أرك تعطي أحدا من المعجبين كارتا .. أو رقم هاتف .. لم يكن هذا ضمن ما حلمت به .. فجل آمالي كانت أن ألقاك .. فاجأتني حين دعوتني على افتتاح المسرحية .. وقبلت .. كيف لا أقبل ؟ هأنت ذا تفتح لي بابا لدخول عالمك .. عالم لطالما حلمت بالعيش فيه .. خانتني الظروف .. ولم أستطع الحضور .. فكرت مئة مرة أن أرسل لك رسالة اعتذار .. أرسلتها مليون مرة في خيالي .. لم أقو على الاتصال بك .. لم أكن أتصور بأنك ستذكرني .. فأنا كأني معجبة أخرى مرت عليك .. ثم رحلت ..

أستاذي الكبير.. أشكرك للمرة الألف.. فقد نبشت أنوثتي من أعماق ذاتي المنسية.. وجعلتها تطفو كزورق شراعي يتمايل مع ريح حضورك الأبدي..

لبست فستاني الزهري.. تعطرت.. ارتديت معطفي.. تعطرت مرة أخرى.. هل يكفي عطري ليكون رسول إعجاب لك؟ ليسر لك حبي العذري؟ نظرت لنفسي في المرأة.. هل أبدو جميلة.. ابتسمت لنفسي ضحكت.. قلت: لا يهم.. المهم عقلي..

نظرت للساعة.. إنها الخامسة إلا ربعا.. سأصل قبل الموعد. علمتني حياتي العملية أن أسبق الموعد إن كنت أريد النجاح.. نسيت أن أخبركم.. فأنا من أوائل النساء السعوديات اللاتي حققن نجاحات عملية وعلمية على الصعيدين.. أي باختصار.. لا وقت للعاطفة.. وهأنت بكلمات قليلة وبعفوية.. بنظرات حاملة.. تسحبني من جفاف صحاري لترمي بي في واحات الحلم.. والمراهقة.. من قال إن للمراهقة عمرا.. أو شكلا.. أو حالة؟ كنت أبتعد عن أي إنذار حب أو إشارة إعجاب.. أتعذر بأن لا وقت لهذه التفاهات.. وكي أكمل صورتي الجادة الجافة.. لم أكن أطلع أحدا على قراءاتي الشعرية أو اهتماماتي بالروايات.. حتى إنني كنت أخفي جميع الكتب والدواوين.. كل ليلة أدخل مكتبي.. أخرج كتابا قد يكون لك أو لغيرك.. أقرأ.. أكتب ملاحظات.. أدون أفكار.. كتبك يا أستاذي أثارت جدالا حادا بيني وبين نفسي.. أفكارك.. كلماتك.. روحك التي رسمتها على ظلال مغلفاتك..

..... فنجان .. قهوة ..

وصلت إلى المقهى .. ما زالت هناك بضع دقائق على موعدنا .. تلفت .. لم تكن قد وصلت .. جلست انتظرك .. في منتصف المقهى انتصبت شجرة الميلاد إعلانا وفرحا بقدوم عام جديد .. خلف تلك الشجرة جلست انتظرك .. رأيك تدخل وتبتسم للناس .. وتومئ برأسك محيا لهم .. تلفت حولك .. أتبحث عني .. أنا هنا .. لم ترني .. نهضت من مكاني .. اتجهت نحوك .. ناديتك .. والتفت لي ..

رأيت في عينيك نظرة لم أستطع تفسيرها .. كانت مزيجا من تعجب .. استنكار .. شك .. إعجاب .. تقدمت نحوي صافحتني .. هل أخبركم عن كفه .. وعن رجولته وشبقه .. هل أخبركم عن حوار الهوى الذي أسرت به لمسته .. كان من الصعب إخفاء احمرار خدي أو تفسيره .. في حضورك .. تصفدت شياطين غروري وكبريائي .. وعربدت أنوثتي .. لا أستطيع النظر إليك .. عيناك يا أستاذي .. تحكي الكثير .. لماذا لا نتكلم ؟ فبالكلام قد أستطيع انتشال نفسي من دور الأنثى الذي كنت أبغض .. نظراتك تأسرنى .. تكبلني .. تجعلني أشعر بأنني في بستان وأنا وردته الوحيدة ..

مثل أي مشروع آخر في حياتي كنت قد وضعت قواعد للقاءنا .. يجب ألا يطول عن الدقائق الخمس .. لن نتكلم عن أمور شخصية .. لا للأسماء .. لا للذكريات .. لا لتفاصيل الحياة الاجتماعية .. كل هذه أمور ستأخذ منا الكثير دون أن يكون هناك أي عائد .. كوني جادة .. واضحة .. هدي أن أجالسه وأستمع إليه .. حلم قديم .. منذ أيام الطفولة .. أما عن هدفه فلا

أعرفه ولا أريد معرفته.. مضت الدقائق سريعة.. وجدت صعوبة بتطبيق كل شروطي.. علي أن أذهب.. عصتني نفسي.. أبت النهوض.. وددت لو أبقى معه لوقت أطول.. قلت لنفسي أخادعها.. سيجارة واحدة ثم أرحل.. استأذنته.. لعله يكره المدخنات.. لكن أن أشعل سيجارة كانت الرشوة الوحيدة التي قبلت بها نفسي أن تجلس لخمس دقائق أخرى.. نهض وأشعل سيجارتي.. رن هاتفه.. أجاب.. تحدث.. إلا أن عينيه لم تفارقا شفتي.. أو يدي التي تمسك بالسيجارة.. ارتبكت.. وتمنيت أن أطفئها.. لكن أن أطفأها فسأرحل.. ولا أريد الرحيل.. أنهى المكالمة وأنهيت سيجارتي.. وبعد سجال مع نفسي اللوامة رحلت..

خرجت.. لم أكتف.. آه يا نفسي الجشعة.. آه يا أنوثتي الموجوعة.. آه يا روحي الظمآن.. في زاوية الشارع وقفت أنتظر خروجه.. لا تسألوني لم؟ كنت أريد أن أعرف عنه أكثر.. أين يقيم؟ ولماذا هجر الرياض؟ وما الذي دفعه لامتهان الشعر؟ كلها أسئلة كنت قد قررت مسبقاً ألا أخوضها... لا تخصني.. لست بصدد إنشاء علاقة.. رأيته يخرج من المقهى.. شارد الذهن.. يمشي ببطء.. ودون أن يلتفت.. تدثر بمعطفه وغطى نصف وجهه.. كان كمن يريد أن يختفي عن أعين الناس.. تبعته خطوة خطوة.. لم يشعر بي.. فقد تركت مسافة كبيرة بيني وبينه.. يا ويلى إن رآني ألاحقه كمراهقة فقدت عقلها.. ما بالي؟ لقد جننت.. دخل إحدى البنايات وأغلق خلفه باب البناية.. لا بد أن يكون هنا منزله..

..... فنجان .. قهوة ..

ترى كيف يكون بيته؟ أتخيله فارغا إلا من الكتب والروايات والشعر..
قد يكون هناك كرسي أمام النافذة الكبيرة التي تطل على هذه الحديقة..
علي أن أعود الآن.. فمهمتي اكتملت.. أستاذي.. كنت أريد أن أعرف
بأي شارع تقطن.. كي أعبر أمام منزلك في كل مرة أكون فيها بيروت..
سأغير اسمي لأكون مجنونتك.. علي أن أعود الآن فالجو بارد وآخر ما
أتمناه أن أمرض في بلد ليس فيها من يعتني بي أو يطبيني.. ثم أنني لا
أريد أن أهدر أي لحظة من هذا الأسبوع.. فقد عزمت أمري.. يجب
أن أراك كل يوم في هذه الأيام السبعة.. لن أضع أي قوانين أخرى..
فلتذهب الشخصية العملية والأخلاق والقيم والمبادئ والمثل والصحيح
والخطأ.. فليذهبوا جميعا إلى الجحيم.. إلى النار المستعرة..

حتى إنني سأكسر قيود الكلمات التي لطلما وضعتها في أقفاص حديدية
وأفقل عليها.. أستاذي.. اسمح لي بأن أناذك بيني وبين نفسي بحبيبي..
حبيبي.. الحب نعمة ندركها عندما نعيها.. وأنا في كامل وعي.. اسمح
لي بأن أحبك سبعة أيام.. سأحبك بعقلي وقلبي وخيالي.. كما أريد.. وكما
أشتهي.. تحت الطبقات الثقيلة من الرسمية والمهنية وجددني.. فتاة
تتوق لحبك.. حبيبي.. أحبيتك بعقلي والآن أحبك بكل منطق.. لست
متسرعة أو طائشة.. بل بالعكس..

كأنك أوحيت لي بأن هذا المقهى هو غارك الذي تقصده كل يوم في وقت

..... فنجان .. قهوة ..

الظهيرة.. هل كان موعدا آخر؟ وإن لم يكن.. لا يهم.. فسأكون في المقهى ذلك الوقت.. سأخذ معي كتابك وأطلب منك توقيعك.. سيكون لي أجمل ذكرى.. حبيبي.. أحب كل ما ينتمي إليك.. حتى حبر قلمك..

وصلت للفندق.. اتجهت للمصعد.. ضغطت على الرقم سبعة.. وذهبت لغرفتي.. سكرى اللقاء..

كانت في الدور السابع.. كم تتفاءل بهذا الرقم.. دخلت غرفتها تدور حولها عصافير الفرح وتجري في دمائها جداول السعادة..

استلقت على السرير.. مسكت كتابه.. قبلته.. قلبت أوراقه.. ثم عادت للصفحة الأولى.. عند اسمه.. لمست بأصبعها حرف اسمه الأول وبرويده حركته وانتقلت إلى الحرف الثاني.. حتى الأخير.. تنهدت.. حضنت الكتاب.. أطفأت النور.. وجلست تفكر..

اليوم الثاني :

أنا حبي دمة هجرت إن تعد لي أشعلت بردى

سعيد عقل

جلست على حافة سريرها.. تنظر للساعة.. بغيط.. بكره..

قالت: كم أنت بطيئة.. متى ستصبح الثانية عشرة.. إنها التاسعة.. أمامي ثلاث ساعات كاملة..

..... فنجان .. قهوة ..

نهضت .. اتجهت نحو الساعة .. حركت عقريها .. طابقتها عند
الثانية عشرة ..

ابتسمت : كم أصبحت جميلة ..

تأففت ..

متى سيخمد بركان جنوني؟ ولكن .. هل أريده أن يخمد حقاً؟ ترى
هل من الممكن أن أستمّر على هذه الحالة .. هل سأخلع عباءة الجدية
والمهنية للأبد؟ هل سأثور عندما يحين وقت ارتدائها مرة أخرى؟ وهل
سأعرف كيف أرتديها؟ أم أكون مسألة فطرة وطبع؟ لا يهم ..

ارتدت ملابسها وانطلقت نحو شارع الروشة .. ستقتل دقائق الساعة
دقيقة دقيقة وترمي بها في خضم الأمواج الثائرة .. كثيراً ما كانت ترتاد
بيروت دون رفيق .. ففي بيروت لا تشعر بالوحدة أبداً ..

قالت تسر لنفسها: ألم أخلف الوحدة ورائي في الرياض؟ ما بالها
تلحق بي إلى هنا؟ أم أشعر بها لأنني أعلم أنك هنا .. وأن من الأخرى أن
أقضي كل الدقائق معك ومع ذلك أثرت أن أتحدى ببعض العقل وألتزم
بعض الصبر ..

سارت نزولاً نحو الروشة .. قطعت الطرق .. كان الجو لطيفاً .. جميلاً ..
منعشاً .. تملأ الغيوم السماء .. وصلت .. ها هي ذي الروشة ما أجملها ..

..... فنجان .. قهوة ..

لم تدخل أيا من المقاهي أو المطاعم الكثيرة المتناثرة على طول الروشة أو الرملة البيضاء.. أثرت الوقوف على الرصيف.. مر من جانبها بائع متجول للقهوة على عربة قديمة .. أوقفته.. أخذت فنجانا من القهوة.. أشعلت سيجارة.. جلست على أحد المقاعد الحجرية.. نظرت للسماء.. فكرت: ما أكثر الغيوم وما أصفها.. ضاعت حقيقة السماء والغيوم.. من الأصل هل في السماء غيوم أم أن الأصل هو الغيوم وما بينها قطع من السماء؟ ابتسمت.. فكرة مجنونة أخرى.. أيضا.. وأيضا.. لا يهم.. لا يهم أبدا.. ما دامت الصورة جميلة فلا يهم.. حان وقت العودة.. علي ألا أتأخر.. تطلعت إلى السماء والبحر والغيوم.. قالت في سرها.. أنتم أصدقائي في هذه الرحلة سأعود بعد قليل.. ابتسمت.. استدارت.. أوقفت سيارة أجرة.. وعادت للفندق..

ماذا ألبس اليوم؟ تملأ خزانتي ملابس كثيرة.. محيرة.. جميلة.. ترى أيها ألبس؟ حيرة الأمس واليوم وغدا حتى نهاية الأسبوع.. أريده أن يراني بها جميعها.. ضحكت من فكرة طرأت على بالها.. ماذا لو ألبسها جميعا.. يالي من حمقاء.. سأغمض عيني وأترك ليدي الاختيار..

ارتدت ملابسها وهي تدندن أغنية للسيدة فيروز:

أهواك .. أهواك بلا أمل ..

وعيونك .. تبسم لي ..

وورودك تغريني .. بشهيات القبل ..

أهواك ولي قلب .. بغرامك يلتهب ..

تدنيه فيقترب .. تقصيه فيغترب

أهواك .. أهواك .. بلا أمل ..

كم أحب هذه الأغنية .. وكم أعي حقيقة كلماتها .. نعم .. أحبك بلا
أمل .. وأي أمل سيجمع بيننا .. لست حزينة .. ولا متشائمة .. إنها راضية
بسبعة أيام أراك فيها كل يوم .. وأسمع بها صوتك .. وكلماتك .. أكتفي .. بل
أتلهف للحظة تلاقي كفي .. وللدقائق القليلة كالتى جمعت بيننا البارحة ..
قل لي يا زكي ناصيف .. حين كتبت كلمات هذه الأغنية .. هل قرأت كفي؟
هل أخبرتك عرافة ما عن مستقبلي فكتبته؟ هل رأيتني يوما في أحد أحلامك
وعرفت من عيني أنني سأغرم بلا أمل؟ أم أن جنية شعرك أخبرتك عني
منذ زمن بعيد؟ كيف لك أن تعرف مستقبلي الذي لم أكن أعرف؟

نظرت لنفسي في المرآة .. هل أبدو جميلة .. لماذا لا تحيين يا مرآتي؟
من أسأل؟ هل أسأل عامل النظافة الذي يجوب الغرف؟ أم موظف

الاستقبال؟ أم الجالسين في بهو الفندق؟ أرى نظرات الإعجاب تحوم حولي إلا أنني لا أرتجي هذه الإجابة.. أريد أن أعرف إن كنت أبدو جميلة في عينيك أنت وحدك.. إذن سأسأل عينيك.. لعلها ترويني بنظرة منك.. رأيتني من بعيد.. تعانقت نظراتنا.. لجمت ابتسامة فرح غزت شفتي.. هل تنتظرنني.. عينك تقولان لي أن تعالي.. تقدمي.. لماذا تأخرت؟

حبيبي.. هل تأخرت حقاً؟ أعدك بأنني لن أتأخر غدا.. مع كل خطوة أتقدم بها باتجاهك.. أسمعك تناديني بصمت.. بلهفة.. وأجيبك بأنني قادمة.. وكيف لا أقدم على رمي نفسي من قمم الحب وأنت الجالس تنتظرني في وديانها.. وصلت إلى المقهى.. دخلت.. جلست بناظري.. لم أكن أبحث عنه.. إنها أردت أن أعرف الوجوه التي ستكون شاهداً على لقائنا.. اقتربت منك.. نهضت.. مددت يدك.. حبيبي.. حين صافحت يدك يدي.. شعرت بأنك سلبتني كل مقاومتي.. كل جرأتي.. كل آرائي.. وكل قوانيني..

نسيت كتابك.. ونسيت أنني سأجعل من توقيعك للكتاب حجة أجلس بها معك بضع دقائق.. ابتسمت لك.. ورددت لي الابتسامة.. خرجت مني الكلمات: تمنيت أن تكون موجوداً.. أحبت أن ألقى عليك السلام.. وأشكر الوقت الذي منحته لي.. أشرت للمقعد.. قلت: تفضلي..

هل أستطيع أن أجلس معك فعلا؟ هل ستحتمل مشاعري؟ لن أقوى على السيطرة عليها إن جلست معك.. واستمعت لك.. الانسحاب هو الوسيلة الوحيدة للهروب من هذا الموقف.. لا أستطيع أن أجالسك وأتجاهل حبي لك.. لا أستطيع مخاطبتك.. ماذا لو تسربت كلمة حبيبي دون وعي مني.. ولماذا علي لجمها وأنا أشعر بها.. يجب أن أتوقف عن رؤيتك وعن التفكير بك.. يجب أن أبعدك عن خيالي.. وأحلامي.. ومشاعري.. فأنا كبركان خامد.. لا يحتاج إلا لشق واحد في جدرانها كي يطلق حمما نارية هو جاء.. ولن أقوى على نيرانه.. دعني أرحل.. أرجوك.. قلت لك بصدق: أتمنى أن تجمعنا أقدارنا دائما.. إلا أنني لا أستطيع.. علي الذهاب..

خرجت دون أن أنتظر منه ردا.. ألعن نفسي مرات ومرات.. ما الذي أرتجيه من هذا كله؟ اتجهت أمشي نحو الروشة.. أفكر.. لماذا جئت؟ اليوم والبارحة ولماذا قمت بهذا الرحلة أصلا؟ أي مجنونة أنا.. لا أساس لرحلتي.. لم أكن لأصدق أن تتحد أقداري وأراه.. حتى وإن كان بيروت.. لم أكن أتصور أن ألتقيه بهذه السهولة وأتعلق به وأتمنى لو أقضي معه كل دقائق المتبقية في هذه الرحلة.. قيل إن الحب عذاب.. الحب ليس عذابا.. لكن أفكارنا المشتتة هي سبب شقائنا.. أريد أن أجلس معه وأحدثه وأستمع له.. أريد أن أتنشق عطره.. أريد أن أضمه

..... فنجان .. قهوة ..

وأن أحني رأسي على كتفه.. أرى في عينيه المثل.. فلماذا الصراع؟ ولماذا اللوعة.. هل أعود؟ هل أعود للمقهى الآن؟ هل أقول له إن ما تبقى لي هي خمسة أيام أريد ألا أغيب فيها عن ناظريك.. أريدك أن تقدم لي فيها كل ما يتمناه العشاق.. لن أعود اليوم.. غدا.. لن أكون جبانة أو مترددة.. إن طلبت مني الجلوس.. فلن أرفض.. لن أخاف..

اليوم الثالث:

إني أحبك غصة لا ترتوى
يفنى الوجود وأنت روح عاصف
ضحك جنوني ودمع محرق
وهدوء قديس وحس جارف

(نازك الملائكة)

صباحك خير يا حبيبي.. ترى ماذا تفعل الآن؟ هل نمت؟ أم كان الأرق حليفك كما كان معي؟ هل فكرت في؟ هل حلمت بي؟ لم أفكر إلا بك.. ولم أحلم إلا بك.. وب.. كنا معا.. تارة نتأرجح على أراجيح مصنوعة من خشب عتيق.. مزينة بأغصان خضراء وورود حمراء.. وتارة نسبح في عين من عيون اللجنة ضفافها من عشب أخضر وماؤها شديد الزرقة.. في الحلم.. جلسنا متقابلين أمام البحر.. وعلى الرمل الدافئ

..... فنجان .. قهوة ..

.. أحاطنا القمر بضياءه الخافت .. همست لي بأنك تحبني .. أتحبني حقاً؟
وهل أريدك حقاً أن تحبني؟ ألا يكفي أنني أحبك؟ .. في حلم آخر ..
مشينا متلاصقين كعاشقين .. تحيطني بذراعتك .. تحميني من الأقدار التي
تقف كخزنة النار حولنا تحاول إبعادي عنك .. ما أجمل أحلام اليقظة ..
ترى هل سيتحقق أي منها؟ يكفيني أننا اجتمعنا معا في أحلامي .. لا
أصبو للأكثر ..

ماذا سأفعل الآن؟ ما زال موعدنا بعيدا .. لبست .. خرجت .. قادتني
قدماي إلى منزلك .. ما الذي أفعله؟ لماذا أمشي صوب منزلك؟ ماذا بعد
ذلك؟ هل سأصعد؟

أطرق الباب .. وكمجنونة أقول لك: مفاجأة .. حتى أفكارني باتت
مجنونة مثلي .. اعقلي .. واتزني .. كل ما ستفعلينه يا نفسي الصابية أنك
ستذهبين ثم تعودين .. ولكن ماذا إن رأني؟ ما الذي سيقوله عني؟

هل أدعي أنني كنت أتمشى وجرتني قدماي لهذا الطريق؟ أم
أعترف له بكل شيء؟ لا أستطيع التوقف الآن .. فالسير نحو منزلك
ليس باختياري .. أريد أن أقتفي خيالك وأبحث عن ظلالك .. أحسد
الشجر العاري .. وأسفلت الشوارع الباردة .. وحجار البيوت العتيقة ..
أغار منهم .. أعرفهم بنفسي .. أنا حبيبته .. مجنونته .. مغرمته .. وهو رفيق
خيالي .. وعطري الأبدى ..

..... فنجان.. قهوة

إن مر من هنا اذكروني عنده.. قولوا له إنني تتبعته.. أخبروه بأني سأجعل من هذا الطريق مأوى لذكرياتي ولجنوني..

وقفت أسفل العمارة.. رفعت بصري.. هل سأراه واقفا خلف إحدى النوافذ؟ هل سيعرفني؟ هل سيومئ لي محيا كما حياني أول مرة؟ أم سيدعوني للصعود؟ حسنا.. ها قد بدأنا بتجاوز حدود اللامعقول مرة أخرى.. علي العودة الآن..

وصلت للمقهى متأخرة.. ففي طريق عودتها قررت أن تغير ملابسها.. فخرجت على غرفتها.. وتأخرت.. لامت نفسها كثيرا

قالت: ماذا لو لم ينتظرنني؟ حينها ماذا أفعل؟ هل أجوب الشوارع بحثا عنه؟ نعم.. قد أفعلها.. منذ أن وصلت إلى بيروت وأنا لا أتصرف إلا بجنون وعشوائية.. لم تفدني دراستي للإحصاءات.. والاحتمالات.. نظريات فيثاغورس..

رأته ينظر نحوها.. ابتسم لها.. تشجعت.. لم يرحل ويدعها تعض أصابعها ندما وتوبيخا على تأخرها.. اقتربت منه.. ثبت نظره في عينيها.. مد كفه يصابفحها.. احمرت وجنتيها.. خففت رأسها.. وتمردت خصلة من شعرها.. حينها مد يده الأخرى ورفع خصلة شعرها..

كادت تهمس بآلا تتوقف.. بلمستك اكتملت أنوثتي.. أكاد أنهار تحت

..... فنجان .. قهوة ..

وطئها.. شعور لذيد سرى في كياني.. لم أستطع أن أخفي رعشة خفيفة
تملكتني.. لم أستطع أن أنبس بكلمة واحدة.. اتجهت للمقعد وجلست..
دون وعي مني.. لمست بكفي مكان أنامله على رقبتى..

قطع مسبحة الصمت بأن أهداها كتابين له.. كادت تبسم.. فقراءته
لأفكارها تكاد تغويها.. حينها فضحت سرها.. قالت له إنها تكتب
أفكارها وملاحظاتها فاجأها بأن طلب منها أن تعطيه كتابه الذي رسمت
عليه الكثير من أفكارها وملاحظاتها..

ترددت.. إن أخذ الكتاب فسأكون أمامه بلا ساتر.. سيقراً أفكارى
ويسمع تنهداتي.. سيعرف كم آلمني وكم أسعدني.. وأنا الحريصة على
إبقاء كل ما يخصني في زوايا مظلمة حبيسة العمى كي لا ترى أو ترى..
وأخذ الكتاب.. لم يبذل جهداً.. فقد أخبرتك.. أنا معه مسيرة ولست
مخيرة.. بعد ذلك لم أعد أقوى على البقاء.. فكأنما تعريت أمامه.. علي
الهروب بعيداً قبل أن يفتح أي صفحة ويقرأني.. نهضت.. رحلت.. لم
أنتظر أن يستوقفني.. أن يطلب مني البقاء.. أفهمه ويفهمني.. يقدر
رغبتي بالرحيل.. ويحترمها.. أحبت عدم إلحاحه.. ورجوت أن ينتظرنى
بالغد كما فعل اليوم والأمس..

اليوم الرابع :

وكم أرتجي خلا وخلي بجانبني وكم أبتغي أمرا وفي حوزتي الأمر
(جبران خليل جبران)

نظرت لوجهها في المرأة.. فكرت.. لماذا أبدو أجمل من كل يوم؟ هل تكون إشراقة الصباح المتبرجة بانعكاسات أشعة الشمس الخجل وراء الغيوم هي السبب؟ أم يكون حبك الذي يداعب كل تقاسيم وجهي وجسدي وأحلامي قد أضفى إشراقة الحب والهوى.. مهما يكن السبب.. أحب أن أقول لك حبيبي.. إنني منذ عرفتك.. أصبحت الأجل.. وغدوت الأكثر أنوثة وطفولة.. وإنني بت أدندن كثيرا.. كعصفور حر يجوب غابات السعادة.. وإن الهواء الذي أتنفس أصبح ريحا من الجنة.. وإن الشعر أصبح أكثر عذوبة.. وإن خيالاتي غدت أكثر جموحا.. وإن جنوني بات أحد معتقداتي.. كم أحببت الجنون في هواك..

سأرتدي اليوم أحلى ملابس.. وأضع أطيب عطوري.. وأرسم عيني بكحل عربي أصيل.. فإني أحضر نفسي لسهرة شاعرية.. قمرها الشمس.. ونجومها السحب.. من قال إن السهر يكون ليلا.. حبيبي.. معك أود أن أجعل من السهر صديقا وفياء.. وهل يحتاج العاشق إلى النوم.. سأوحد عليه بابا حديديا من سبعة أقفال.. كي لا يستطيع الهرب..

..... فنجان .. قهوة ..

كان بانتظارها.. بجانبه مجموعة من الصحف.. وهاتفه.. وفنجان قهوة فارغ.. وسيجارة أذاها الانتظار.. غدت عودا هشاً من رماد.. رآها.. نهض.. ابتسم لها.. كم تحب ابتسامته.. ابتسامته لا تقتصر على شفثيه فقط.. وإنما تشاركهما عيناه.. حاجباه.. جبينه..

كانما كانا على موعد.. لم يفاجئه حضورها.. ولم تبرر مجيئها.. وهل هناك داع لتبريرات كاذبة.. لم تحاول أن تخفي حبها له.. أو حتى أن تحجبه ولو قليلاً.. ولم؟ لماذا لا تصرح له بكل ما تشعر به؟ لأنها تكتفي بالدقائق القليلة؟ تحملها معها.. تعيدها مرات ومرات في بالها وخيالها.. تنسج حولها الكثير من المشاعر لتجعل منها وسادة وثيرة من الأحاسيس كي تغفو عليها حتى الموعد الآخر..

طلبا القهوة.. لماذا لا يحيد بصره عنها ولو قليلاً تريد أن تراقبه وهو يشرب القهوة..

قالت في نفسها.. هذا ما أسميه الانحراف الفكري.. أن أنتظر لأختلس بضع صور له وهو يقرب الفنجان لشفثيه.. كيف يحمله.. ويرشف منه القليل.. ثم يعيده.. إنه انحراف فكري حقاً.. مثير للشفقة.. أخفضي عينيك..

بعد مجهود استطاعت أن تزيل من رأسها فكرة مراقبته مع فنجان القهوة.. وبدأ بالتكلم..

كم أحب كلامه .. نبرة صوته .. تعابير وجهه .. جبينه الذي تعلوه
خطوط عريضة .. سمعت مرة .. أن هذه الخطوط تمثل مشاعر الإنسان ..
كلما ازدادت عمقا .. ازدادت مشاعره وأحاسيسه .. هل سمعت ذلك
حقا؟ أم أنني تخيلت ذلك؟ لا يهم ..

هل أستطيع أن أذكر أوصافه ورسومه .. ألم يجعل الغزل والوصف
للنساء؟ ترى كيف يراني؟ كيف يجذني كامرأة؟ كيف يصنفي من
بين الكثيرات اللاتي أحبينه؟ أليس من العيب أن أتغزل برجل؟ إذن
يكفيني القول إنه بملاحه العربية مثل الرجولة أجمل تمثيل .. وإن
جسده جسد فارس .. كأنما قد شارك بكل غزوات الفتح الإسلامي
.. قل لي حبيبي .. هل قدمت من عصور الجاهلية أم من عصور
الحروب الرومانية أو الفينيقية؟ هل كنت أحد القادة في الغزوات
الإسلامية؟ هل شاركت في فتح الروم والقسطنطينية؟ كم تليق بك
صورة الفارس القائد ..

ألا تكفوا عنا؟ أيها المعجبون .. أيتها المعجبات .. كفاكم .. كفاكن ..
دعونا بسلام .. اتركوه .. تناسوه .. تجاهلوه .. خمس دقائق فقط .. فنجان
قهوة فقط .. لا أطلب الكثير .. بين جملة وأخرى يقبلون عليه .. يسلمون ..
يصافحون .. يقبلون .. يتصورون .. معه .. وأنا حبيته .. لم أقبله يوما ..
ولا أحلم بذلك .. لا أريد .. تخيفني القبله .. وما بعد القبله .. سيكون

..... فنجان .. قهوة ..

قبلات .. وما بعد القبلات ... لا أدري .. احتمي يا شياطيني قبل أن
أرمي بك في مكب نيراني .. فأنت لا تدركين ..

وكأنه قرأ أفكاري .. قال لي ببساطة: هل نغير مكاننا؟ أترين تلك
الطاولة .. ما رأيك ..

وهل أستطيع أن أقول لا ..

كانت الطاولة تقبع في زاوية المقهى .. بعيدة .. وحيدة .. فكأنها
تنتظرنا .. مشيت خلفه .. دون أن أعترض .. ودون أن أقول إن علي
الذهاب .. الذهاب؟ إلى أين؟ ولمن؟ ومع من؟ لماذا أختار الجلوس مع
الخيالات والحقيقة تملأ أرجائي؟ كأننا اختفينا عن أعين الناس .. لم يعد
أحد يقترب منا .. وتحدثنا طويلا .. عن كتاباته وعن ملاحظاتي .. عن
أمنيته وأحلامي .. عن حياته .. وعن هجره لموطنه .. عن شوقه لأمه ..
لغرفته .. لحلمه القديم .. أسر لي أفكاره التي لم يكن ليكتبها يوما .. أو
يضعها بين أيدي أي قارئ أو قارئة ..

حين سألتك عن ملاحظاتي .. لم أكن أعتقد أنك ستقرأها بالفعل ..
فاجأتني .. قد قرأتها ... لم تكن كلماتي مجرد ظلال لأشعارك .. أو
صدى لأفكارك .. كانت كأشجار عملاقة مدت فروعها عاليا في سماء
أفكارك .. لمست غيوم تنهداتك .. لثمت آلامك .. تساؤلاتك .. ثم مست

..... فنجان .. قهوة ..

إحساسك .. كيف استغربت إحساسي بك؟ كيف تعجبت من إيماني بكل ما كتبت ظاهره وباطنه .. ألا أنني لم أكتف بالأخذ بالأحرف ومعانيها .. ألا أنني أعرفك منذ الأزل؟ أم لأن كتاباتك كانت رؤيا لأفكار عشقتها وحلمت بها؟

انتهى فنجان القهوة منذ فترة .. جف البن في قاع الفنجان .. تاركا على جدرانها رسوما غامضة محيرة .. أخبرني أيها الفنجان .. ما الذي تخفيه؟ لماذا تتشج بالسواد؟ وماذا عساك تسر لي؟ عنه .. وعني .. وعن القصة التي نسطر أحداثها يوما بيوم .. وماذا عن النهاية؟ هل من نهاية؟ وهل أرتجي النهاية؟

أت النادلة .. انتشلت فنجاني القهوة من برائن نظراتي .. نبهتني إلى أن وقت سندريلا قد انتهى وأن الرحيل هو قدرتي الذي اخترته بيدي .. من قال إن فنجان القهوة لا يستطيع إخبارنا بشيء .. ها هو ذا يخبرني بأن علي الرحيل .. رحلت .. لكنني تركت الكثير مني لديه .. حبيبي .. احتفظ بها ذكرى حلوة .. نغما سعيدا .. نسمة عطرة .. فهي كل ما لدي .. فقد تركت قلبا .. وإحساسا .. ورغبة ..

اليوم الخامس :

وأخاف حبك عندما

يأتي الشتاء بلا رفيق

والدرب بعدك

صامت الأنفاس

مرتجف الرحيق

(فاروق جويده)

ما أجمل هذا الصباح .. ما أجمل هذا الأسبوع .. أريد أن أقفز فرحاً ..
فتحت باب الشرفة .. لممت أطراف مئزري .. جمعته وربطت الحزام جيداً
كي أحمي صدري من الريح الباردة .. ومن أفكارى .. ومن خيالاتي ..
ومن قلقي .. ومن لهفتي .. ومنك .. نعم أنت .. لماذا أصبحت جزءاً مني ..
من حقيقتي .. بعد أن كنت سراباً .. وهماً .. وهل يصبح السراب حقيقة ؟
هذا ما يقتل الظمآن في الصحراء .. هل سأقبل بك سراباً في حياتي بعد أن
غدوت أكبر حقيقة ..

تنهدت .. جمعت شعرها الطويل .. ربطته للخلف .. مسحت يديها
على وجهها .. تنهدت مرة أخرى ..

..... فنجان .. قهوة ..

قالت تحدث نفسها .. حتى وإن كنت سرابا .. حتى وإن كنت سأموت عطشا في صحاري هواك .. لا يهم .. سأراك اليوم وغدا وبعد الغد .. فلتحيا أيها السراب .. ما قيمة واقع مر .. أمام سراب حلو المذاق ..

ارتدت ملابسها .. وبنشوة وسعادة خرجت من الفندق .. تنقلت بين المحلات .. وصلت لآخر شارع الحمرا .. كانت تريد أن تشتري شيئا تقدمه له آخر يوم يجمعهما .. لا تريده أن ينساها .. لم تكن تدري ما الذي سيقهيا ذكرى خالدة في دنياه .. وقفت أمام المتاجر محتارة .. هل تختار قلما؟ وماذا عندما يحف خبره؟ هل سيرمي؟ هل تشتري كتابا؟ وهل هناك أصدق من كلماته؟ هل تشتري عطرا؟ كيف لها أن تختار؟ هل تشتري ما تحبه .. أم ما يجب؟ بعد تفكير اهدت لفكرة .. دخلت المتجر .. تحدثت للبائع .. كتبت كرتا صغيرا ..

قالت للبائع: أوصيك بأن توصلها للمقهى وتسلمها يدا بيد له .. لا تنس .. أرجوك .. عند الثانية عشرة تماما .. بعد أربعة أيام ..

خرجت ملء كونها السعادة .. اتجهت للمقهى .. أمامها بضع دقائق سيرا قبل أن تصل .. تأخرت على موعد لقاؤها قليلا .. إلا أنها لن تقلق .. كانت موقنة بأنه بانتظارها .. على حين غرة .. شنت الغيوم أشرس حروبها .. اتحدت كدرع سوداء .. وبدأت تطلق سهامها من مطر غزير .. أين تختبئ؟ وكيف تتقي كل هذه السيول .. حاولت أن تختبئ ..

..... فنجان .. قهوة ..

لكن مع الريح القوية والأمطار لا مهرب إلا بدخول أحد المتاجر .. أو العودة إلى الفندق .. لم تشتت مظلة .. ولم تكن تفكر أنها ستحتاج إليها .. أو ستحاول أن تختبئ من برائن المطر وهي العطشى لكل قطرة منه .. هل تعود للفندق؟ بللها المطر .. وتغلغل إلى ما تحت المعطف .. إن عادت فلن تستطيع الخروج مرة أخرى .. فهي لا تملك المظلة أي أنها ستبقى حبيسة الفندق إلى أن يقرر المطر الانسحاب .. وقد يطول الانتظار .. وهي لا تريد أن تنتظر .. ولا تريده أن ينتظر ..

قالت: سأذهب للمقهى .. لا وقت .. لن أهدر أعذب أيامي .. يجب أن أراه ..

حين وصلت .. كان البرد قد تمكن منها .. وبدأت ترتعش وبالكاد استطاعت فتح باب المقهى .. دخلت وقد تجمدت أطرافها وأفكارها .. رآها .. أقبل عليها بلهفة .. بخوف .. ساعدها على خلع معطفها ..

قرأت في عينيه تساؤل: هل أنت مجنونة؟

كادت تقول له: نعم .. أنا المجنونة .. ولا تعاتبني .. فالعتاب لا يجدي في حالتي هذه ..

تمتت بضع كلمات مبهمة .. وإذا به يلف ذراعه حولها .. كان كمن يريد أن يمنحها دفء العالم بأسره .. غير عابئ بما يصيبه من بلل .. أخذها نحو أريكة مقابل نار المدفئة .. أشار للنادلة بأن تحضر فنجانا من الشاي ..

كم أنا محتاجة للشاي .. الشاي ودفئك .. هما كل ما أرجوه في لحظتي هذه .. لا أحتاج إلى الأكثر .. حاولت أن أرفع فنجان الشاي إلا أن ارتعاش يدي كاد يسكب الفنجان بما يحتويه من شاي ساخن .. مد يده وسند يدي بيده .. كانت دافئة .. حنونة .. قرب لي الفنجان .. رشفت منه القليل .. هل أنا في حلم؟ هل يسقيني الشاي؟ أم يسقيني دفئا وحباً وحناناً؟ لم أكن يوماً من أنصار الشاي .. لا أحبه ولا أستسيغه ..

في ذلك اليوم شربت الشاي كله أرتجي أن تبقى يدي بين يديك أطول فترة ممكنة .. شعرت بك تقترب مني .. حرارة جسدك .. امتصت برودتي .. أذابتها مع ما تبقى من ثلوج كانت تطمر مشاعري منذ سنين طويلة .. غرقت في بحور من دفاء .. تملكنتني ملائكة السكينة .. وأزهرت ورد الراحة .. كنت كمن يعدو في الخواء بلا نقطة بداية ولا نهاية .. يعدو في حلقة مفرغة .. دون توقف .. هأنت ذا تعلن النهاية .. وهأنا أتوسد كتفك .. أريد الراحة .. أريد أن ألتقط أنفاساً من عطرك .. انزلقت الكلمات مني دون وعي .. لا تدعني أرحل ..

خففت رأسك صوبي .. سألتني .. هل قلت شيئاً؟

أغلقت عيني .. لا أريد أن أجيب .. تصنعت النوم .. أفضل طرق الهروب .. لا أستطيع قولها مرة أخرى .. فكرة مجنونة .. وعلي نسيانها .. بكل بساطة .. لا أستطيع البقاء .. أبقى عيني مغمضتين .. جلت بفكري

..... فنجان .. قهوة ..

عالمًا من حب خالص.. واختلطت لدي صور أحلام اليقظة بأحلام النوم.. هل غفوت فعلاً؟ لا أستطيع الجزم.. بلا أو نعم..

كأنني سمعت صوتك يهمس لي بأن أبقى.. ألا أرحل.. وبأنك تحبني.. هل كان حلمًا؟ هل كان حقيقة؟ هل تريدني فعلاً أن أبقى؟ أم أنها هلوساتي المجنونة.. ودعائي الصامت أن أسمع تلك الكلمات.. يجب أن أستيقظ.. عليّ أن أذهب.. ككل يوم.. كغريق يصارع عواصف موج.. يفقد الأمل.. وفي اللحظة الأخيرة يلتقط طوق نجاة فيعود للحياة.. ويعاود الكرة في اليوم التالي.. أنا كهذا الغريق.. علي أن أحمل طوق النجاة وأن أرحل.. أنا كهذا الغريق.. أصبحت ألتذذ الغرق.. وأستعذب عراك الأمواج..

ولم تدعني أرحل.. رحلت معي.. تركت المقهى.. خرجت تظللني بمعطفك الجلدي.. طلبت منك أن تنضم لي تحت المعطف.. وجهت لك دعوة كي نقتسم حلمًا.. لنجعل منه شجرة مثمرة.. نرويها بضحكاتنا معاً.. لتزهر ذكريات ناضجة.. هأنا أعود طفلة.. تنقصني ضفيري وشريطة حمراء.. كانت تعقدها لي أُمِّي كل صباح وهي تحوطني بأذكار الصباح وبذكر النبي عليه الصلاة والسلام.. تقمصتني طفولتي.. أقفز.. أضحك.. غير عابئة بثقل سنين عمري.. أنا الطفلة.. أنا الفراشة.. أنا السعادة..

وصلنا.. ودعتك.. قلت لي: غدا..

أردت أن أقول لك: بالطبع.. غدا وبعد الغد..
إلا أنني قلت بابتسامة لم أرد إخفاءها: غدا..

اليوم السادس:

الجسم مني سقيم شفه النصب والقلب ذو لوعة كالنار تلهب
إني هويت حبيا لست أذكره إلا تبادر ماء العين ينسكب

(أبونواس)

جبال من آلام جثمت على صدري.. أطنان حرارة ألهمتني.. على
سريري في غرفتي.. تأكلت مرضا وهديانا.. أنظر إلى الساعة بعينين
دامعتين.. ولأول مرة منذ أيام تمنيت ألا تتحرك.. رجوتها.. تمهلي..
اجعلي من الدقيقة ساعة.. انتظريني.. فأنا لا أقوى على الحراك.. قد
أستطيع تهدئة آلامي بعد فترة.. أريد أن أراه.. لقد وعدته..

حاولت النهوض من السرير.. إلا أنها لم تقو.. كان الألم ينصب على
ظهرها ورجليها.. ورقبتها.. وكل أنحاءها.. رمت نفسها بيأس على السرير..
قالت: لن أستطيع.. لن أستطيع.. أأستسلم؟ أأرفع راية بيضاء أمام
المرض؟.. لم أعد أقوى حتى على التفكير.. غبت في سبات بين نوم
وهذيان.. هل هو نوم أم فقدان للوعي؟.. من الصعب القول.. لا أريد
أن أفكر إلا به.. بين الفينة والأخرى.. حين كنت أستعيد وعيي.. أسأل

..... فنجان .. قهوة ..

نفسى .. ترى ما الذي يفعله .. هل وصل للمقهى .. سينتظرنى .. سأحاول
قدر المستطاع أن آتى .. يهمنى أن أكون معك ..

قالت تخاطب نفسها: كفى عن التفكير .. عليك بالراحة قليلا لعلك
تجمعين بعض القوى لتريه اليوم ..

مع مرور الدقائق .. تزايد مرضها .. لم تعد تستطيع الحركة .. كانت تريد
أن تتصل بالاستقبال كي يرسلوا لها طبيباً .. لم تمرض في يوم ما كما اليوم ..
فكرت: لا بد أن يكون إهمالي البارحة .. لعبى تحت المطر .. واندفاعي
مبللة للمقهى غير عابئة بالمياه التي كستني .. سببا لمرضى ..

وصل الطبيب .. كتب لها بعض الأدوية ..

لم تسمع شيئاً سوى: عليك بالراحة التامة .. لا تتحركى اليوم من
سريرك .. هذا إن كنت لا تريدين الدخول للمستشفى .. حرارتك مرتفعة
جدا .. سأعود كل ساعتين كي أطمئن عليك .. سنبدأ بالمضاد الحيوى ..
وبخافضات الحرارة .. غداً أو بعد غد على أقصى حد ستكونين بخير ..

حاولت أن أقول إنني راحلة غدا .. لا وقت للمرض .. أريد أن أراه
اليوم وغدا فهما كل ما تبقى في رصيدي .. لم أستطع الحديث .. عوضاً عن
الكلام بدأت بالبكاء .. بكيت بحرقة .. أريده أن يفهم كم أنني أحتاج إلى
صحتي .. أعدّها لي أرجوك .. أعتقد أنني أبكي من الألم ..

..... فنجان .. قهوة ..

قال بحنان: لا عليك.. لا تخافي.. كل ما لديك بعض البرد.. نعم هو قاس قليلا.. لكن صدقيني ستصبحين أفضل.. لكن عليك بالراحة.. أمر لها ببعض الحساء وعصير البرتقال

قال لها: يجب أن تنامي قدر المستطاع.. دواؤك النوم والأكل والراحة.. ربت على كتفها.. ومسح على رأسها وأوصى إحدى العاملات من قسم خدمات النزلاء بالبقاء معها.. ورعايتها..

حبيبي.. لا أريد دواء.. ما حاجة الدواء.. أنت دوائي.. حين أراك سأصبح بحالة جيدة.. ولا أريد النوم.. ولا الأكل.. أريد أن أبقى معك اليوم وغدا.. لماذا تبخل علي الدنيا.. إنها سبعة أيام فقط.. أريدها كلها.. هل أتصل عليك أخبرك بما يحصل لي؟ أم أكون قد تجاوزت كل حدود المعقول؟ لا أريد أن تراني مريضة.. ضعيفة.. لا أريد أن أترك ذكريات واهنة.. سقيمة.. أريد كل ما يجمعنا من ذكريات أن يكون كما فصل الربيع.. وكما ألوان قوس قزح.. وكما شجرة الميلاد.. هل ما زلت تنتظرني في المقهى؟ اعذرنى.. لا أستطيع الحراك..

نظرت للنافذة.. ها هو قوس قزح يطل علي من النافذة.. هل تسأل عني؟ لست بخير.. هل لك أن تخبره بأنني قد لا أستطيع أن أراه مرة أخرى.. كم كنت أتمنى أن نلعب معا اليوم.. على قوس قزح.. كطفلين.. خيالهما الجامح سيطير بهما لقمة القوس.. يتسابقان.. يلهوان..

..... فنجان .. قهوة ..

يضحكان.. يرقصان.. هل سترقص معي يوما؟ هل ستحملني بين ذراعيك وتدور بي؟

أغمضت عينيها ولم تعد تعي شيئا.. استسلمت للمرض.. بين الفينة والأخرى تفتح عينيها تنظر بياس للساعة ثم للنافذة.. تفكر.. ثم تغمض عينيها..

قالت: لقد خذلته.. لم أستطع الوفاء بوعدتي..
مع خيوط الشمس الغاربة الأخيرة.. تخلت عن آخر رجاء..
تمنت .. صبرت نفسها: ما زال لدينا الغد.. ما زال لدي الغد..
أيها القمر.. الساكن حدود الخيال.. جاري الوفي.. لا تدعني وحدي الليلة.. أحتاج إليك.. أضئ لي أركان نفسي المعتمدة.. دعني أستمد من هدوئك بعض الارتياح.. أسدل علي كفن طمأنينة أبيض.. اجعل من الأرق واحات أمل خضراء.. تغرد في أرجائها أسراب من عصافير الحب.. دعها تغني أجمل الألحان.. لتغرد بصوت عال.. لا أريد أن أسمع صوت تنهداتي.. ولا آهاتي..

اليوم السابع :

ويضيع المساء في ألف فجر ويضيع الصباح في ألف ليل
كل شيء يذوي وينهار لا يب قي على الأرض غير ذكرى وظل
(نازك الملائكة)

..... فنجان.. قهوة

لن أنتظر أكثر.. حبيبي.. أنا قادمة.. لم يعد هناك الكثير.. مل انتظاري..
أضعت صبري بسرديد ليلتي المضيئة.. ذابت أسوار مدينتي الفاضلة..
أضرمت النار بحجار إياها.. غدت رمادا.. ونفسي التواقه لك.. تصبو
لرؤيتك.. غدوت أبا وأما وأخا.. صديقا.. حبيبا.. ورفيقا.. سندي..
مأواي .. وملجئي.. قادمة.. أنا قادمة.. قادمة لك.. افتح لي أبواب
جنتك.. خذني بين ذراعيك.. انتشل أوجاعي .. ضعها في تابوت من
قهر معتق.. ادفنه في جزيرة النسيان.. اطمره برحيق لحظاتها معا.. كي
يزهر شجرة لبلاب .. شاخه.. عالية.. تزين فروعها نواقيس هوانا..
لتقرع كلما هبت رياح ذكرانا..

أقداري.. يا من سقتني للقياه.. يا من أوقعتني في شباك هواه.. يا من
جعلتني ألحق خطاه.. وأعرف بيته.. مسكنه.. شوارعه.. أستحلفك بمن
خطك في كتابي.. وجعل منك طريقي.. أعطني بعض القوة.. بعضا من
الصحة.. كي أراه..

ارتديت ملابسي.. لا أعرف أيها.. مشيت نحوك.. لا أذكر الطريق..
أذكر أن مسكنك كان على بعد خطوات مني.. ما بال المسافات
تضاعف.. والبيوت تكثر والمحلات تتكاثر.. على جانب الطريق..
أتكى على الجدران.. أجمع أنفاسي.. أتوكأ على آمالي.. أذكرك.. ألملم
أطراف معطفي.. أضمه لصدري.. اقتربت.. هأنا أرى بيتك.. في أي

..... فنجان .. قهوة ..

طابق تسكن؟ عندما أصل .. سأعرف .. أقترّب أكثر .. بضع خطوات أخرى .. بضع ذكريات .. بضع آلام .. بضع تنهدات ..

وقفت أمام الباب .. رأيت اسمك .. وكأي شيء ينتمي إليك .. مسحت بيدي عليه .. أرتجي بعضاً منك .. صعدت .. حبيبي .. تقطن الدور الثالث .. من شرفتك .. تستطيع أن تراني كلما مررت أمام منزلك .. هأنأ أقف أمام الباب .. سأقرع الجرس .. لا .. سأدق الباب بيدي .. حتى وإن كنت خائفة القوى .. سأدق الباب بيدي .. سبع مرات .. عدد أيامنا ..

المرّة الأولى ..

الثانية ..

الثالثة .. هل تسمعني؟

الرابعة ..

الخامسة .. أسمع خطوات خلف الباب ..

السادسة ..

السابعة .. فتحت الباب ..

أريد أن أرتمي بين ذراعيك .. أريدك أن تحملني .. فقد سرت طويلاً .. مسافة مرض .. مسافة وهن .. مسافة حزن .. كفكف آلامي .. واشتياقي ..

..... فنجان .. قهوة ..

احضني .. اجعل من بيتك مأوى لي .. احمني من زبانية الساعات المتبقية
القليلة .. أراها متربصة بنا ..

لماذا أراك متفاجئاً؟ هل أدخل؟ أم هل أعود؟ لا أستطيع الانتظار
كثيراً .. يجب أن أجلس .. سألقي بحملي الثقيل .. وأرتاح .. هنا ..
تحركت متقدمة .. سمعتك تهمس أن أدخلي .. وأغلقت الباب خلفنا ..
أنا وأنت ومنزل الذي كان كما حلمت به .. بسيطاً .. رقيقاً .. حميماً ..
النافذة التي تخيلتها .. الأريكة .. الكتب .. الكرسي الهزاز .. رميت بنفسي
المنهكة عليه .. أغمضت عيني .. لا أريد أكثر من ذلك .. جثوت أمامي ..
حائر الكلمات .. حضنت يديك يدي .. تحسست جبيني .. انتشلتني
من مقعدي .. حملتني بين ذراعيك .. وضعتني بحنان على الأريكة ..
تحققت أحلامي .. واستسلمت .. للمرض .. للألم .. لحبك .. للمسائك ..
لأريكتك .. لبيتك .. لك .. وكأني أحيا حلماً جميلاً .. كنت أشعر بك
كملاك الرحمة تحوم حولي .. تمسح جبيني .. كفي .. سمعتك تتحدث ..
ناولتني بعض الأدوية والحساء .. ونمت ..

الكثير من الأحلام .. الكثير من الكلام .. والكثير الكثير من الضياع ..
حلمت بأنني بالرياض .. بمنزلي .. وأن لدي شرفة .. من الشرفة كنت
أستطيع أن أرى البحر الغاضب .. أسمع زئيره .. بالرغم من الظلام ..
استطعت رؤيته .. كان مخيفاً .. أسود .. وكنت أنت معي .. تقف خلفي ..

..... فنجان .. قهوة ..

دون أن تتكلم.. لم تكن خائفا.. أو غاضبا.. أو حائرا.. كنت صامتا..
لماذا لا تتكلم يا حبيبي؟ لماذا لا تسمعني صوتك كي أطمئن؟ لماذا لا
تأخذني بين ذراعيك وتحميني؟ قل شيئا.. أي شيء..

حين صحوت كنت تجلس جانبي.. ألم أقل لك إنك غدوت لي أما..
تنظر لي.. صامتا.. مطمئنا.. مبتسما.. لم أعد أفرق بين الحلم والحقيقة..
أهذا حلم آخر.. لوهلة.. اختلطت لدي الحقيقة بالحلم.. أين أنا؟
أجبتني بالأقلق..

حبيبي.. كيف أقلق وأنت معي؟ كان قلقي نابعا من خوفي بأن تكون
حلما آخر..

سألتني إن كنت نادمة..

وهل لي أن أندم على اختياري لي؟ كيف أندم على وقتي معك؟
على قربي منك؟ على أن سمحت لي بدخول عالمك؟ على حبك لي.. لم
أعد بحاجة لأن أسمع منك كلمة أحبك.. أشعر بها.. أحسها.. بكل
لمساتك.. نظراتك.. قلقك.. لهفتك.. تحوطني من كل جهاتي.. تلفني
كهالة حنون.. تضيء لي دربي.. تهديني إليك.

حاولت أن أشرح بخجل لماذا أتيت لك.. لأني خفت.. خفت أن
يضيع يومنا الأخير دون رؤيتك.. خفت أن أرحل دون وداع.. دون أن
أقول لك إنني أحبك..

..... فنجان .. قهوة ..

حين جثوت على ركبتك .. تحلفني ألا أذكر الموت أبدا .. وددت لو
أحملك .. أجلسك جانبي .. أنهض .. أقرب .. أمسكت كفيك .. قبلتها ..
في عينينا حديث عشق وهوى .. لماذا لا أرى شياطين الغوى تحوطنا ؟
كانت الملائكة تحفنا .. تباركنا .. تصلي من أجلنا .. اقتربت مني ..

ضممتني ..

ضممني أكثر .. اصهرني بين ذراعيك .. اجعل مني جزءا منك .. لا
تبعدني .. أنفاسك حارة .. وأنفاسي محترقة .. همست بأذني .. لم أفهم
الحروف .. لكنني شعرت بمعانيها .. لغة الأحبة ليست حروفا .. أو
كلمات .. إنما أنفاس .. وإحساس .. لا حاجة للكلام .. أغمضت عيني ..
وأغمضت عينيك .. بتنا نتنفس نفس الهواء .. تداعبنا نفس الرغبات ..
هل ستقبلني ؟ هل سأقبلك ؟ هل ستمس شفتي شفتيك .. هل سأرتوي
بعد ظمأ ؟ هربت دمعة حيرى من عيني .. أوقفتك .. تراجعت .. هل
أحسست بحيرتي ؟ رغبتني ؟ إيماني ؟ خوفي ؟ ارتعاشي ؟ كم أحبك ...

حان موعد الرحيل .. هل انتهت قصتنا ؟ هل سنفترق دون موعد ؟
هل سيكون النسيان عنوان آخر كتاباتك ؟ أم سأراني بين حروفك ؟ في
القصيدة التي ستكتبها بعد الوداع .. اجعل مني حبيبة .. رفيقة .. ولهى ..
اكتست بالاشتياق .. تلفحت بالهوى .. مقيدة بالمسافات .. والأزمنة ..

ودعت منزلنا .. وتركت ذكرياتنا أمانة على رفوف المكتبة .. في ثنايا
الستائر .. وبين طيات الكتب ..

..... فنجان .. قهوة ..

مشيت معي .. كأني زوجين .. عاشقين .. كنت متعبة الجسد .. صافية الروح .. لا للكلمة وداع .. لنحيا الأمل .. قد أراك قريباً .. وقد تراني .. قد نلتقي .. وقد لا نلتقي .. أقدارنا .. اختياراتنا .. بأيدينا .. ستكون معي .. لن نفترق .. وكيف يكون الفراق وأنت معي .. كلماتك .. مشاعرك .. ولمساتك .. وسأكون معك في كل الشوارع .. وفي المقهى .. وفي دهايز منزلك ..

قلت لك: أكره الوداع .. أعترف لك .. حبيبي .. أنا كاذبة .. لا أكرهه .. إنها أخافه .. أتفاده .. أحاول أن أتملص من لحظات يكون فيها الأمل واقفاً في ركن حزين بعيد .. مكبل اليدين .. مكتم الفم .. لنجعل آخر لحظتنا .. ابتسامة مشرقة .. تضئ لنا غداً مجهول الملامح .. والصور ..

من شرفتي .. الدور السابع .. نظرت للشارع .. بحثت عنك .. رأيتك في المارة .. بكيت كثيراً .. أريد أن أغسل شوارع نفسي من الأحزان .. والظلام ..

من شقة ما .. من إحدى العمائر .. حمل نسيم الليل أنغام فيروز حزينة .. ناعمة ..

ليروت .. من قلبي سلام لبيروت .. وقبل .. للبحر والبيوت .. لصخرة .. كأنها وجه بحار قديم ..

..... فنجان .. قهوة ..

تنهدت.. دخلت غرفتها.. أغلقت باب الشرفة.. حملت حقيبتها..
أطفأت ضوء المصباح.. ثم رحلت...

صباح جديد.. ليوم دون اسم.. أو صفة.. بعمر آخر:

دخل المقهى فتى لم يتجاوز سنين الربيع.. يحمل بيده شيئاً مغلفاً.. سأل
عنه.. اتجه نحوه.. سلمه حمله.. ورحل..

فك الغلاف.. كانت لوحة مزخرفة بخط عربي كتب فيها مقطعاً من
أغنية سوف أحيا.. قرأها

ليس سرّاً يا رفيقى أنّ أيامي قليلة

ليس سرّاً إنّما الأيام بسمات طويلة

إن أردت السر فاسأل: عنه أزهار الخميّة

عمرها يومٌ... وتحيا اليوم حتى منتهاه

سوف أحيا.. سوف أحيا

حضرها.. حضر ذكرها.. ابتسم.. حمل اللوحة.. خرج متجهاً لمنزله..

٣١ يناير ٢٠٠٩

رغد السعد



ليلة

كل ما أحتاج إليه بالفعل معي..

لا أحتاج إلا نفسي



شيء ما أيقظها... قد تكون برودة السرير الكبير الفارة.. وقد يكون صوت الوحدة الصارخ .. وقد يكون الوسواس الخناس صياد النفوس في أوج ضعفها..

فتحت عينيها.. الظلام دامس.. مدت يدها للمنضدة بجوارها.. أمسكت هاتفها.. فصلته من الشاحن.. شغلته.. أنار ضوءاً قويا أجبرها على أن تغمض عينا وتفتح الأخرى.. الساعة الثانية بعد منتصف الليل... فتحت دليل المكالمات الأخيرة.. كان آخر رقم اتصلت به قبل أن تنام.. لكنه كعادته لم يجب... اتصلت به.. انتظرت .. وانتظرت حتى انقطع الرنين دون أن يجيب..

لم تستغرب... اعتادت ذلك.. لكن الليلة.. شعرت بغضب جارف... اعتدلت في سريرها جالسة.. نظرت للهاتف بكره... تمننت لو ترميه لأبعد ما تصل له يدها.. فتحطمه.. كي لا تحاول الاتصال به مرة أخرى... إلى متى؟ ستنتظر.. هاهي تكمل عامها الثاني معه.. الاسم زوجة ولا حياة زوجية.. لا مشاركة.. لا مشاعر.. لا حب.. لا كره... فراغ كبير اسمه اللامبالاه... سألته مرارا.. لماذا تزوجتني؟ لماذا أنا؟ وبلا مبالاة يجيب: النصيب... و يعود متسللا لبحر حياته كالزواحف سريعا.. متقمصا لون الملل.. مغلقا وراءه منافذ الكلام ومخارج الحروف..

..... فنجان .. قهوة ..

مسحت بيدها على شعرها.. ثم بحزن كبير همست وهي تسند رأسها
بين كفيها: أستغفر الله العظيم...

تشعر بثقل على كتفيها.. وبرودة وقشعريرة خلف رقبتها.. كأن هناك
من ينفث قربها أنفاسا متجمدة... تمتت... أعوذ بالله من الشيطان
الرجيم... تذكرت.. قرأت في مكان ما بأن ما تشعر به الآن ماهو إلا
وجود قريبتها... انتفضت خوفا... لهجت بأية الكرسي بسرعة حتى
تداخلت الحروف .. امتدت الرعشة من خلف رقبتها حتى وصلت
لقلبها... أسرع بقراءة المعوذات بسرعه أكبر .. لم تقو على الحراك...
جمدت أطرافها.. وتحركت عيناها تجوب الغرفة المظلمة بسرعه متوجسة
من رؤية شيء ما...

لا شيء...

لا صوت.. لا حركة... لا أحد... ككل ليلة.. وحيدة... حتى البرودة
و القشعريرة والخوف والتوجس سرعان ما انسحبت وتلاشت.. حتى
قريبتها تركتها وحيدة.. هكذا فكرت بحزن...

تتوجت مشاعر الوحدة ككل ليلة ملكت لحظات عمرها...

بدون تفكير ضغطت على اسمه تريد الاتصال به.. قبل أن يرن
هاتفه.. أغلقت الخط بسرعة.. يكفي... كل محاولة منها بالاتصال تجعل
من نفسها أضحوكة .. ترى هل تكون موضوعا لغمزهم ولزهم؟ هل

يتفاخر أمام أصحابه بصلابته وبعدم اهتمامه؟ هل يخبرهم قصصا عن حبها له وتعلقها به وبأنها لا تستطيع الحياة دونه؟ وتأتي مكالماتها لتكون الإثبات الذي يحتاج إليه أمام أصحابه..

همت بالنهوض من السرير.. رفعت عنها غطاءها الوثير... أنزلت رجليها .. لامست قدميها سجادة هادئة الألوان ناعمة الخيوط دقيقة الصنع غطت جزءا من غرفتها الواسعة... مدت يدها فأضاءت الأباحورة وانبعث نور بدد ظلام الغرفة.. جالت ببصرها في تفاصيل غرفتها... لم تر الأثاث الفخم ولا الستائر الحريرية ولا الثريا ذات سلاسل الكريستال.. رأت الوحدة قابضة في أركان الغرفة وزوايا حياتها.. نهضت من السرير و توجهت للمرآة.. انعكست صورتها .. تساءلت: أأكون قبيحة في نظره؟ هل يراني بشكل قرد؟ أو بشكل عجوز شمطاء؟ أو بقبح لا مثيل له؟ لكن هاهي صورتي جميلة... لا ينقصني شيء لدى غيري من النساء... شعري.. ملاحي... جسدي... أأكون رائحتي نتنة؟ بالطبع مستحيل... عطوري الفرنسية ودخوني وعودي الغالية تشهد لي بطيب حضوري في المجالس..

فكرت بغضب جدل بحزن عميق.. هأنا أشك في نفسي.. أنوثتي.. ملاحي... زواجي منه دمرني وأطاح أبراج نفسي حتى فتتها ونثرها فوق صحاري حياتنا الجذباء فضاع أثرها..

..... فنجان .. قهوة ..

لا.. آن الأوان لأقول لا.. وكفى.. لا لن أقبل بحياة كهذه.. وكفاني
خوفا وترددا..

مسرعة فتحت خزانة ملابسها... أخرجت حقيبة سفرها ... بدأت
بوضع الملابس فيها.. توقفت... لا.. لن تأخذ أي شيء معها من هذه
الحياة.. لا تريد أيا من هذه الملابس أو الأحذية أو المكياج... لا شيء
يذكرها بسجن كانت هي السجينة والسجان في آن معا..

بدلت ملابسها ... أخرجت جواز سفرها.. قلبته... ظهرت بين
صفحاته أختام الدول التي سافرت إليها وتذكرت كم كانت سعيدة
حرة منطلقة... آخر ختم كان من أكثر من سنتين... حتى شهر العسل
لم تحظ به...

بيدها اليوم ستنهي غيبوبة الشك والتردد والحزن.. اتصلت بالسائق..
المطار...

ركبت سيارتها الفارهة... رائحة الجلد الأصلي ككل مرة أشعرتها
بالغثيان... فكرت.. هانت.. مسافة طريق المطار وسينتهي كل شيء..
ابتسامة عطشى للأمل زينت شفيتها... بريق خفيف ظهر بعينها..
بريق الحياة.. وصلت إلى المطار.. سألت عن أقرب رحلة متجهة لدبي..
حجزت .. الرحلة بعد ساعتين.. عند تسلمها لبطاقة الصعود للطائرة
سألها الموظف إن كان لديها أي أمتعة؟ أجابته بسعادة لا ...

..... فنجان.. قهوة

كل ما أحتاج إليه بالفعل معي.. لا أحتاج إلا لنفسي...

جلست عند بوابة المغادرة تنتظر... اشتريت كوب قهوة.. ارتشفته
بهدوء و تلذذ.. انتهت إلى أنها طوال الوقت تحمل هاتفها بيدها.. قطبت
جبينها... لماذا؟ أما زالت تنتظر اتصاله؟ ألم تيأس منه؟ بالطبع لا.. إنما
التعود يصبح في نفس الإنسان كحجر أساس يركن إليه ليبنى عليه
تفاصيل الحياة...

ماعدت أحتاج إلى هذا الحجر.. سأهد سجون نفسي ومعتقلات
روحي لأغدو كطائر النورس حرة سعيدة...

نهضت.. اقتربت من سلة المهملات.. أغلقت الهاتف.. ورمته...

«أعزائي المسافرين.. تعلن الخطوط العربية السعودية عن إقلاع
رحلتها ٤٥٣ المتجهة لدبي.. الرجاء التوجه للبوابة ٢٤ للصعود للطائرة»



دميمة

كنت أحلم بالحب.. منذ أن بدأت أشعر بأنوثتى المدفونة
تحت تلال.. قبحى..



علا صوت المنبه للمرة الثانية.. مدت ذراعها بكسل.. أقفلته..
تشاءبت، أبعدت اللحاف.. رمته بعيدا.. ثم نهضت.. اتجهت للمرأة،
ضوء الشمس انعكس خفيفا على المرأة بعد أن تسلل من بين طيات
الستارة التي لم تغلق بإحكام..

نظرت لوجهها.. قالت بصوت كسول فيه الكثير من بقايا نوم:
مرآتي.. يا مرآتي... أخبريني.. من أقبح فتاة على وجه الأرض؟
ساد صمت غريب.. كانت تقف بكل احترام أمام المرأة.. وكأنها
بالفعل تنتظر جوابا من جماد.. قالت:

ألن تجيبي؟.. هل تخجلين من الإجابة؟.. جوابك لن يجرحني..
تذكري أنا سألت.. وإن لم أكن أريد جوابا لما طرحت السؤال..

لن أستطيع إقناعك.. أليس كذلك؟ منذ أن سمعت قصة بياض
الثلج و الأقزام السبعة.. تحديدا عندما سألت زوجة الأب الشريرة
مرآتها عن أجمل نساء الكون.. وأنا أسألك يا مرآتي.. الشريرة حصلت
على الجواب.. أما أنا فمرآتي حساسة لدرجة ترفض فيها مصارحتي..

دعيني أخبرك يا مرآتي العزيزة.. إنني أعرف جواب سؤالتي.. أراه في
عيون كل من حولي.. أسمعه من خلال همسات ووشوشات الناس في

..... فنجان .. قهوة ..

الأسواق وفي العمل وسابقا في المدرسة.. أعرف أنني دميمة منذ أن كنت طفلة صغيرة.. منذ أن عرفت معنى القبح والجمال..

لا تحزني.. فأنا لست حزينة.. لا تخافي.. فقبحي ليس به شيء مخيف.. ببساطة.. أنا فتاة تخلو من أي صفة من صفات الجمال.. آه كدت أنسى.. لدي صفة واحدة.. فعقدة حاجبي الغليظين وطريقة التقائهما معا في منتصف جبيني فكأنهما يتعانقان بشوق.. المفارق هي سمة الجمال الوحيدة.. زمن يستطيع أن يجادلني؟ لا أحد.. فهي صفة جمال عربي أصيل موثقة عبر التاريخ في الروايات والأشعار والمعلقات.. صحيح لا أحفظ أيا منها لكن تكفيني شهادة فيروز بأغنية

«يا عاقد الحاجبين على الجبين اللجين

إن كنت تقصد قتلي قتلتنني مرتين»

هل أرتجي أعذب من غزل كهذا؟ بالطبع لا..

يا له من صباح.. هكذا تفعلين بي يا مرآتي.. كل صباح جمعة.. أقضي الوقت معك أحاول إقناعك بالرد علي.. ولا حياة لمن تنادي.. يا للسخرية.. فعلا لا حياة لك.. فأنت مرآة ولا تستطيعين الرد.. إلا إذا كنت سحرية بالطبع.. لا تحتاجين للكلام.. صحيح... فصورتي على صفحتك هي أبلغ رد... وكأن صمتك به سخرية لا تعجبني.. لا أستسيغها.. هل أرى ابتسامتك؟ هل تسخرين مني فعلا؟ لا تستطيعين

..... فنجان .. قهوة ..

مواجهتي ... لست بالقوة التي تتخيلينها ... إن أطفأت النور فلن يبقى على سطحك أي ملامح ... ستلاشين ... تحتاجين للنور .. للضوء ... أنصحك بالهدنة ... فأنت من تحتاجين لي .. أنا الوحيدة التي أتحدث معك ... وأنا الوحيدة التي أنظر إليك ... وأنا من يقف يكلمك بالساعات ... نصيحتي أن تردي علي وتحبيني ...

يا إلهي .. كفاني تحريفا وجنونا ..

ضحكت بخفة .. حركت حاجبيها بسرعة إلى الأعلى ثم إلى الأسفل .. قطبتها .. ضحكت .. قالت لنفسها: كفاك يا حلوة .. لا يليق بك العبوس أبدا ..

حملت منشفتها واستدارت لتذهب لدورة المياه ...

وكأنها سمعت همسا يصدر من المرأة: أنت أقبح امرأة في الوجود ... هزت كتفيها بلا مبالاة بعد أن نظرت للمرأة وقالت: أخيرا أجبني أيتها العنيدة ... أعرف ... لم تقولي شيئا جديدا .. أنا الأقبح فعلا ...

ضحكت مرة أخرى واتجهت لتغتسل ..

التفت برداء الحمام وخرجت تتهادى في غرفتها .. فتحت الستارة .. انبثق نور الصباح وانتشر في أنحاء الغرفة .. مرت بالمرأة مرة أخرى ..

..... فنجان .. قهوة ..

صديقتان... أنا وأنت... لن أغضب منك.. وكوني صريحة معي للأبد...
نظرت لنفسها.. قالت ساخرة: ثلاثون عاما وأنا أغتسل كل يوم.. لا
فائدة من ذلك.. الاغتسال لن يغير شيئا في ملاحي.. ابتسمت.. تذكرت
قول صديقتها السورية سمية.. كم كانت تحب قول الأمثال الشعبية
والاستشهاد بها..

كانت تقول لها مداعبة:

ولك الحلو حلو لو فاق من النوم.. والبشع بشع لو تغسل كل يوم..
قالت لنفسها: ذكرك الله بالخير.. كنت نعم الصديقة والأخت..
سمعت صوت أمها تناديه.. تستعجلها كي تتناولوا الإفطار معا..
ارتدت ملابسها بسرعة وذهبت تجالس أمها.. قبلت رأسها.. ثم
قبلت يدها.. وجلست بجانبها

قالت لها بحنان: صباح الخير.. صباح الورد.. صباح أحلى أم في
العالم.. وكانت بين كل كلمة وأخرى تطبع قبلة على جبين أمها..

ابتسمت الأم وقالت بحب وقد رفعت ذراعيها بالدعاء: صباح النور
حبوبة قلبي.. الله لا يجرمني منك.. ويرضى عليك.. ويرزقك بابن الحلال
اللي يعرف قيمتك وقدرك..

ضحكت وقالت تشاكس أمها: حرام عليك ياماما.. تدعي على عيال
الناس... وعلى ذريتهم كمان؟

نظرت لها الأم معاتبة وقالت: وبعدين معاك؟

- طيب خلاص .. خلاص .. أنا آسفة .. وهذه بوسة صلح .. وبوسة
كمان .. وكمان ..

أبعدتها أمها وقالت: عز الله ما فطرنا اليوم .. برد الشاهي واحنا
مقضيئها بوس .. يالله يا بنيتي سمي بالرحمن وافطري .. وبعدين كلمي
خواتك شوفيهنم بييجون اليوم ولا لأ؟

نظرت إلى التقويم .. اليوم سأكمل عامي الثالث والثلاثين .. تساءلت:
هل سيكون هناك فرق بين هذا العام والأعوام الماضية أو الأعوام
القادمة؟ .. كلها أيام تتوالى علي دون أدنى تغيير... نفس العمل ..
ونفس الصديقات .. ونفس العائلة .. ونفس السرير .. تنهدت .. قالت
باستسلام وإيمان صادق: الحمد لله .. لدي الكثير .. اللهم أدمهم علي
نعمة .. واحفظهم من الزوال ..

فتحت درج التسمية وأخرجت شمعة وكبريتا .. أوقدت الشمعة ..
حملتها بين يديها .. أغمضت عينيها .. همست .. تمنت .. ثم نفخت عليها
بخفة وأطفأها .. ابتسمت مؤكدة لنفسها أن أمنيتها ستتحقق هذه السنة ..

في عالم القبح الحقيقي هناك نوعان من قاطنيه، النوع الأول هو النوع
الذي يدرك مدى افتقاده للجمال أو بمعنى آخر مدى قبحه .. والنوع

..... فنجان .. قهوة ..

الآخر هو النوع الذي ينكره بل وقد يتماهى في تضليل نفسه ويبدأ برؤية سراب جمال على مرآة من خيال كي لا يعترف بالحقيقة..

أعتقد أن المزج بين النوعين أمر محمود ومطلوب.. فأنا مثلاً.. أعلم أنني قبيحة ودميمة وبشعة .. نعم الثلاثة معاً.. وسأترك لكم حرية التصور.. إلا أنني أحاول أن أجد ما يجعلني.. والأمر بسيط للغاية..

بدأت أحيط نفسي بكل ما هو جميل.. ملابس.. عطور.. أثاث غرفتي بشكل خاص ومنزلي بشكل عام (على قدر ما كانت تسمح لي به أُمي الحبيبة).. حتى صديقاتي.. بدأت أختارهن من الجميلات.. انتظروا.. إياكم والحكم علي.. لست سطحية.. ولست من الشاذات.. إنها قصدت.. الجميلات بالخلق و الأخلاق.. وبالطبع فلم ألتق بأي فتاة تنافسني في بشاعتي.. وبالتالي فكل من حولي جميلات.. هل فهمتموني الآن؟

طبعاً هناك أنواع أخرى لن أتطرق لها لأنها دخيلة على عالم القبح.. فمثلاً أن تكون الفتاة جميلة بالفعل لكن لا شيء يرضيها.. تريد أن تكون كتلك الممثلة أو كتلك المطربة أو كتلك الصديقة.. تهتز ثقتها بنفسها فتفقد إحساسها بجمالها الذي أنعم الله به عليها ولا ترى إلا عيوباً قد تكون طفيفة تضخمها وتسيطر على نفسيتها.. هذا النوع لا يحتسب على عالم القبح.. حتى في عالمنا هذا هناك طفيليات غير مرغوب فيها..

النوع الآخر الذي يحتاج إلى كتب ومقالات وقصائد هو قبح الأخلاق

..... فنجان .. قهوة ..

وبشاعتها.. أيضا لن أتطرق له في صفحات أفكاري وهلوساتي لأنني والله الحمد جميلة من هذه الناحية (أعتقد ذلك).

أحببت اللون الأخضر فملأت المنزل زرعا وزرعت في نفسي بذور القناعة والرضا والحب .. علمت أنها ستزهر سعادة ونجاحا..

لأمي الحبيبة الفضل الأول بعد الله سبحانه وتعالى في قناعاتي و أفكاري وتربيتي.. علمتني أن جمال الروح أهم من أي جمال آخر.. علمتني ألا أختبئ خلف طبقات من الماكياج .. علمتني أن اختلافي عن أخواتي وصديقاتي هي ميزة وليست عيبا.. وعلي أنا بذكائي أن أستخدمها وأطورها كي أكون جميلة بأعراف أخرى.. فالجمال لا يقتصر على مواصفات أو معايير معينة.. إنها فلسفة حياة.. وأنا أو من بها .. كيف لي أن أنكرها ولا أعتقد بها وهي طوق نجاتي؟

أحببت منطق أمي .. واقتنعت به.. وعلى مثلها وحنانها نشأت وآمنت بأن الله وهبني الكثير.. ماذا لو كنت بشعة وغبية مثلاً؟ أو بشعة وحمقاء؟ كنت سأكون تعيسة فعلا ومحبطة.. كنت أفكر في بعض الأحيان .. ماذا لو كان اسمي جميلة أو قمرا؟.. يا للسخرية.. كنت لأكون مثالا على التناقض المثير للضحك.. وعبرة يكتب عنها في الكتب والأمثال.. كم أضحكنتني هذه الفكرة..

..... فنجان .. قهوة ..

من نافذة غرفتي الواسعة أستطيع رؤية الحديقة العامة التي أنشأتها بلدية الرياض أمام منزلنا.. كنت أحب أن أقضي الساعات أتابع لعب الأطفال بين الأرجوحة والسلام والرمل.. تارة يركضون.. وتارة يضحكون.. وتارة يبكون.. كثيرا ما كنت أضحك عليهم.. فمراقبة الأطفال تدعو للسلام والاعتراف بأن الطفولة هي أجمل مرحلة في حياة الإنسان..

أتذكر طفولتي.. كانت رائعة.. أغدق عليّ والدي بحنان وحب كبيرين.. أكثر قليلا من باقي إخوتي.. وكنت أشعر بالامتنان لهما.. أشكرهما في سري.. حين بدأت أعي سبب اهتمامهما بي عرفت أن ما يفعلونه هو نوع من التعويض المعنوي.. وكأي طفل.. بدأت أستغل هذا الحب والحنان لصالح طبعاً ضد إخوتي.. أخذ ألعابهم.. أضربهم وأركض باكية.. أرمي بنفسي على صدر أمي أشتكيهم.. أخبئ ألعابهم وملابسهم وأحذيتهم.. خاصة إذا لم يعيروني إياها أو يسمحوا لي بمشاركتهم فيها.. كنت ذكية لدرجة أنني كنت أحيك فيها المؤامرات والخطط لأوقع بين إخوتي وأحيانا بين إخوتي وأمي وأبي.. كي أبقى أنا المفضلة المقربة الوحيدة..

أعتقد.. وهذا تحليلي الآن بالنسبة لما كنت أشعر به منذ سنين طويلة.. أعتقد أنني كنت أعرف أنني القبيحة بينهم.. وأنني كنت أعبر عن سخطي بهذه الطريقة.. التي أستطيع أن أقول عليها إنها عدائية وفجة..

كان ترتيبى الرابعة بين إخوتي .. يكبرنى أخ وأختان .. ويصغرنى أخ وأخت .. حتى بعد ولادة إخوتى الصغار لم يتغير أو يتأثر حب والدى لى .. حفاظا على مشاعرى ..

ازدادت عداوتى وشراستى ومكرى حدة .. كنت أحب إخوتى جميعا .. إلا أننى كنت أكره أن أكون مختلفة .. كثيرا ما كنت أسمع صديقات أمى وهن يقلن لها: ما شاء الله على عيالك يا أم فيصل .. كلهم يشبهون بعض إلا هذى .. ويشيرون لى بإصبعهم .. يا ختى ما تشبه لهم .. ما كنها أختهم .. تحضننى أمى بحنان أمام الجميع وتقول: هذى الغالية .. تقبلنى بين خصلات شعرى وعلى جبينى .. وتقبل كفى .. وأشعر بأن قلبى يغوص بين أضلاعى .. ألما وحباً ..

كان تأثير الناس على كبرى .. سواء من قبل صديقات أمى .. أو حتى أصدقاء أبى .. رجال كبار يفترض أن يكونوا فى عداد العاقلين .. الموزونين .. جميعا .. رجالا ونساء .. تعليقاتهم غير المبررة التى لا تحمل أى إنسانية .. نظراتهم .. التواء أفواههم لا أدري إن كان اشمئزا أم استغرابا .. كنت أريد أن أصبح بهم: أنا هنا .. راعوا مشاعرى .. أستطيع سماعكم ورؤية نظراتكم ... لا أدري منأ ربطوا جمال الشكل بالقدرة على الفهم والاستيعاب .. كيف كانوا يطلقون كل تلك الكلمات دون أن يفكروا ولو للحظة أننى قد تأثر أو تألم؟ أو حتى لا قدر الله أن أفهم؟

أصعب ما واجهته هو تناقض مشاعري تجاه إخوتي وصديقاتي في المدرسة.. فحبي لهم لم يكن ليمنع حقدي عليهم ومحاولة إيذائهم بأي طريقة كانت والتي كانت بدورها تسبب لي الكثير من الألم والحزن.. كنت ألوم نفسي وأؤنبها.. حتى جاء ذلك اليوم.. كنا قد أنهينا العام الدراسي بنجاح وذهبنا لتسلم شهادتنا.. الكل فرح بعلاماته وبانتقاله إلى السنة الجديدة.. الكل مشغولون باكتشاف هدايا النجاح يفتحون اللعب ويمزقون الأغلفة بحماس.. إلا أنا كنت مشغولة بحبك طريقة جديدة أفسد فيها فرحة إخوتي.. تفتق ذهني عن طريقة مثلى .. مللت كل الشهادات.. إلا شهادتي طبعاً.. ومزقتها جميعاً.. ومن ثم رميتها بإهمال في الأرض.. لم يكن أبي قد رآها بعد..

وصل أبي فرحاً يسأل عن النتائج.. ركض الجميع نحوه.. يقبلونه ويشكرونه على الهدايا الجميلة .. سأل عن الشهادات.. كنت الوحيدة التي أعطته الشهادة.. ذهب الجميع يبحث عن شهاداتهم.. أجلسني أبي في حضنه يهنئني ويقبلني.. حين سمعنا أصوات إخوتي جميعاً يصيحون ويبكون.. لقد وجدنا شهادتنا ممزقة.. وبالتأكيد أنت من مزقتها.. اعترفي..

نظرت إلى أبي بحزن.. أستنجد به.. أمثل دور المظلوم.. جاءت أمي لتعرف سبب بكائهم.. بات الجميع ينظرون إلي .. أدركت أنني شنت حرباً تفوقني قوة.. لم أواجه إخوتي جميعاً من قبل.. كانت حركة غباء

مني .. اعتقدت أن درع قبحي أقوى من مشاعرهم وغضبهم .. بالرغم من أنني استمتعت ببكائهم وباستئثار حضن أبي للحظات بسيطة إلا أنني أدركت فوراً مدى الخطأ الذي فعلته .. أنكرت .. وأنكرت .. وأنكرت ثم انهرت وبكيت واعترفت .. أنزلني أبي من حضنه .. لم يكن غاضباً مني .. كان حزينا .. أدار ظهره لي ودخل غرفته دون أن يقول أي كلمة ..

نظرت لي أُمي بثبات .. قالت: اعتذري الآن ..

اعتذرت وأنا أبكي .. قلت لهم .. لم أكن أقصد .. حاولت الكذب .. إلا أنني لم أجد كذبة تبرر تمزيق ثلاث شهادات رسمية .. أحنيت رأسي وسكت .. هجم علي أخي يريد ضربي .. لحقته أختي .. أمسكت بهم أُمي .. وقالت بحزم: اذهبوا إلى غرفكم الآن ..

انطلقت أصوات الاحتجاج : ولكن يا ماما ..

علا صوت أُمي: قلت .. إلى غرفكم .. الآن ..

مشى ثلاثتهم محنيي الرؤوس .. دامعي الأعين .. قالت أختي: لست بشعة الوجه فقط .. إنها الروح والخلق أيضاً .. أنت الآن دميمة ..

اقتربت مني أُمي .. توقعت أن تصفعني .. تضربني .. تؤنبني .. تصرخ بوجهي أنني شريرة .. سيئة .. وأنها لن تحبني كما في السابق ..

قالت لي بهدوء بعد أن جثت على ركبتها كي تصبح نظراتي سجيئة

..... فنجان .. قهوة ..

نظراتها: سمعت كلام أختك؟ احفظيه جيدا.. وافهميه.. ثم اختاري.. هل تريدان أن تكوني دميمة حقا؟ واعرفي أن بشاعة الوجه ليست بمشكلة أبدا.. إنما بشاعة الأخلاق.. ستفوح منك رائحة نتنة تنبئ الجميع ببشاعة أفعالك وتصرفاتك.. لن يبقى لديك صديقة أو أخ أو أخت.. بحثت بين كلماتها عن حنانها المعهود.. أملت أن أرى في نظراتها غفرانا وسماحا.. بدلا من ذلك.. رأيت سحبا من غموض لم أفهمه تتجمع حولها.. أصبحت تحيطها من كل جانب.. ثم بدأت تغطي وجهها وجسدها وذراعيها الى أن حجبتها تماما عني..

سمعت صوتها يأتي من خلف هذه السحب:

فكري جيدا.. واختاري.. اذهبي إلى غرفتك الآن ولا تخرجي حتى تقرري.. لديك الخيار اليوم.. هناك من ينتظر قرارك.. قبيحة أم جميلة؟ هجرني الجميع.. لم يطرق بابي أحد.. لم أعد أسمع نداء أمي أو أبي.. حتى إخوتي... لماذا لا أسمع أصوات لعبهم وضحكهم؟ أين هم جميعا.. ترى هل تركوني في البيت ورحلوا؟ ألا يريدونني بينهم بعد الآن؟ يا إلهي ما الذي فعلته؟ لا أريد أن أكون وحيدة.. بلا أهل.. بلا أم.. أب.. إخوة.. أنا أحبهم جميعا.. أقسم بالله أنا أحبكم.. سامحوني.. بكيت كثيرا.. وبمرارة.. في ليلة وحدة وعقاب.. تجلت لي أمور كثيرة.. أنا ابنة الثمانى سنوات.. اتخذت أول قرار بوعي كامل.. لم أكن في تلك اللحظة

طفلة.. بل كنت طفلة وضعت تحت تهديد حقيقي وطلب منها اتخاذ قرار واختيار درب.. وبالفعل قررت.. واخترت..

لم يكن قرارى وليد لحظة ندم أو أسف.. بل بالعكس.. مررت بكل مراحل التفكير والتحليل للموقف الذي وضعت نفسي به.. أنكرت أن أكون السبب الأول للمشكلات .. وضعت اللوم على كل فرد من أفراد أسرتي.. ابتداء من أبي حتى أختي الصغيرة التي لا تعي شيئاً.. هه.. آخر العنقود.. سكر معقود.. هي السبب .. ما كانت أمي أو أبي ليعاقباني هكذا قبل أن يأتيا بها.. أوهمت نفسي بأنني ضحية أسرة لا تعرف التفاهم أو الرحمة.. ثم بدأت أتذكر حنان والدي ورفقهما بي.. وأتخيل إخوتي ونحن نلعب معا.. كم كنا نضحك ونمرح ونلعب.. ثم تراءت لي كل المشكلات التي افتعلتها.. وبدأت أشعر بتأنيب الضمير .. وأحاسب نفسي.. لم أستطع الكف عن البكاء.. تذكرت كلام المدرسة بأن الصلاة إلى الله تعالى تخفف الإحساس بالحزن .. وبأنها ستحل مشكلاتي كلها وتعيد لي محبة أهلي.. أريد أن أوقف تردد الجملة التي رمتني بها أختي قبيل خروجها.. لست بالدميمة الخلق.. لن أَرْضَى بأن أكون مكروهة.. منبوذة.. لم يكن عندي بالغرفة سجادة صلاة أو غطاء رأس.. فكرت.. جلبت لحاف اللعبة.. وفرشته أرضاً.. ثم أتيت بمنشفتي ووضعتها على رأسي.. رفعت يدي إلى جانب رأسي.. وقلت الله أكبر.. وبكيت أكثر.. ركعت وسجدت.. وبكيت أيضاً.. ما بين دموعي وشهقاتي وسيلان أنفي.. لم أكن أستطيع

..... فنجان .. قهوة ..

تذكر درس الصلاة بدقة إلا أنني لم أهتم.. كنت متأكدة أن الله يسمعني
وسينقذني من مشكلتي العويصة التي تسببت بها.. بعد أن سلمت.. رفعت
يدي بالدعاء.. ودعوت الله ألا تكرهني أمي أو أبي أو أحد من إخواني..
تورمت عيناى.. وضائق فتحتها.. أحسست بتعب.. جم.. توسدت
ذراعي ونمت فوق لحاف لعبتي.. ومنشفتي شبه منحسرة عن رأسي..

شعرت بذراعين تحملانني .. شممت رائحة أمي.. أحطتها بيدي..
قبلتها.. وعادت البكاء من جديد.. لم أستطع الكف عن قول.. آسفة..
والله العظيم آسفة.. ساحيني يا أمي..

وبرفقها المعهود وحبها.. وضعتني على سريري.. وبطرف أناملها
مسحت دموعي من على وجنتي ثم مسحت على شعري.. قربت شفيتها
وقبلت جبيني.. أحسست بها تبكي هي الأخرى.. تأملت لبكائها.. لم أرها
قبلا حزينة.. أهذه الدرجة كان ما فعلته خطأ كبيرا؟.. ليلتها.. أعطتني أمي
أهم درس في حياتي.. علمتني كيف يكون الإنسان جميلا وراضيا ومحبوبا..
كلمتني كثيرا.. بصوت هامس.. دافئ.. حنون.. صبت كلماتها في أذني
بعذوبة .. أصغيت لها.. أدركت أن في كلماتها سحرا هداً نفسي وأزال
ألمها.. يومها عرفت و آمنت بأن الله سبحانه موجود وبأنه استمع لدعائي..
وبأنني يجب أن أعمل جاهدة كي أشكره على أنه جعل أمي تسامحني.. أمي
التي أعرف أنها ستجعل باقي أسرتي تحبني وتسامحني كما في السابق..

..... فنجان.. قهوة

غفونا معا ليلتها أنا وأمي على سريري .. أحضنها بكلتا يدي .. و
أحشر أنفي بين خصلات شعرها كي يبقى شذاها ممزوجا بأنفاسي ..
في تلك الليلة السحرية .. القدرية تجلت لدي معان كثيرة .. الجمال
والقبح .. الإيمان .. الكره .. الضعف .. الاختيار .. التسامح .. والحب ..
ومعنى أن يكون للمرء عائلة محبة ..

أحببت أنا الجديدة .. أحببت الرضا .. والثقة .. والحب الذي بدأت
أشعر به من حولي .. أحببت قربي من إخوتي .. واختبرت شعورا جديدا
أخبرتني أمي بأن اسمه القناعة ..

غذتني أمي بالكثير من الأفكار الايجابية ودروس الصحابة وحسن
الخلق .. غرست في جذور محبة .. روتها بكلام عذب فأزهرت ثمارا من
فرح ونور .. وامتدت أفرعها لتطال كل المجالات في حياتي .. في المنزل ..
في المدرسة بين عائلتي .. صديقاتي .. مدرساتي ..

وعلى مر السنين كانت دائما تقول لي بابتسامة حلوة: لنركز على مواطن
الجمال فيك .. كرمك .. تسامحك .. صفاء نفسك .. كوني إنسانة يحبها الله ..
امتثلي لتعاليمه .. تقربي منه .. إن أحبك الله سبحانه وتعالى .. فسيحبك
الناس .. سيجعل القرآن في وجهك نورا .. فاقريه ..

لم تكن أُمي بالمتزمطة أو بالمتعصبة دينيا.. إلا أنها كانت مؤمنة حقا.. جعلتني أرثشف تعاليم الدين وأمثل لها بسلاسة .. كانت لي و لإخوتي بمنزلة المثل الأعلى الذي كنا نتطلع إليه . كانت أشبه بالملاك.. لا تحمل ضغينة لأحد.. ولا تخطئ في حق أحد.. صبوراً.. معطاءة.. حنوناً.. كنا نصبو ونأمل أن نشبهها ولو ببعض منها ومن خلقها.. في تربيتها لنا لم تعتمد على نظريات الغرب ولا على أقوال الناس أو على أمثلة من محيط العائلة.. لم تركز على خبرات الآخرين.. ولا على نصائحهم.. كانت تحكم عقلها ومن ثم قلبها.. و مرجعها الأول كتاب الله وسنة النبي صلى الله عليه وسلم..

أُمي تهوى القراءة بكل مجالاتها.. لم تقتصر على القراءات الأدبية أو الشعرية.. ملأت مكتبتها بكتب السياسة والدين والاقتصاد .. حتى الكتب الطبية.. لا أذكر أننا احتجنا يوماً لمراجعة طبيب غير طبيب الأسنان .. كانت تعرف ما نشكو منه وتمنحنا العلاج الذي يتناسب مع تعبنا.. غالباً تعتمد الطب البديل .. لا تلجأ إلى الأدوية إلا عند الضرورة.. باختصار كانت مدرسة.. بفضل الله ثم بفضل تربيتها و دعائها.. كتب الله لها أن تقرأ عينها ويصبح أخي الأكبر طبياً و أخي الذي يصغرنى أصبح مهندساً معمارياً.. أما نحن البنات.. فتخرجنا كالتالي..أختي الكبيرة غدت مديرة لإحدى المدارس الكبرى.. الأخت الثانية كان لها عقلية رجل أعمال محنك فامتنت التجارة .. أما أختي الصغرى.. آخر العنقود وسكره المعقود.. فلم تكن من محبي العلم فقط بل كانت حينها

تجلس للدراسة كمن يلتهم الكتب لا كمن يقرأها.. تخصصت في علم المختبرات والأبحاث.. وعملت مع أخي الأكبر في نفس المستشفى..

كان لي نهج مختلف عن إخوتي جميعاً.. لم أهو الرياضيات أو العلوم أو النحو أو الصرف.. كنت أدرس وأنجح نعم ولكنني لم أكن كإخوتي.. حتى في تحصيلي العلمي كنت مختلفة تماماً عنهم.. فقد عشقت الفنون والألوان.. أحببت الرسم والنحت.. وأبدعت في مزج الألوان وتحديد الخطوط..

من قال إن فاقد الشيء لا يعطيه عليه أن يعيد التفكير مرة أخرى بمقولته.. فقد يكون فاقد الشيء أفضل من يعطيه.. لأنه سيجند كل أفكاره وخيالاته كي يصل لقمة الإحساس والتعبير.. وهذا ما حصل معي..

حين ظهرت موهبتي وخطوطي.. كان أبي أول من دعمني.. لف بي جميع محلات الرسم.. وفر لي كل أنواع الأقلام والألوان واللوحات.. جهز لي أتيليه جعل منه مقرالي كي أرسم وعلى حد قوله كي أبداع.. إيمانه بموهبتي وضع في نفسي أكبر الثقة.. تحفيزه لي لم يكن مفتعلاً أو روتينياً.. بل كان صادقاً وقوياً..

حتى إنه وضع مقعداً وثيراً بجانب النافذة في غرفة الرسم كي يجلس عليه يقرأ ويعمل حين أرسم.. يشغل بعض الموسيقى الهادئة ومن وقت لآخر يقطع قراءته لتتكلم بضع جمل قصيرة ثم يعود لما كنا عليه.. أنا أرسم وهو يقرأ أو يكتب.. وحين يملكنا التعب كثيراً

..... فنجان .. قهوة ..

ما كنا نمضي الأمسيات نحلم بشكل المعرض الأول الذي سأقيمه وبالترتيبات التي علينا أن نقوم بها.. كم لوحة سيضم؟ وأين سيقام؟ وما هي مواضيع اللوحات؟

أمي لم تكن راضية كثيرا عن امتهاني للرسم.. كانت تقول.. الرسم هواية وليست مهنة.. عليك بحمل شهادة تكون لك كسلاح ضد الزمن.. وافقها أبي بكل اقتناع.. قال بهدوء: هذا صحيح.. الإنسان لازم يكون عنده شهادة تحميه من الحاجة وأنا يا بنيتي ماني باقى للأبد.. علشان كذا قررت أنك لما تتخرجي من المدرسة السنة الجاية إن شاء الله لازم تكلمي تعليمك وتأخذي أحسن شهادة..

قلت بخيبة أمل.. وقد كنت أعتقد أنه سيكون دعامتي لإقناع أمي بدراستي للرسم: نعم سألتحق بقسم التربية الفنية بالجامعة..

قالت أمي: مدرسة رسم؟

أومأت برأسي..

قال أبي: لا.. أنا لست موافقا..

ترقرقت الدموع في عيني.. قلت بصوت ضعيف محتج: ولكن..

قال أبي بصرامة: لقد حسمت موضوع دراستك.. ولا أريد جدالا.. ستكملين تعليمك وتحصلين على أحسن الشهادات.. أنا قررت.. سأرسلك لباريس.. لجامعة السوربون... ستدرسين الرسم.. وتحترفينه..

بعد أن زال أثر الصدمة من على وجهينا أنا وأمي .. قالت أُمي
معتزضة: ولكن ..

قاطعها أبي بحزم: لقد اتخذت قراري .. ستذهب للسوربون .. موهبتها
وخطوطها يجب أن تصقلا بالعلم لا أن تدفنا تحت طبقات من كتب لا
تعني لها شيئا .. لقد تركت لإخوتها حرية الاختيار والحمد لله الكل ناجح
في دراسته .. تذكرني أن هذا ما اتفقنا عليه منذ البداية .. أن نترك لهم حرية
الاختيار وندعمهم ..

قالت أُمي بصوت خفيض: معك حق ..

فرحتي لا توصف .. إقبالي على الدراسة أصبح أضعافا .. وحيي للرسم
بات هاجسي ومحور حياتي .. إلا أن تردد أُمي وعدم تحمسها كان كشوكة
موجعة في قلبي .. لا أريد أن أفعل شيئا وأُمي غير راضية عنه .. ببساطة
لم أعتد ذلك .. كنت أومن بأن رضاها عن أفعالي هو سبب نجاحي ..
وأن ما تقوله هو الصواب وعلي أن أنفذ وإن كانت ضد رغبتني .. فهي
الأدرى .. وفي كل مرة تكون فيها على اختلاف تأتي النتائج لتثبت صحة
رأي أُمي ورجاحته ..

كنت في الصف السادس الابتدائي حين أدركت ذلك: كنا في فصل
الشتاء .. كالعادة استيقظت أُمي قبلنا .. أدت صلاة الفجر .. وهدوء
بدأت تلف على غرفنا توقظنا بحنانها وحبها المعهودين .. نفرك أعيننا

..... فنجان .. قهوة ..

نعسا.. نفتحها.. لنجدها أمانا بابتسامة عذبة تقول لنا.. صباح الخير.. هيا.. موعد المدرسة.. تصل لآذاننا تلاوة القرآن التي كانت تصدر من إذاعة القرآن الكريم بصوت الشيخ عبدالباسط عبدالصمد و نبدأ يومنا بذكر الله..

ننطلق خلفها نحن الستة دون اعتراض.. نشم رائحة الفطور اللذيذ الذي كانت تعده لنا بنفسها.. يسري النشاط في عروقنا.. ننطلق لنغسل وجوهنا .. نتوضأ ونصلي.. نرتدي ملابسنا ثم نجتمع حول طاولة الطعام لتتناول الإفطار..

نجد أبي جالسا على رأس الطاولة .. يضع نظارتيه .. ويدقق في ملفات كثيرة .. ما إن نجلس حوله حتى يزيح كل الملفات ونبدأ بتناول الطعام.. تذكرنا أختي الصغرى دائما بصوتها الصغير.. لا تنسوا التسمية..

نقول جميعنا دفعة واحدة: بسم الله الرحمن الرحيم..

في ذلك الصباح البارد.. وبعد أن أنهينا إفطارنا.. بدأنا نحمل حقائبنا كي ننطلق للمدرسة.. قالت أمي: لا تنسوا ارتداء معاطفكم.. الجو بارد اليوم..

كنت الوحيدة التي لم تصغ ولم تمتثل لنصيحتها.. ولم أرتد المعطف.. رأته.. قالت أمرة: ارتديه..

قلت بعناد: لكن يا ماما.. ما في برد..

تجادلنا .. اعتقدت أنني انتصرت حين ذهبت دون معطفي .. لم أكن أريد أن أترك لمناخ الرياض حرية التلاعب بي .. نرتدي معاطفنا ونذهب متوقعين برودة شتاء .. أمطارا .. ما هي إلا لحظات حتى تسطع الشمس وتبدأ الحرارة بالارتفاع .. ونبدأ بخلع معاطفنا وحملها على أذرعنا .. لن آخذ معطفي اليوم لأنني لا أريد أن أحمله بعد قليل على ذراعي ..

لم أشعر بالبرد في حياتي قط .. كما شعرت به ذلك اليوم .. هبت رياح باردة مثلجة .. هبطت درجات الحرارة إلى أدنى المستويات .. لم يستطع قميصي المدرسي الخفيف ردع هجوم البرودة والفتك بصدري .. اختبأت في قاعة الدراسة أنشد بعض الدفء ولكن هيهات .. كان درسا أرادني الله أن أتعلمه ولا أنساه ما حييت .. وقعت طريحة الفراش لمدة ثلاثة أيام أعاني التهابا في الشعب الهوائية .

منذ ذلك اليوم وأنا أومن بحدس أمي وبآرائها .. كثيرا ما كنا نختلف إلا أنني أعود وأفكر بما تقوله وأجده الأفضل .. ولم أندم قط .. ولا أريد أن أندم الآن وأخالفها بدراستي للرسم في جامعة السوربون بباريس .. كل كلمة في هذه الجملة تعد إغراء كبيرا .. باريس .. السوربون .. احتراف الرسم ودراسته .. إلا أنها خطوة مهمة جدا وكبيرة لن أستطيع الإقدام عليها دون رضاها التام ..

حاولت أن أقنع نفسي بأنها ستعيد التفكير وستدرك مدى أهمية الرسم ودراسته بالنسبة لي.. مؤكدة أن عاطفة الأم ستتغلب عليها وستقتنع وترضى.. لم تكن أُمي من النوع الذي يؤنب أو يُلوم أو يتوعد أو يهدد.. كان أسلوبها أرقى من ذلك بكثير.. لأُمي حقوق اختراع طريقة فعالة جدا في التربية وهي أن تشعرنا بتأنيب الضمير دون أن تنبس بكلمة.. بالضبط.. كانت تلك طريقته.. لا تقاطعنا.. وإنما تقنن الكلام إلى دون الحد الأدنى.. ولا تنظر إلينا أبدا.. فكنا نشعر بأنها غاضبة وليست سعيدة فنهرع لنعذر ونكفر عن خطئنا.. بهذه الطريقة تربينا.. كنا نتحاشى غضبها.. أن تحرمننا من الحديث معها كان يسبب لنا الكثير من الألم النفسي..

بعد مرور أسبوعين على قرار أبي.. لم أعد أستطع تجاهل رفض أُمي الصامت.. علي أن أبدأ حوارا معها.. لي حجتى.. يجب أن أطرحها و أناقشها.. فالرسم مستقبلي الذي أحلم به.. وإن كان تافها وغير مجد بنظرها..

بعد أن خلد الجميع للنوم.. تسللت لغرفة أُمي وأبي.. كان أبي يشاهد الأخبار فيما كانت تجالسه أُمي وتقشر بعض الفاكهة لكليهما.. اقتربت ببطء.. نظر أبي مستغربا: أما زلت مستيقظة؟

أومأت برأسي.. ولم تعلق أُمي.. قال: مابك؟
نظرت لأُمي باستجداء.. قلت: أريد أن أتحدث مع أُمي..

نظرت لي أُمي بعتب وقالت: ماذا؟

قال أبي: اذهبي معها يا حبيبتى .. لعلها لا تستطيع الكلام أمامي ..
تعرفين بينكن أمور فتيات يجب علي عدم معرفتها ..

نهضت أُمي ودخلنا غرفتي ..

ما إن جلسنا حتى انحنيت على كفها أقبلها .. وبدأت بالبكاء دون
وعي .. قلت لها : ماما .. أولاً أرجوك .. لا تعاقبيني على شيء لم يحدث
بعد .. كلميني .. ابتسمي لي .. إن كان سفري لدراسة الرسم سيجعلك
غاضبة مني فلن أذهب ولكن أرجوك لا تغضبي مني ..

قالت تحاول التماسك: أنا لست ضد أو مع .. أنت وأبوك قررتما و
انتهى الموضوع .. هذا مستقبلك وحياتك وعليك أن تفكري جيداً ..

من أين جاءت بكل هذه القسوة؟ قسوة لم أعهد لها بها .. كثيراً ما
شعرنا حنانها وتفهمها .. لماذا تقف الآن في وجه اختياري؟ لماذا لا تحاول
فهمي؟

قلت: ماما .. لك ما تريد .. لن أسافر .. ولن أمتهن الرسم .. لكن
علي أن أقول لك شيئاً واحداً .. بالرسم يا أُمي أنسى مدى قبحي ..
بالرسم أشعر بأنني جميلة .. حلوة .. عذبة .. أشعر بأنوثتي .. وبجمال
أنامي .. أنسى أنني مختلفة .. وأن أحلامي وطموحي لا يتشابهان مع

..... فنجان .. قهوة ..

ما تتمناه أي فتاة أخرى .. أحلامي لا تضم فارس أحلام .. أو منزلا أو أطفالا .. حلمي الوحيد هو الرسم ..

قاطعتني أمي بصرامة وقالت: لا يعلم الغيب إلا الله

قلت: أدرك سبب رفضك تماما .. أتفهم خوفك علي .. تفكرين بمن سيرعاني ويهتم بي بعدكما أنت وأبي؟ أطل الله لي بعمركما .. أعلم أن هذا هو هاجسك وأن هذا ما عنيته حين قلت إن علي أن أحصل على شهادة تعينني على الزمن .. ولكن ماذا إن قلت لك إنني أريد أن أجعل من فرشاة الرسم سيفي .. ومن اللوحات البيضاء درعالي .. وأن هذه رغبتني الوحيدة في الحياة ..

وقفت ثم قالت : كما تريد .. وفقك الله ..

نهضت بدوري وقلت برجاء: ماما ..

التفت لي وقالت: الله يرضى عليك يا بنيتي .. الله يرضى عليك ..

في صباح اليوم التالي تصرفت كلتانا وكأن موضوع سفري ودراستي لم يناقش أصلا .. تجاهلنا .. أو قررنا تأجيل الكلام في هذا الموضوع لمدة سنة كاملة .. من جهتي سأفعل ما بوسعي من دراسة ونجاح وطاعة للأوامر .. أصبو لمكافأة أشبه بالحلم .. أتطلع في عيني أبي .. أرى فيها الطمأنينة والتشجيع .. أستمد منه قوة خفية تغلب بها على مخاوفي ..

حين انتهت السنة الدراسية وبعد حصولنا على شهادتنا أعلنت أمني
أننا سنقضي الصيف في باريس .. نظرت لي وقالت : يجب أن نتعرف على
البلد الذي ستدرسين فيه السنة المقبلة .. سيكون أماننا صيف حافل ..
علينا تنظيم الكثير .. سنزور الجامعة ونسقى لإقامتك ونرى طلبات
القبول والأهم من هذا كله .. عليك بتعلم اللغة الفرنسية ..

قفزت فرحا .. ركضت نحوها أقبلها وأقبل أبي .. لم تسعفني كلمات
الشكر .. فسعادتي كانت أكبر من أن تترجم لكلمات ..



فرنسا .. بلد الإتيكيت والذوق والجمال والراقي .. في باريس حتى
التشرد يكون برقي .. بالرغم من كل الأقنعة التي تراها في وجوه السياح
.. المحاولات القهرية لإظهار مستوى الثراء سواء من خلال استعراض
الملابس والحقائب والمجوهرات ... حتى ارتداء الحجاب أصابته المغالاة
والاستعراض حتى إنني كنت ألمح بعض الحليّ الماسية تطرز طرف
الحجاب .. هذا بالنسبة للنساء .. أما بالنسبة للرجال فحدث ولا حرج ..
أنواع العود والدخون التي تملأ أجواء باريس تجعلك تشك لوهلة
بأنك لم تبارح بهو أحد فنادق المملكة .. قصات الشعر المبتكرة و تحديد
الذقن والحواجب المبالغ فيه .. الجميع يرتدي تصاميم دور أزياء عالمية
ومشهورة .. وفي النهاية يجلسون جميعا على مقاهي الشانزليزية .. أي :
قهوة في الشارع .. كنت أضحك في البداية خاصة وأنا أسير مرتدية بنطالا

..... فنجان .. قهوة ..

من الجينز وتي شيرت وأنتعل حذاء خفيفا يناسب المشي .. فقد قررت أن أمشي في شوارع باريس وأحيائها و أتفقد مبانيها وجمالها العتيق العريق ..
كعائلة كبيرة مكونة من مختلف الأعمار والاهتمامات .. اتفقنا على أن يحدد كل منا الأماكن التي يرغب بزيارتها ووضعا برنامجا يجمع بين الأماكن المشتركة لنزورها معا .. بعدها انقسمنا لثلاث مجموعات .. كنت أنا وأبي معا طوال الوقت. أخواتي التقين صديقاتهن وأصبحن يتجمعن دائما معا . وأمي وأخي الأصغر لم يفترقا لحظة ..

أخي الأكبر لم يحضر معنا بسبب دراسته الصيفية في الجامعة محاولا اختصار سنين الطب الطويلة.

طبعاً إخوتي افترشوا الشانزليزيه مع أصدقائهم وتطبعوا بطباع سياحها .. كنت كلما مررت أمامهم أهددهم ضاحكة بأني سآتي و أجلس معهم بثيابي البسيطة وحذائي الرياضي.

قالت لي أختي قبل أن نخلد للنوم: والله إذا سويتيهما وجيتي جلستي معانا وأنتي مو لابسة لبس مرتب ما تلومين إلا نفسك .. والله لا أعطيك كم فرنك بيدك كنك شحادة ..

ضحكت وقلت أقلد المساكين وأمد يدي: أهون عليك؟ طيب زيديهم شوي خلينا نستفتح

رمتني بالوسادة وقالت بسخرية: دمك خفيف ...

..... فنجان .. قهوة ..

أما أمي وأخي الصغير فقد قررا قضاء معظم الوقت في ديزني ..
يخرجان صباحا ولا يعودان إلا بعد غروب الشمس ..

تنقلنا أنا وأبي بين جامعات باريس نسأل ونجمع معلومات حول دراسة
الفنون وكيفية القبول .. زرنا السفارة السعودية بباريس للتأكد من كل
الإجراءات المطلوبة كي لا تحمل لنا السنة المقبلة أي مفاجآت غير سارة ..

اقترح أبي أن نوسع دائرة البحث ونضع في الحسبان جامعات إيطاليا
أيضا .. إلا أنني عشقت باريس وأملت أن أتمكن من أن ألتحق فعلا بها
دونا عن كل الجامعات الأخرى ..

من الأمور التي أقلقني أمي في البداية هي أن يحاسبها الله وأبي على
عدم العدل بين أولادها .. كيف يوفران لابنتهم الرابعة فرصة الدراسة في
الخارج وبجامعة عريقة في حين أن إخوتها الثلاثة الذين سبقوها قد درسوا
بجامعة الملك سعود بالرياض دون حتى أن يقرأ الموضوع في بالهم .. إلا
أنها هدأت عندما وجدت أن لا اعتراض من قبل أي من إخوتي وإن كان
أخي وأختي الصغيران يأملان أن يلحقا بي بعد انتهائهما من الثانوية .

كنت أعلم سبب حماس أبي لتعليمي في الخارج .. وسبب عدم ممانعة
إخوتي لذلك .. كان الجميع يتطلع أن يعوضني عن نقص في مظهري
بكمال في تعليمي .. إلا أمي .. كانت الوحيدة التي لم تعترف قط بأنني
أفتقر للجمال .. ليس لأنها كانت في حالة إنكار بل لأنها ببساطة كانت

تراني بعيني وقلب أم.. بل إنها وبكل بساطة زارتني في غرفتي آخر الليل (وهي طريقته المثل للتواصل في أمور تعتقد أنها على قدر كبير من الأهمية) قبل سفري للدراسة وبدأت تحدثني مطولا عن شرف الفتاة وعن عود الثقاب الشهير .. وعن أنني يجب أن أحافظ على نفسي وعلى صلاتي.. وألا أدع أي شاب يغويني أو يحتال علي.. وألا أنقاد وراء أي من تعليقات الشباب التي قد أتعرض لها..

كنت أومئ برأسي موافقة على كل كلامها وأقول من فترة لأخرى: حاضر.. إن شاء الله .. لا تشغلي بالك.. أنا تربيتك.. أستغفر الله معقول؟... حبيبي.. كانت تعني ما تقول في كل نصائحها.. وكنت أجاهد لأخفي ضحكة.. هل من المعقول أنها تعتقد أنني قد أتعرض لمعاكسات و تخرشات الشباب .. إعجابا... قد يكون استهزاء.. كنت لأوافقها الرأي.. ولكن إعجابا؟ هذا ما لم أكن أتصوره.. وإن كنت أحببت الخيال الذي وضعته في.. بالفعل تخيلت نفسي أمشي في ساحة الجامعة وممراتها أتعرض لتعليقات أو لصفير إعجاب من الطلبة.. كبحت ابتسامة كانت سترسم على شفتي.. وقطبت حاجبي الملتصقين أمثل الجد والصرامة فيما أمني تكمل محاضرتها وتوجيهاتها البالغة الجدية..

اليوم التالي جلست أقص لأخواتي ما قالته أمني وبدأن بدورهن التندر علي وشاركتهن ضحكاتهن ونكاتهن..

..... فنجان .. قهوة ..

كنت أعلم ضمناً أن الله يوزع النعم على عباده سواسية فيأخذ من هذا
نعمة ما ليعطيه بالمقابل نعمة أخرى أهم وأجدى .. فهو العادل .. الرحمن ..
الرحيم .. وتغاضيت عن حقيقة أن سيدنا يوسف عليه السلام قد وهب
نصف جمال الكون .. أرزاق ... وحكمة من الله لا يعرفها إلا هو

وقفت أمام المكتبة المليئة بالبومات الصور .. ينتابني فضول وشوق
كبيران نحو الصور .. كثيراً ما قضيت أمسيات طويلة أرتب في الصور
وأضعها في مجموعات ثم أنسقها .. أكتب خلف كل صورة عن الذكرى
التي التقطت لأجلها ..

الرف العلوي من المكتبة كان يحتوي على ظروف صُفر قديمة علاها
غبار السنين بها صور طفولة أبي وأمي .. لم نكن نتجرأ على اللعب بها لأن
أمي أوضحت كم أن هذه الصور مهمة ونادرة .. علينا عدم نبشها أو
اللعب بها .. ولا حتى ترتيبها .. هي على هذا الرف منذ الأزل وستبقى
حتى النهاية ..

الكل نيام .. وأنا أقف أمام المكتبة بملل .. لا شيء أعمله .. أنهيت
كل فروضي المدرسية .. ولن أستطيع الرسم .. لم أستقر بعد على فكرة
لوحتي الجديدة .. كنت أنتظر الإلهام بصبر وشوق .. يكون الإلهام عادة
غير متوقع أو منتظر .. قد تلهمني أغنية .. لحن .. زقزقة عصفور .. شجرة

..... فنجان .. قهوة ..

قديمة .. حتى صوت الريح .. ووجوه الأطفال .. كلها مصادر للوحاتي التي أرسمها بكثير من الحب والعاطفة .. إذن .. أنا والمكتبة و الضجر والوحدة .. وهذه الظروف الصُفر تطل عليّ بشقاوة تريدني أن أرتب ما بداخلها وأمضي بضع ساعات أشاهد تاريخ أُمي وأبي وذكرياتهما ..

جلبت الكرسي .. صعدت عليه .. مددت ذراعي وسحبته بعناية .. جلست على كرسي أبي الوثير .. أشعلت المصباح وسلطت الضوء نحو الصور وبدأت أقلبها .. أبتسم بين الصورة والأخرى .. هذه صورة لأُمي بجديلتين .. ترتدي زي المدرسة .. الصور باللونين الأبيض والأسود لها سحر خاص وعبير مميز .. تقف أُمي مع إخوتها أمام منزل جدي تحمل حقيبتها الجلدية .. من المؤكد أنه كان اليوم الأول في عام دراسي جديد .. ما زالت أُمي حتى اليوم تحرص على التقاط صور أول يوم مدرسي لنا .. إنها تقاليد عائلة وعلينا احترامها .. أما صور أبي .. فقد أضحكنتني حتى دمعت عيناى .. سن المراهقة .. تسريجات شعر عجيبة تتماشى مع نظارات شمسية ضخمة وطرق معقدة لوضع الشماغ والعقال .. صورة تلو الأخرى يزداد شعوري بحبي لأُمي وأبي وافتخاري بهما

كانت الصور مرتبة بعناية كبيرة وفقا للتواريخ وخلف كل صورة مكتوب عليها الأسماء والتاريخ والمناسبة .. أعلم أنني ورثت هذه الخصلة من أُمي .. بالتأكيد هي من قام بذلك ..

في ظرف من الظروف وجدت صوراً غريبة جداً.. كان رجل من البادية يجلس في خيمة كبيرة وقد ظهرت عليه هيئة الشيوخ ويحوطه العديد من الرجال حوله.. من يكون؟ ولماذا أرى الشبه بيننا كبيراً؟ طوال الثمانية عشر عاماً المنصرمة لم أر أحداً في عائلة والدي أو والدتي يشبهني أبداً.. حتى لدرجة أنني اعتقدت أنني طفرة جينية في تاريخ العائلتين.. وهاهو أمامي في الصورة.. كأنني ابتته.. يا إلهي نفس الأنف.. والحاجبين.. والفم.. والعينين.. من أنت؟ من تكون؟ ولماذا لم أرك قبل الآن؟ قلبت الصورة.. قرأت تعليق أُمي عليها: جدنا الكبير رحمة الله عليه.. شيخ قبيلتنا. ثم كتبت الاسم والتاريخ.

تمعت في باقي الصور.. كان فعلاً شيخاً للقبيلة.. كبيرها.. هذه صورة أخرى يتوسط فيها الإبل والماشية.. وصورة أخرى أمام سيارة فارهة تقف وسط الصحراء يعود تاريخها لأيام الملك عبدالعزيز رحمه الله.. وصورة أخرى يؤم بها رجال قبيلته.. كانت صلاة الاستسقاء حسب ما كتب على الصورة من الخلف.. كان مهيباً.. صارم الملامح.. قوي النظرات.. ذا شخصية فذة.. بعد تأمل طويل اكتشفت الفرق الوحيد بيني وبينه عدا كونه رجلاً وأنا فتاة وعدا كونه شيخاً لقبيلة كبيرة وأنا طالبة.. الفرق هو أنه لا يبتسم وأنا دائمة الابتسام... فكرت ضاحكة.. على الأقل بت أعرف الآن لمن ترجع جيناتي الوراثية الغربية..

أعدت الصور لمكانها بعناية وخلدت للنوم .. وأنا أفكر في لوحتي الجديدة فموضوعها بات معروفا لدي .. شكرا لك يا جد أُمي وأبي ..

سألت أُمي على طاولة الإفطار .. رأيت في عينيها نظرات الغضب .. كيف أخالف رأيها وأتسلى بالصور التي تحرص عليها كثيرا .. قال أبي ببساطة: مثلما قرأت بالضبط .. كان شيخا لقبيلتنا رحمه الله .. كبيرا بالمكانة والمقام ورجاحة العقل .. لا تنخدعي بعبوسه .. كان يملك قلبا كبيرا محبا للجميع .. كان عطوفا .. رحيما وقويا في الوقت نفسه .. منذ أن كان في الخامسة عشرة من عمره ظهرت عليه ملامح الرجولة و الفروسية .. وبما أن أباه رحمه الله كان شيخ القبيلة وبما أنه ابنه البكر فقد دربه على أن يتولى المهام كلها منذ ذلك الوقت .. وبدأ رجال القبيلة إهداء بناتها للزواج .. كان الكل يطمع أن يناسبه ويصاهره .. لم يتم العشرين إلا وكان لديه ٤ زوجات .. جدك يا ابنتي كان تاريخا .. عليك أن تفخري به دائما ..

طبعا عليّ أن أفخر به .. وأتباهى به .. فأنا أشبهه .. أصبح الآن هناك فارقان .. الابتسامة والزواج .. هو تزوج منذ أن كان في الخامسة عشرة من عمره وأنا لن أتزوج أبدا .. هو تزوج أربع مرات وأنا لن أتزوج ولا مرة واحدة .. أليس هذا ظلما .. هو رجل .. وحسب ما فهمت .. لا يعيب الرجل قبح شكله .. تعامل معه الجميع على أنه شيخ وقور كبير المكانة والمقام .. أما أنا المسكينة فأثنى .. يجب أن أكون جميلة كي أتزوج .. من

..... فنجان .. قهوة ..

سيهيني ابنه كي أنزوجه .. حتى وإن كنت شيخة لقبيلة كبيرة .. أو حتى ملكة .. من سيغامر بنسل لا يعلم ملامحه إلا الله تعالى ..

لماذا لم أخلق ذكرا؟ .. كانت فرصي لتكون أكثر بكثير .. طلبت من أبي أن أضع إحدى الصور في غرفتي .. فوافق واعترضت أمني بالطبع إلا أنها عادت ووافقت بعد أن حلفت لها بأنني سأحافظ عليها جيدا ..

منذ ذلك اليوم وصورته معلقة على جدار غرفتي .. أتأمله وأدعو له بالرحمة .. وإلى اليوم أتعجب أمام الشبه الكبير الذي تتقاسمه .. صحيح .. العرق يمد لسابع جد ..

أمسياتنا كعائلة تتميز بالهدوء والألفة .. تجلس أمني على مقعد في زاوية الصالة أمام التلفزيون .. تشاهد الأخبار أو البرامج الحوارية الهادفة على إحدى القنوات الأولى أو الثانية السعودية (في ذلك الوقت لم يكن لدينا العديد من الخيارات) .. حين ننتهي من دراستنا نخرج الواحد تلو الآخر لننضم لها ونحدث .. نلتف حولها نحن البنات فيما يحضر أبي ويجلس في صدر الصالة .. تنهض أمني من مكانها لتجلس بجانب أبي .. نلحق بها كلنا .. فكأنها البطة الأم وفراخها في الرسوم المتحركة .. بالفعل كما الرسوم المتحركة .. كنت أنا البطة السوداء في الخلف .. لا أشتكى .. إنما أقر واقعا .. ينضم لنا أخي الصغير بعد أن نرسل خلفه عشرات المرات ..

لا يريد أن يترك ألعابه.. أما أخي الدكتور فكنا لا ننتظره.. نعلم أنه في عالم الطب الذي كان نادرا ما يسمح له بالانضمام إلينا.. إلا أننا كنا كثيرا ما نقطع عليه خلوته و انكبابه على كتبه .. نعاكسه.. نمازحه ثم نخرج من عالمه سريعا قبل أن يحملنا ذنب تأخيرته عن دراسته..

في تلك الأمسيات .. نتبادل فيها الأخبار والمواضيع والكلام.. نتناقش بكل شيء .. الجميع يتحدث ويشارك.. تبدأ الأخبار.. يصمت الجميع.. فأبي كان يحب أن ينصت بعناية للأخبار وأمي تشاركه هذا الاهتمام طبعاً.. أما نحن فكنا ننتظر بملل انتهاء الأخبار لتتابع المسلسل اليومي المصري الوحيد الذي كان يعرض على التلفزيون السعودي.. والذي كنا نتعاش مع أحداثه و ننتظره بفارغ الصبر.. نتهامس فيما بيننا كي لا نزعج أبي.. إلا أننا كنا نسمع تحذيرات خفيفة من طرف شفتي أمي .. ت ت .. تنبهنا بها أن أصواتنا بدأت بالارتفاع وأن علينا خفضها.. فهما يتابعان الأخبار..

الدعايات.. قفزة كبيرة في تاريخ التلفزيون السعودي.. كنا ننتظر ظهور الدعايات بفارغ الصبر.. شيء جديد علينا.. كان من المحظورات سابقاً.. وطبعاً.. أي منتج يعلن عنه نهزع لشرائه وتجربته وكأنه من عالم آخر.. وبالنسبة لنا تكون مصداقيته أكبر بكثير من المنتجات الأخرى التي توجد بالأسواق دون إعلانات.. مع مرور الوقت زادت كمية الدعايات والإعلانات وأصبحت أكثر احترافاً وتنوعاً.. إلا أنني كنت قد تقمصت

عادة رديئة جدا ألا وهي متابعة كل إعلانات البشرة والتجميل وشراء المنتجات التابعة لها.. فأنا أولا فتاة.. وثانيا جزء يسير مني يطمح إلى بعض الجمال .. هذا الجزء الذي لم يفقد الأمل يوما بحدوث معجزة ما تحولني من دميمة إلى مقبولة الشكل ..

عندما اندلعت حرب الخليج سنة ١٩٩١ واكبها انفتاح القنوات الفضائية وازدياد وسائل الإعلام.. وبالطبع نوعيات الإعلانات عن منتجات قد تكون غير موجودة في المملكة .. ومع إدماي اقتناء كل ما هو جديد في عالم الجمال كنت أعمل المستحيل كي أشتريها و أوصي صديقاتي وصديقات أُمي.. وكلما سافر أبي أجهز قائمة طويلة بأسماء المستحضرات التي عليه جلبها خصيصا لي.. وكان الكل يرضخ لطلباتي ولم يرفض لي مستحضرا قط.. وكأنهم هم أيضا كانوا يشاركوني بكل سذاجة صلاتي الصامتة بأن تحدث المعجزة وتصبح ملاحمي في اليوم التالي جميلة.. وكأنها عصا سحرية.....

في إحدى أمسيات الرياض الرتيبة... كنا كعادتنا نشاهد المسلسل اليومي وتوقف البث للحظات من أجل الإعلانات.. حين ظهرت دعاية جديدة لمستحضر تجميل.. انتهت الدعاية.. أطلقت تنهيدة حارة.. نظر إليّ اخواتي وأُمي باستغراب.. قلت بغیظ دون أن أنتظر سؤالهن: لماذا يختارون عارضات بهذا الجمال؟ إنها حقاً جميلة.. لا تحتاج إلى مستحضرات كي تزيد من جمال عينيها أو بشرتها.. انظرون إلى قدها المياس يا عمري..

..... فنجان .. قهوة ..

وحواجبها المرسومة .. وعينيها الواسعتين .. يا إلهي كم هي جميلة .. ألا
يقدرّون أن هناك من هن أقلّ جمالا بكثير منها بل إن هناك معدومات
الجمال .. هل الغاية بيع المستحضر أم إثارة حقدي وغيرتي؟ لقد قررت ..
لن أشاهد أي دعاية بعد اليوم .. أصلا كلها كذب وافتراء ..

حين انتهيت من ثورتي .. وجدت عيونهن تتطلع لي باستغراب
ودهشة .. ولبضع ثوان كان الصمت ملاذهن .. أعتقد أنهن لم يعرفن
كيف يجبنني .. أخيرا .. قالت أُمّي بطيبتها الحلوة: بسم الله عليك يا
بنيتي ... وايش جاك؟ تعوزي من الشيطان ..

حينها أدركت كم كنت ساذجة وتافهة .. ضحكت .. وإذا بهن كلهن
يضحكن ..

فعلا منذ ذلك اليوم .. كلما أذاعوا دعاية لها أي صلة بالتجميل أشيح
بوجهي لا أريد أن أصبح ضحية مرتين .. ضحية قبح وضحية غباء ..

قبل سفري بأيام لبدء حياة جديدة في حرم جامعة السوربون تم عقد
قران أختي على أخوين في ليلة واحدة .. كانت فرحتي كبيرة .. ولكن ما
بال الفرحة تخنقني .. تقف كغصّة في حلقي ... أحاول ابتلاعها و لكن
لا فائدة ..

جلست أمام مرآتي أتخضر وألبس بعد أن أنهت الكوافيرة عملها

الصعب الذي كاد يكون مستحيلا في تزيين شعري ووجهي .. كم حاولت أن تقنعني بتنف العقدة بين حاجبي .. إلا أنني بعناد رفضت .. هل أنا مجنونة كي أتخلّى عن علامة الجمال الوحيدة؟ وفي ليلة كهذه؟ لا بد أنها تمزح .. بعد أن يئست مني .. وبعد أن أنهت واجبها .. قالت بلطف: تبدين جميلة جدا .. ابتسمت بدوري لها وقلت: أشكر لطفك .. وأعطيتها بقشيشا محترما .. يحتاج الإنسان إلى أن يسمع مجاملة مدفوعة الأجر من فترة لأخرى .. وأنا كنت بأمس الحاجة لمجاملة كهذه وإن لم أصدقها ولكنني احترمت لطفها وذوقها .. لعلها كانت تريد أن تقول إن كل ما وضعته من مساحيق على وجهي لم يذهب سدى .. تبتغي أن تطيب خاطرها هي وتكافئ نفسها على عمل خارق كهذا .. من يدري؟ مشكلتها أنها كانت تؤمن بقدراتها أكثر من معرفتي بتقاسيم وجهي ..

كما قلت .. جلست أمام مرآتي .. رفيقتي .. وصديقتي .. حدثكم عن علاقتنا الوطيدة .. مرآتي كانت تحبني .. لذلك لم تكذب علي قط .. وإن كنت أحرار قليلا بنوعية هذا الحب .. ألا يقولون إن مرآة الحب عمياء؟ لماذا لم أستطع اقتلاع عيني مرآتي طوال هذه السنين وجعلها عمياء؟ والمحبة التي بيننا واضحة وصریحة .. ولا يختلف عليها اثنان؟

لم تختلف هيأتي عن السابق .. أنا .. هي أنا .. وإن كنت تلونت قليلا .. لا أقتنع بالمكياج ولم أحبه قط .. في الحقيقة .. هذه الألوان تجعلني أشبه

..... فنجان .. قهوة ..

بالمهرج الذي يظهر بأفلام الرعب .. نهضت .. غسلت وجهي .. عدت لمراقي .. نظرت لها .. شعرت بأنها تبسم لي .. ها قد عرفتني مجددا .. ابتسمت .. ثم انطلقت للفندق كي أتابع اللمسات الأخيرة على القاعة قبل وصول الضيوف .. فقد كنت المسئولة عن كل التفاصيل خلال الحفل من تصميم الكوشة وحتى فناجين القهوة ..

عندما قلت إنني أشعر بغصة في حلقي .. لم أكن أقصد أنني شعرت بالغيرة أو بالحقد .. طبعاً لا .. لقد أوضحت أنني على دراية تامة بفرصي التي لا تتجاوز الصفر بالمائة في مسألة الزواج .. حسناً .. لأكن صريحة مع نفسي قبل أن أكون معكم .. نعم كنت حزينة لأنني لن أجلس على كوشة مزينة بزهور الجاردينيا وأنا مرتدية فستاناً أبيض أنتظر فارسي الذي سيحملني بين ذراعيه ويدخل بي دنيا جديدة كلها حب وأمل وتفاؤل .. أعلم بأنني سأكون المسئولة عن الترتيب لزواج أختي الصغرى قريباً ... ولزواج إخواني الشباب أيضاً ولن يكون هناك زواج لي كي أنسقه .. هذا ما آلمني .. وقفت في منتصف القاعة .. فوق البساط الأحمر الطويل .. أغمضت عيني بإحكام .. تنفست بعمق .. قلت بايمان قوي: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. يارب .. تم لهم بالخير واحفظهم من عيني قبل عيون الخلايق .

سرعان ما انشغلت عن وساوسي ونزلت على السكينة واستعدت نشاطي بعد أن ركلت كل الأفكار السلبية والحزينة والموجعة إلى فضاء

..... فنجان .. قهوة ..

التجاهل الواسع والرحب واستعدت منها ابتسامتي التي سلبت مني في لحظة ضعف..

أربع سنوات في باريس.. أدرس الفن.. وتاريخه.. أزور المتاحف.. أدقق بتفاصيل كل لوحة تركت طابعا على وجه التاريخ.. الألوان.. الخطوط.. الإضاءة.. لم أمل ولم أتقاعس ولم أتخاذل.. بل ازددت حبا للفن ولهفة لسبر أغواره.. كلما درست أعمال مشاهير الرسامين ازددت تعطشا لمعرفة المزيد.. وقراءة المزيد.. بحكم دراستي وتخصصي.. تعلمت الكثير عنهم... وبحكم ولعي الشخصي بتاريخ الفن.. بت كالمهوسة.. أنتقي الكتب وأحفظ قصصهم وقصص لوحاتهم.. من دافنشي.. إلى مونييه.. إلى فان كوخ.. جورج براك.. بيكاسو.. رينوار.. جوان كريس.. وغيرهم وغيرهم.. من شدة ولعي بهم.. بت أتخيل نفسي في عصورهم وأزمنتهم.. أتقل ما بين المتاحف والقصور والكنايس.. أنسج وأتخيل حوارات وقصصا تربطني بهم..

ولأن لكل مكان جماله وطابعه وسحره الخاص.. كنت أعشق قصور باريس وكنائسها أيضا.. حين زرت قصر فارسييل.. لم أكن أتخيل حجم الثروة الفنية التي يحتويها.. رسومات تغطي الجدران.. الأسقف.. اللوحات.. داخل الغرف.. كل غرفة تتسم بفن وطراز خاصين بها..

..... فنجان .. قهوة ..

غرفة الملكة .. غرفة الملك .. غرفة الاجتماعات .. فضلا عن الحديقة المتصلة بالقصر والتي تضم البحيرات والتمائيل الخلابة ..
أربع سنوات في فرنسا لم أكتف من فيها وسحرها .. مازلت أريد المزيد والمزيد ..

باريس .. مدينة النور .. (la Ville Lumière) استحققت لقبها عام ١٨٢٨ لأنها كانت أول مدينة في أوروبا تضاء طرقاتها بمصابيح تعمل بالكيروسين .. نعم أحببت باريس .. فهي منبع لأفكار تستهويني وتلمسني .. حتى تاريخها .. يوحى لي بالرومانسية والجمال .. تخيلت شوارعها ذات الرصيف الحجري الرصافي اللون .. في ذلك الوقت ليلا .. ومع هطول الأمطار الخفيفة .. وتراقص شعلات النار داخل المصابيح .. بعض المارة يمشون متلحفين بمعاطفهم ومرتدين قبعاتهم .. وفي الركن تقف فتاتان تنتظران من يقلهما ونظرة القلق في عينيها .. وفي ركن الرصيف البعيد .. تحت أحد المصابيح .. يجلس متسول وقد أسدل قبعته ليخفي وجهه المحفور ببقايا آثار الجدرى ينتظر هبات المارة .. هذه الخيالات كانت موضوع إحدى لوحاتي .. مازلت أحتفظ بها إلى الآن ..
حياة التسكع برقي .. ميزة من مزايا الحياة الباريسية .. ألبس الجينز .. يحضن رقبتى وشاحي بحنان دافئ .. أحمل أقلام الفحم السوداء .. ودفترى ذا الأوراق المتينة وكرسيا مطويا صغيرا .. وأنطلق نحو مونت مارت ..

..... فنجان .. قهوة ..

أرسم وجوه المارة وأرتشف القهوة الساخنة وأضحك مع الأطفال ..
أبادل بعض الكلمات والنكات مع غيري ممن يفترشون الشارع .. فبشفعة
الفن سطونا على المنطقة واحتلناها . وحين تبدأ الشمس بالغياب .. ألملم
أشياء القليلة وأنطلق كلي رضا إلى منزلي الصغير .. فرحة .. فقد مارست
أمتع نشاطاتي .. الرسم والتحدث بالفرنسية ..

عندما بدأت أتكلم الفرنسية .. استغربت صوتي ومخارج الحروف ..
ترددت .. شعرت بأنني أقيم شخصية جديدة .. لست أنا .. لماذا
لا أشعر بذلك حين أتكلم الإنجليزية ؟ إلا أنني سرعان ما اعتدتها و
أحببتها .. بالرغم من الصعوبة التي وجدتها في قواعد اللغة .. إلا
أنني تعلمتها بسرعة .. فقد شعرت بأنها تقربني أكثر من أبطال قصصي
الوهمية .. فرسان خيالاتي .. الرسامين على مر العصور .. الذين جعلوا
من باريس موطناً لمسقط رأس نبوغهم الفني ..

كنت أقف أمام مرآتي كل ليلة .. أدرب مفرداتي دون كلل أو
ملل .. بدأت أستمع بتقمصي لشخصيات غير موجودة .. أنسج
حوارات وأحاديث .. أفترض مواقف وأتحدث وأتحدث .. أضحك
كثيراً وأستمع بتمثيل كل الشخصيات .. وكل هذا يحدث أمام مرآتي
الفرنسية ... مرآتي الفرنسية كانت حانية .. تفتقد القسوة ... لسبب ما لم
تكن تعكس قبح ملاحي ... وقد أكون أنا التي لم أكن أنظر لانعكاساتي ..

لم يكن مهما أبدا إن كنت حلوة أم بشعة... لا فرق.. لا أهتم.. أنا هنا
لأنهل من جمال الطبيعة.. لا أن أنزف حسرة وحزنا...

بالرغم من حالة الهيام التي كنت أحيها لكل ما في فرنسا إلا أن شوقي
لأهلي كان كالهواء الذي يغذي نار عشقي للفن ليصبح سعي را.. تتأجج
الألوان على جدران لوحاتي.. لم أكن أدري أن للشوق وجوها عديدة..
شوقي لهم يتلون حسب مزاجي الذي لا ولم أضمنه أو أفهمه قط.. قد
يكون أصفر.. أبيض.. أخضر.. أو أسود.. قد يكون على شكل وردة..
قطرة مطر.. أو جدول.. قد يكون ريحا.. زوبعة.. أو إعصارا..

خلال تلك السنين التقيت وجوها كثيرة.. وعرفت الكثير الكثير من
الناس.. رأيت نوعا آخر من جمال الطبيعة.. في الرياض.. يستعصى على
البعض فهم طبيعتها.. جمال الرياض يكمن في سكونها ليلا وصخبها
صباحا.. باللون الذهبي الذي يكسو تلالها.. بنعومة رملها وحنانه..
بزهور الربيع التي تكسو صحاريها بعيد هطول المطر.. بطيبة أهلها
وكرمهم.. بالتناقض الكبير في كل زواياها.. بين الصيف والشتاء..
من درجات الغليان إلى درجات التجمد.. الغني والفقير.. تجد فاحشي
الثراء ومدقعي الفقر.. قد يكونان من سكان نفس الشارع أو حتى نفس
المنزل.. المتدين والفاجر.. ما أكثر المتمسكين بالدين و ما أكثر الجاحدين..
تجد العلمانيون والإسلاميين.. هذا هو موطن جمال الرياض.... عالم من

..... فنجان .. قهوة ..

تناقضات.. إن أردت يوما تحليل مشاعرك نحوها.. تتملكك أحاسيس بين الارتباك والتشوش و الحيرة.. تتساءل: هل تكرهها؟ تحببك نفسك أن لا.. وكيف لي أن أكرهها.. إذن.. هل تحبها؟ تقول بنفسك: لا أدري.. في لحظة أشعر بأن وجودي بها يخنقني.. يقيدني.. في نفس الوقت أشعر بأن لا حياة بعيدا عنها.. غلظة صحاريها تغدو أحضان حنان وإلهام.. كم من الشعراء أسروا أحلى القصائد في ليال توسطوا بها الصحاري وقد تجمعوا حول لهب الحطب.. ولولا حرقه شمسها لما أكلنا أطيب التمور وألذها..

كيف لي أن أستبدل بطعم قهوتنا الأصيل القهوة الفرنسية؟ لا أنكر.. القهوة الفرنسية لذيذة.. إلا أن سحر قهوتنا أقوى ومفعولها أكثر حميمية.. أتذكر حين نجتمع حول دلة القهوة وصحن التمر كل يوم عند صلاة المغرب.. كلاهما يدور دون توقف من يد إلى يد.. وتبدأ الأحاديث والدردشات.. والكثير من الأسرار.. ألم أقل لكم إن مفعولها مفعول سحر؟ ..

أكثر ما افتقدته في شوارع باريس وضواحيها.. أكثر ما اشتقت إليه.. هو سماع الأذان عند كل صلاة.. افتقدته كثيرا .. افتقدت مساجدنا ومنابرها.. كنت أحن لسماع كلمة الله أكبر..

إن عشت أربع سنوات.. أم أربعين.. إن تحدثت الفرنسية أو حتى الفلامنكية.. أو اللاتينية.. إن تسكعت بشوارع باريس أرسم وجوه

..... فنجان .. قهوة ..

الأغراب وأتقاضى عن كل رسمة بضعة فرنكات.. إن لبست قبعة الرسامين وإن اتسخت يداي بالفحم الأسود.. أبقى ابنة السعودية.. وأفخر بكل ما فيها.. وكيف لقلبي أن يتقلب في حبها حتى بات لوني بلون صحاريها؟ ولون عينيّ اكتحل بسواد ليليتها؟ كيف؟

وجودي في باريس أثار الكثير من التساؤلات من قبل زميلاتي وزملائي في الجامعة.. كنت أشعر بفضولهم .. وحيرتهم.. كثيرا ما كنت أسمع انتقادات تصل لحد الهجوم حول وضع المرأة وتساؤلات حول حقوقها..

كنت أجيّب بابتسامة بأنني شخصا أعد إجابة نفي عملية لكل ما يسمعون من قصص.. وبأن في كل دول العالم هناك فئة من النساء تكون مظلومة أو لا تعلم كيف تدافع عن حقوقها.. وبأننا لو بحثنا في المجتمعات لوجدنا فئة من الرجال أيضا مظلومة ومسلوبة الإرادة.. فهي إذن مسألة سلوك إنساني و ليست متعلقة ببلد محدد.. وكانوا يقتنعون بوجهة نظري.. ويبدءون بالسؤال عن حقيقة أننا مازلنا نتنقل على ظهور الجمال وبأن مساكننا عبارة عن خيام كبيرة.. قالت لي إحدى الزميلات: أنتم سكان الجزيرة العربية.. بدو.. لبستم عباءة التصحر.. تدرتم بها.. أصبحت أخلاقكم جافة.. وعصبيتكم صفراء.. مزاجكم مغبر.. وأرواحكم ذابلة عطشى.. نظرت لها بهدوء الصحراء التي تمقت..

قلت: كيف للإنسان أن يعمم حكما على شعب بأكمله.. بل على شعوب؟.. فقد شملت الجزيرة العربية دون استثناء.. ماهي الأسس التي أقمت عليها حكمك؟ كم واحدا وواحدة قابلتهم من الجزيرة العربية كي تستطيعي من الأصل تمثيل فكرة عن أرواحنا وأمزجتنا وعصبيتنا ونفوسنا وعاداتنا؟ هل زرت الجزيرة العربية.. هل رأيت كثبانها وتضاريسها؟ أم هل تأكلك الغيرة لأن الله استبدل بالماء البترول؟ وغمزت لها بعيني ضاحكة.. ضج الجميع من حولنا بالضحك وحثوها على الاعتراف بأنها غيرى من ثراء بلادنا.. هم لا يعرفون.. جميعهم.. كلهم.. يعتقدون أن التصحر تهمة وسب علني وجريمة.. لا يدركون أن التصحر هو رمز النقاء و الوضوح.. رمز الانتماء و الولاء.. بكل بساطة.. أضحك وأجيب.. وأتساءل بيني وبين نفسي كم أن كلمة جهل واسعة الأفق.. وبلا حدود..

كما قلت سابقا .. نسيت قبحي .. كأنها تلاشى .. كزبد البحر .. لم أعد أشعر به .. أو أراه في مرآتي .. أم هل أقول إنني ما عدت أهتم؟ لا أدري .. لم تعد تتردد في أذني همسات نميمية أو همز أو لمز .. هل يعقل أنهم في باريس يرون الجمال والقبح من منظار مختلف؟ .. احتمال!!!! المهم عندي أنني لم أعد ألحظ إشاحة الحامل بنظرها عني .. يقال إن الحامل قد تتوحم وتنقل الصورة التي تراها فيخرج الجنين شبها لما رآته الأم ..

..... فنجان .. قهوة ..

هذا الاعتقاد البعيد عن كل مبادئ الطب والذي لا يمت لعلم الجينات
بصلة أضحي معتقدا أساسيا بين النساء .. لست بالمتوهمة .. رأيتهن ..
وشعرت بهن .. وعذرتهن .. فلا أم تتمنى أن تكون ابنتها أو ابنها شعارا
لقبح متحرك... لا ألومهن ..

فترة دراستي في باريس عدتها أيضا فترة نقاهة من بشاعتي .. لقد
شفيت منها تماما .. كوني محاطة بكل ما أعده جميلا أنساني أن للقبح وجودا
أصلا .. لا أدعي أنها بلد خالي من الشوائب أو القذارة أو البشاعة ..
لديهم الكثير منها .. إلا أنني قررت رؤية كل ما هو جميل .. فقط .. أو أن
أرى موطن الجمال في كل ما حولي .. إنها قدرة جديدة على المرء أن ينشئها
ويطورها في نفسه .. إنها ملكه مريحة للأعصاب ..

أنهيت دراستي بنجاح .. ودعت شوارع باريس .. درت على كل
الأماكن التي عشقتها .. قبلتها بعيني .. واحتضنتها بذراعي الفراق ..
وعدتها بالوصال .. وددت لو أن للأماكن أرواحا .. ترى هل كانت
لتذكرني؟ بين طيات ملابسني .. في أحضان حقيبتني .. دسست ذكرى
صداقاتي في فرنسا .. أحتاج إليها معي في الرياض .. سلمت مفاتيح
شقتي واحتفظت بالسلسلة .. إنها ذكرى عذبة لرحلة خصبة ..

على بوابة مطار شارل ديغول .. استسلمت .. جررت حقيبتني ونفسي ..
حملت ذكرياتي على ساعد الرحيل .. رضخت للواقع .. هأنذا أعود للوطن ..

الوطن الذي أحب وأعشق.. إلا أنني خائفة.. شيء ما في نفسي يرفض عودتي.. فكل ما حولي هناك سيذكرني بقبحي.. سيعذبني ويكبلني.. وقد اعتدت الحرية.. حرية أن أكون قبيحة... فالقبح لا يحتمل الخيارات ولكن يفرض عليك حرية الاستسلام للواقع.. أنا قبيحة فإذا أنا مرئية...

من بين كل الصداقات .. كانت نور الصديقة الأهم.. والأوفى.. تعرفت بها في أول صيف لي في باريس.. كانت سعودية الأب .. إيطالية الأم.. والمصيبة العظمى (بنظري طبعاً).. أن عائلتها تعود لأصول هندية... ببساطة كانت كارثة جمال.. وأنا كنت الحمقاء.. كيف تعرفت بها .. كيف رضيت لنفسي أن أسير بجانبها.. وأكون صديقة لها.. ألا يشترط لديمومة العلاقات أن يكون التكافؤ إحدى ركائزها؟ معنا لم يكن هناك أي تكافؤ جمالي.. أنا وهي مثال للتناقض والتضاد.. قمة الجمال وقمة القبح.. تدركون بالطبع أي قمة كنت قد اعتليت وتربعت..

ببساطة جمعنا أقدارنا بعلاقة صداقة رائعة.. التقت أفكارنا ومعتقداتنا وأهدافنا.. كانت تدرس تصميم الأزياء في روما ونزلت في ذلك الصيف لباريس كي تحضر عرضاً للأزياء تنظمه إحدى دور الأزياء.. وذهبت بدوري لأحضره أحاول أن أنهل من كل النشاطات التي لم نعتدها في السعودية.. تطلب مني الكثير من العلاقات والاتصالات والواسطات.. فقد تبين أن الوسطة لها دور حتى في فرنسا وإن كان بشكل محدود

..... فنجان .. قهوة ..

وخجول .. كانت واسطتي علاقاتي الطيبة بكل من هم حولي وتفوقي في دراستي .. ما أبعد مفهوم الواسطة من بلد لآخر ... إننا اعتدنا استخدام الواسطة حتى وإن لم يكن هناك داع لها .. فكأنما اتباع السبل الطبيعية يعد انتقاصا لنا .. ولكن بالنسبة لحضور عرض الأزياء هذا بالتحديد كان لا بد من استخدام كل الطرق المشروعة وغير المشروعة في سبيل حضوره .. وبالفعل نتجت كل مساعي الحميدة عن توفير مقعد في آخر الصفوف .. نور (قذيفة الجمال كما كنت أسميها) كانت تجلس في المقعد المجاور .. دون عناء أو مشقة بدأنا تأسيس صداقة لم نكن نعي أنها ستكون بمنزلة صداقة عمر لكتينا ..

في مساء صيفي عندما كنا نهيم بلا هدف في الشانزليزيه قلت لها أمازحها: تدرين يا نور .. مع حفظ المناصب والفروقات التي بيننا طبعاً ... أنا وأنت هل يا ترى تأثيرنا في الشباب المتسرح على أرصفة باريس واحد؟ ..

تنظر لي نور باستغراب و تقول: كيف يعني؟ ما فهمت .. أنت بدأت مرحلة التخريف .. صح؟

أقول بجدية أكثر: لا طبعاً .. ركزي معاي ... لو مشيت أنا لوحدي مثلاً بالأول وانتي لوحدة بعدي .. ايش بيصير؟

أنا أدير الرءوس وتنطلق الألسنة بالاستغفار .. وأنت تديرين الرءوس

..... فنجان .. قهوة ..

وتنطلق الألسنة بالتسبيح .. ضحكنا معا وقالت نور بغنجها الطبيعي : الله يسامحك .. ذكرتني بالخطيئة لما هجا نفسه وما لقي أحدا يهجو ه ..

ألقيت بجسدي على مقعد الطائرة .. أغمضت عيني .. أحاول الهروب من دموع وداع حارقة .. امتزجت بدموع قلق من عودة حياة لم أستطع تخيل إطارها .. كوسيلة للهروب من مشاعر الفراق والقلق ولجت كهفا من أفكار ساخرة .. فكرت .. ترى لو أن القبح مادة وليست صفة ماذا كنت لأفعل ؟ .. كنت لأضعه في صندوق خشبي عتيق وأحملة بسلاسل من حديد و فولاذ .. وألقي به في نهر السين قبل عودتي للرياض .. أو أرميه من أعلى برج إيفل .. أو أتبرع به مجزأ (إن كان هناك من سيقبل بأخذه وإن كان مجانا) في أثناء بيعي لأثاث شقتي .. مثلا .. أشتري كرسيًا وأحصل على قنطار بشاعة مميز .. ها ها ها ..

في لحظات ضعف كهذه تنقض عليّ وحوش ثائرة ضد ملامي .. تنهشني بأظفارها الحادة دون رحمة .. تمزقني بمخالب غيرة .. تتركني حطاما على شاطئ من صخور ألم ناتئة .. محطمة الأشرعة .. مكسورة الأجنحة .. دامية القلب .. دامعة العين

اعتدت هذه النكسات .. وكنت أتوقعها من آن لآخر .. لحظات الفراق تشعلها .. لحظات اليأس تؤججها .. لحظات الوحدة تحلق بها فوق مدن

..... فنجان .. قهوة ..

من جلد الذات .. تكسوها بلهب الحزن .. تطلي شوارعها بمرارة كره و
اشمئزاز .. كنت أفر من كل هذا بالرسم .. أرسم و أرسم و أرسم حتى
الثمالة ... ولا أكتفي .. أحمل عدتي وأنطلق في شوارع باريس أستجدي
الوجوه والأماكن كي تسمح لي برسمها .. أنتظر تحرش رصيف .. دعوة
صادقة من حجر كي أجالسه .. وأجعل منه خليلا لي لبضع ساعات ...
في الطائرة .. حبيسة كرسي ضيق .. وحزام بقفل حديدي .. كيف لي أن
أهرب إلى أرصفة باريس العتيقة .. ترى إن صرخت بأعلى صوتي ألا
أريد العودة ترى هل يمنعوني من السفر؟ ولكنني أريد أن أعود لوطني
.. لبيتي .. لسريري .. لحضن أمي .. ماذا لو أجمع كل مخاوفي وأضعها في
حقيبة محكمة .. أرمي بها في الطائرة التي ستعود إلى باريس .. أعلم أن
زمام أموري بيدي .. أعلم أن شقائي و سعادتي رهن إشارة من عقلي ..
لن أسمح لهذه المشاعر بتدمير لحظة عودتي .. أعود .. رافعة رأسي ..
ناجحة .. بشهادتي .. بريشتي .. بألواني الفرحة .. بصور شروق شمس
باريس تروي خيالي بأعذب ألحان الصباح .. لأضع التفاؤل عنوانا
لمستقبل زاهي الخيالات .. ولتكن البسمات فيه معرشة كأوراق دالية
خضراء .. عنا قيد عنبها الأمل .. و ظلها الحب والفرح ..

بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا
(٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿

خفت وهلعت .. جزعت وارتعبت .. لم أرد العودة .. هأنا ذا بعد عشر
سنين أضحك من نفسي .. أفكارنا .. مصدر ضعفنا وقوتنا .. يبقى إيماننا
هو العصا التي نتوكأ عليها حين نخذلنا أنفسنا .. أكاد لا أصدق .. هل
مرت عشر سنوات فعلا؟ .. أنظر إلى لوحاتي أمامي معلقة على جدران
المعرض .. إنه معرضي الأول .. وأنا فخوره ..

من اليوم الأول لوصولي .. جلست مع أمي وأبي في آخر الليل ..
انحنيت أقبل يدهما .. أشكرهما .. بكيت عرفانا وشوقا وخوفا .. دمعت
عينا أمي متفهمة كل ما بي من مشاعر متناقضة .. تكلمنا طوال الليل ..
سمعنا صوت أذان الفجر .. توضأنا وصلينا جماعة .. انشرح صدري ..
وامتلأت تفاؤلا .. رافقني دعاء أمي وظللني دعاء أبي حتى وصلت
إلى غرفتي .. استلقيت على سريرى الدافئ .. خاطبته .. اشتقت لك ...
حضنت وسادتي ... قلت هامسة .. وأنت أيضا ... نظرت إلى مرآتي ...
استجديتها ... هلا رفقت بي يا صديقتي الصدوق ... ها قد عدت ...
ومازلت بانتظاري ... توقفي ولو لأيام عن ساديتك .. نافقيني ..
جامليني ... ارحميني ... سأحتاج إلى دعمك وكذبك علي ... أريني
جمالي ... نعم .. جمالي الداخلي ... فإنني وإن لم تدركي .. جميلة ... وجميلة
جدا .. بحكم عشرتنا الطويلة .. أطلب منك أن تري جمالي وتظهره ... ما

..... فنجان .. قهوة ..

بك تنظرين لي بإشفاق .. لا أحتاج إلى شفقتك .. ولكن دعمك ... لا أريد
أن نصل إلى نقطة اللا تفاهم ... لا أريد أن أخسر ... تعنين لي الكثير ..

أنا فتاة ثرية ... غنية .. هناك فرق بين الكلمتين ... فلدي الكثير من
كل شيء ... الأصدقاء .. الأهل .. الأفكار .. الأهداف ... الوقت ...
المال ... التفاؤل .. ما جعلني ثرية ... وفي الوقت نفسه ... فأنا في غنى عن
المتطفلين ... مدعى الثقافة والرقى ... في غنى عن الكآبة ... التشاؤم ...
الأم ... ما جعلني غنية بحق ... أري

في غرفتي ... ذات صباح بارد ... جمعت بعض ألبومات الصور ..
حملتها واستلقيت على السرير .. انزلت تحت لحافي الوثير ... جمعت
الوسادات حولي .. أزحت الستارة بيدي كي تدخل أشعة الشمس
الحانية .. إنها صوري أيام دراستي في فرنسا ... لا أصدق أن عشر
سنوات قد انقضت منذ عدت ... لا أدري لماذا كلما أعدت النظر في
الصور بكيت .. هل هو الحنين؟ أم الحزن؟ أكره نفسي ... لا أفهمها ...
لماذا البكاء ... كنت سعيدة ذلك الوقت واليوم أنا سعيدة أيضا ... مخاوفي
وقلقي من عودتي هُبت يوما بعد يوم إلى أن تلاشت تماما .. صديقاتي ..
إخوتي ... أولادهم .. أمي .. أبي ... كلهم أثروا عودتي بالحب والعطاء ...

عملت بشكل مستقل .. لم أرد تكييل هوائية ريشتي براتب ودوام
ورئيس مباشر ورئيس غير مباشر ... كنت أخاف أن تكون بمنزلة حبل

..... فنجان.. قهوة

يشنق حبي للرسم... جاءت البداية حين سمع صديق أبي بوصولي .. طلب منه أن أجهز له بعض الرسومات كي يزين بها جدران شركته... قدمت له عشر لوحات.. أخذها كلها... وطلب المزيد... من هنا انطلقت... وذاع صيتي واشتهر اسمي.. وانهالت علي العروض.. عشر سنوات لم أتوقف عن الرسم فيها... ازداد تعلقي بالرسم و بلوحاتي.. توسعت دائرة معارفي و صداقاتي.. رجالا ونساء.. كبارا و صغارا.. لم أشعر بالوحدة أبدا.. أقنعت نفسي بأن الزواج لن يكون مقدرا لي.. وتصالحت مع قدرتي الذي اعتقدت أنه جلي وواضح.. مشاعر الأمومة مارستها مع أولاد وبنات إخوتي... حتى إنهم كانوا ينادونني بهاما...

ولكن لا يعلم الغيب إلا الله... قدرتي... نصيبي.. كانا بانتظاري.. عدت من عملي.. سألت عن أمي.. وجدتها تصلي.. وقت صلاة المغرب... سلمت.. نهضت تصلي.. قلت.. السنة... سلمت... نهضت وكبرت مرة أخرى.. تساءلت.. هل تصلي صلاة الأوابين؟ ممكن؟ سلمت... اتجهت نحوها.. قبلتها... قلت.. الأوابين؟ ابتسمت وقالت: صلاة الاستخارة...

اممم إذن لديك أخبار... هيا أخبريني بكل شيء....

ترددت ثم قالت بسرعة: في عريس...

نعم... تزوجت... أنا الدميمة القبيحة البشعة المظهر.. تزوجت...
فيما تقبع الكثير من الفتيات الجميلات في بيوتهن بلا زواج... لماذا
وكيف؟ لا أدري... هل يجب أن أهتم؟ هل كل فتاة تهم بالزواج
تتساءل عن اللاتي لم يتزوجن بعد؟ لماذا أحمل نفسي عبئا كهذا؟ هل
أستكثر الخير على نفسي؟

بلا أي عيب أو نقص... هذا هو عريسي.. حسن الشكل.. حنون..
معطاء.. كريم... ذو منصب مهم..

لا.. ليس كبيرا بالسن... يكبرني بعشرة أعوام.. ولا.. لست زوجة
ثانية.. أو الثالثة.. أو رابعة.. أنا زوجته الوحيدة... حاليا... فهو منفصل
عن زوجته.. ولديه أربعة أولاد..

فرحتي لا تقارن بفرحة أمي وأبي وإخوتي وصديقاتي.. كنت أرى
السعادة في عيون الجميع... وكنت سعيدة بسعادتهم.. وكنت في
الوقت نفسه قلقة.. خائفة.. حيرى... لماذا تم اختياري من بين كل
بنات الرياض؟ تجاهلت السؤال.. وتجاهلت مخاوفي وقلقي... كنت
أقول ضاحكة لمن حولي... إنني متأكدة من أن لديه إحدى الإعاقين..
عقلية أو جسدية.. أو قد يكون أعمى؟ كنت أخفي توتري وتعجبي
تحت ستار من سخرية.. أحاول السيطرة على ارتعاش صوتي وجفاف
حلقي بضحكة خفيفة.. أهرب بنظراتي كي لا تلتقي عيناى بعينى أمي

..... فنجان .. قهوة ..

.. كانت ستقرؤني..تحاشيتها كثيرا.. وحن الوقت.. يجب أن أتعرف عليه.. أجلس معه.. أراه.. ويراني... في ذلك اليوم.. مرضت.. لا شيء يوجعني.. ولكنني مريضة.. تارة رأسي.. وتارة معدتي.. عظامي تؤلمني.. كان القلق مرضي... دق الجرس.. أغمضت عيني بشدة.. رددت الكثير الكثير من آيات القرآن... وقفت أمني عند باب غرفتي.. ابتسمت بحنان وبكثير من الثقة قالت:

يا الله يا بنيتي.. عريسك ينتظرك...

عريسي؟ ابتسمت.. نهضت.. توجهت بعد أن توكلت على الله بكل ما أوتيت من إيمان... رأيته... رأني.. نهض بسرعة واحترام.. خفض عينيه سريعا.. صافحني... أحبيته... تركت العنان لكل جوارحي.. مشاعر أنوثتي التي قمعتها ثلاثة وثلاثين عاما أطلقتها في تلك اللحظة... يحق لي الآن أن أحب.. يحق لي أن أحلم.. يحق لي أن أسمع كلاما عذبا.. يحق لي أن أشعر بدفء رجل.. أتحسس كفيه.. و ألمس شفتيه.. يحق لي أن أشم عطره وأن أذيب أنوثتي بحرارة حضوره... أحبيته من النظرة الأولى...

تفاجأت حين أخرجت أمه علبة مخملية أخذها منها وألبسني خاتم الخطبة... بهذه السهولة... أهكذا تخطب جميع الفتيات؟ ألن يكون هناك جدال حول المهر والشبكة إلى أن يتفقوا؟.. ألن تختلف أمني و أمه على مكان إقامة الزفاف.. أو على تفاصيل صغيرة قد تؤدي إلى فسخ الخطبة

..... فنجان.. قهوة

وانتهاء الحلم الوردي المسكر.. الذي تركني متخبطة في عالم الحب
والحلم.. مع فارق بسيط هو أنه ليس حلما.. بل إنها الحقيقة..

قالت أمه بكل ثقة: ألف مبروك .. طبعاً إحنا جاهزين لكل طلباتكم..
ما حنخلف أبداً.. ببتكم بنتي.. وولدي معروف بأخلاقه ومكانته.. ايش
رأيك يكون الزواج بعد أسبوعين؟

مادت بي الأرض... منذ لحظة غدوت مخطوبة وبعد أسبوعين سأكون
زوجة؟ ربي إن كان حلماً.. فلينته بسرعة قبل أن أصدقه... قوة أنامله
وحرارتهما ما زالت تشعل كفي .. ما زالت أنفاسي مأخوذة بعطره .. بالله
عليكم رفقا بي.. لم أعد أحتمل المفاجآت... سأقع .. سأفقد وعيي..
لا لن أفعلها... تمسكت بطرف رداء أمي.. نظرت لها... رأيته مبتسمة
كعادتها.. قالت: الله يتمم على الخير...

حملت صورته.. وضعتها في إطار فضي.. دخلت بها غرفتي.. ذهبت
للمرأة.. ما رأيك؟ سأضع الصورة هنا.. كي أعذبك... كي تتوقفي
عن مناداتي بالدميمة... سأتزوج وسأنجب أولادا وسأجعلهم ينتقمون
منك.. يرسمون عليك.. يقذفونك بأوراق الحلوى الفارغة.. سأعلمهم
كل أنواع التعذيب الذي يليق بك.. سأنتقم منك بكل ما أوتيت من قهر
ثلاثين عاماً.. ضحكت... لا تصدقي يا مرآتي.. كنت صديقتي الصدوق
وستظلين.. أحبك بالرغم من قسوتك...

أسبوعان لم أره فيها إلا مرة واحدة ولمدة خمس دقائق .. تحدثت معه على الهاتف عدة مرات سريعا .. فهمت منها أنه رجل كثير المشاغل .. لا يجيد كلام الحب والشوق .. ولم أكن أنتظر ذلك .. فقد همت بحبه حتى إنني كنت أسمع كلماته ألحان حب وشوق .. أرددها حين أضع رأسي على وسادتي آخر الليل وقبل أن أنام كي تكون آخر ما أفكر به .. كنت أستحبه على الكلام عن نفسه .. عرفت ما يجب وما لا يجب .. لم يتكلم كثيرا ولكنني وظفت كل قدراتي العقلية وذكائي .. كنت أحلل كلماته لأفهم شخصيته .. غرقت في هواه .. وأطلقت أشرعتي عاليا .. دون خجل أو تردد .. أريد أن أبحر وأتوغل في عالمه .. أريد أن أكون جزءا منه .. والوقت ضيق .. أسبوعان .. مضيا بلمحة بصر .. وتم الزفاف ...



أنا أسعد إنسانة على وجه الأرض .. أخيرا صدقت الحب .. كنت أعده أداة توصل المرء لمبتغاه .. كلمة بويهيمية لا معنى لها .. لكنه أثبت أنها أكثر من كلمة .. إنها حياة .. إحساس .. شوق .. تفاهم .. بدلا من أن أكون جزءا من عالمه .. غدا كل عالمي ... أدور حوله وحول كلماته وأفكاره .. تعابير وجهه البسيطة ... كم أحبها .. وجودي بات معنيا به .. متى سيصل ؟ ماذا يريد أن يأكل ؟ هل هو تعب ؟ هل يريد الاختلاء بنفسه ؟ هل أعجبه طبخي ؟ هل يحبني ؟

..... فنجان.. قهوة

كنت أعرف جواب سؤالي الأخير... لم أشعر بحبه لي.. ولكنني أشعر
بحنانه وطيبته معي.. لا ألومه حين يتحاشى النظر لي.. لا أعاتبه.. معه
كل الحق.. أود لو أقبل يديه حبا.. اكتملت به.. كلي رضا.. لا أريد
منه سوى أن يسمح لي بحبه... كان كثيرا ما يبتسم لي... ويمسح بيده
على شعري.. وحين ينزل بكفه على كتفي.. ألتصم يده بشفتي.. أقبلهما..
أغمض عيني.. أتخيل نفسي ملكة.. حينها أكون ملكة العالم بشفتي..
في الليل.. بعد أن أضع رأسي على وسادتي الجديدة.. أنظر نحوه.. أريد أن
أشبع عيني منه... لا أستطيع أن أراه.. فظلام الغرفة دامس.. ترى لم يطفئ
كل الأنوار؟ لماذا أتعب نفسي بتحليل صغائر الأمور؟ لا أريد أن أعرف...
أتجه بنظري إلى المرأة الجديدة.. لم أحبك أيتها المرأة... أفتقد مرآتي...
مرآتي حزينة.. عندما ذهبت لزيارة أهلي بالأمس.. دخلت غرفتي..
كلمتها.. ولم تجبني.. إنها غضبي... وقد تكون غيري.. غبية هي لا
تعرف أن لا امرأة ستحل محلها... أتعب من التفكير.. أنزلت بخفة فوق
الأغطية الحريية نحوه.. أريد أن أشعر بدفئه.. قوته.. حنانه.. أغمض
عيني.. تنزل دمعة رضا.. أقول بتنهد.. الحمد لله... لا أريد أن أنام...
يسرق النوم مني لحظاتي معه... أقاومه.. أطرده.. أقذف به خارج حدود
سريري.. إلا أنه عدو ضار.. يغلبني كل ليلة.. فأغفو..

..... فنجان .. قهوة ..

إنها ليلة عيد العشاق .. الرابع عشر من فبراير ... الورد الأحمر ملأ
أركان البيت ... نثرت أوراقه على درجات السلم وعلى سريرنا الزوجي ..
وأوراق الورد .. أضأت الشموع المعطرة .. حضرت العشاء .. فكرت ...
سيأتي .. لا بد أن يأتي .. لن أقوم بدور البطولة لفيلم قديم حين ينسى
البطل الموعد ولا يحضر ... نعم .. هو بطلي وحدي .. لي .. و سيحضر ..
ملأت مغطس الحمام .. تسللت داخله بهدوء .. شعرت بحرارة الماء ..
حرقنتي قليلا .. أحب الماء الساخن .. دغدغ أنفي عطر زيت الخزامى ..
لعبت بفقاعات الصابون المتطايرة .. ابتسمت .. سيكون ملمس بشرتي
كما الحرير .. سيحبه .. سيعجبه ..

صففت شعري .. وضعت مكياجى بعناية فالليلة أول مناسبة تجمعني
به بعد زواجنا ... لبست قميص نوم حريريا أحمر .. أطلقت شعري حرا
طليقا معربدا على كتفي .. بشريطة حمراء طوقته .. تعطرت .. ارتديت
ابتسامة الشوق وانتظرت ..

أمسكت بالهدية فكرت .. من قبل زواجنا وأنا أفكر بهدية عيد
العشاق .. احترت كثيرا ... من المؤكد أن لا شيء سيهره .. لديه كل
شيء .. بعد الكثير من التفكير عرفت .. ستكون ذكرى جميلة لنا معا ...
علاقنا مفاتيح .. واحدة له وواحدة لي .. من الجلد بني اللون .. سلسلتها
من الفضة وبها إطار لصورة .. طبعا صورته .. طبعا على الاثنتين .. لم أتجرأ

..... فنجان .. قهوة ..

أن أضع صورتي .. كنت أعلم أنه لن يستخدمها... لا لسبب محدد.. إنما لأننا في مجتمع لا يسمح للزوج بحمل صورة زوجته أنى ذهب.. لم أكتف باقتناء علاقة مفاتيح بها صورته.. العقد الذي أرتديه خصيصا لليوم، إطار صورته من الماس.. نثرت صورته في كل زوايا حياتي.. كما أوراق الورد الأحمر الليلة... صورته في محفظتي.. على تسريحتي.. أضعها في طيات الروايات التي أقرأها كي تصادفني ملامحه دائما.. وكأنني أتفاجأ بها.. مجرد مصادفة... ابتسمت.. فكرت...

أعظم حياة يمكن للإنسان أن يحياها هي التي تكون ملأى بالحب... صورها لا تنتهي.. جداولها لا تنضب.. أشعر بالحب كهالة حولي تضئ لي أيامي.. في كل عمل أقوم به.. حتى وأنا أطهو.. سيأكل من طبخي.. سيعجبه.. فقد أضفت له كل ما يجب.. كم أنا سعيدة..

أجهز له ثيابه كل صباح.. حذاءه.. ثوبه.. جواربه.. قلمه.. مفاتيحه.. نظارته الشمسية.. لا أريده أن ينسى شيئا.. حتى علبة دخانه وولاعته.. أنزل بهدوء كل صباح قبل أن يصحو أحضر إفطاره وأصعد به لغرفتنا.. يجب أن يتناول إفطاره في غرفة النوم.. وأنا أيضا.. أحب كل ما يجب.... حياتي كلها ليلا.. نهارا.. مساء عصر.. فجر.. غروبا.. عنوانها الوحيد.. هو.. يرتشف قهوته السوداء بعد أن ينتهي من الأكل.. يتسم لي يقول.. تسلم إيدك.. يمسح بيده على شعري.. ثم يمد يده كي

..... فنجان .. قهوة ..

يتناول علبة سجائره .. أسبقه لها .. أمد يدي بالعلبة .. أيضا بحب .. أراقبه وهو يشعلها .. أتلهف لاستنشاق الدخان .. أليس هذا دخان سيجارته .. أراقب الدخان مبتعدا .. أرجوك أيها الدخان ابق في الغرفة .. لا تهرب .. ستكون غداء ساعات انتظاري إلى أن يعود ...

نظرت لساعتي .. تأخر .. لكنه سيحضر .. الدقائق .. تخونني الدقائق .. معه تصبح سريعة .. متهورة .. تقفز فوق حواجز الساعات .. تسبقها .. وبدونه تغدو كسحابة صيف فوق صحاري الرياض ... أكاد أجزم بأن الساعة ليست الطريقة المثلى لحساب الزمن .. اليوم أربع وعشرون ساعة .. لماذا؟ ماهو الإثبات؟ دوران الشمس؟ وماذا عندما تغيب حركة القمر؟ .. وماذا عندما يغيب القمر عن السماء؟ لماذا نصدق كل ما يقال لنا؟ اسألوا السماء عن الوقت ليالي اختفاء القمر ... اسألوا الرضيع عن الوقت حين يحين موعد طعامه في غياب أمه ... اسألوا المريض عن الوقت حين يحين موعد دوائه ولا يجده .. اسألوا الأم إذا تأخر أحد أولادها عن موعد عودته .. اسألوا لوحاتي المهملة عن الوقت الذي تركتها فيه دون أن أمسها بريشتي أو أسقيها بألواني .. جفت الألوان وضاعت الريش .. وبقيت لوحاتي شامخة تنتظر .. وأنا أنتظر .. هي تنتظرني .. وأنا أنتظره .. هل ما زلتم تتساءلون عن معنى الوقت؟ إذن انتظروا .. يوما ما ستعلمون ...

كما صدقت .. وكما آمنت .. وكما أردت .. جاء .. بنظرة واحدة شمل بها الورد والشموع وأنا .. أبتسم بعدها .. كدت أطير فرحا .. أعجبه كل شيء ..

..... فنجان .. قهوة ..

أعجبتة.. اقتربت منه.. قبل جيني.. قلت هامسة.. كل عيد حب وأنت بخير.. أحاطني بذراعه.. قال: وأنت بخير.. سرنا معا نحو غرفة الطعام.. اعترتني فرحة غامرة.. وفي اللحظة نفسها تملكني خوف حقيقي.. أعلم أنه حقيقي لأنني لم أشعر به قبلا.. خوف يختلف عن خوفي وأنا طفلة من ظلام الغرفة أو من خوفي على أمي أو أبي أن أستيقظ ذات صباح ولا أجدهما.. شيء ما همس بي ... سعادتي لن تدوم.. سأفقدته. سأصحو من حلمي الواقعي.. لأجد واقعا يخلو من أي حلم.. هل باتت النهاية قريبة؟ كيف.. متى.. وأي نهاية هذه التي أتنبأ بها؟ لا يهم.. أنا اليوم.. أنا الغد القريب... أنا الحب.. أنا اللحظة المغمورة برائحة الورد والمعطرة بابتسامته.. نفضت عني تأثير قصص يوسف السباعي وإحسان عبدالقدوس التراجيدية التي تأصلت في نفسي.. وتفاءلت.. نظرت له بكل الحب.. وكان عيد حبي الأول..

كعادتي صحتو باكرا... أعددت بعض الحليب الدافئ.. وبدأت أرتشفه وأنا أنظر من خلال الواجهة الزجاجية لغرفة الجلوس.. أتأمل حركة الأشجار الهادئة بفعل نسيم الصباح.. إنها أجمل أيام السنة... شهر آذار.. حين تلقي البرودة بقبل الوداع قبل أن تسلم صباحات الرياض لأيدي الصيف الحارة.. أراقب تحركات الطيور من شجرة لأخرى بمرح... سمعت رنة هاتفه.. نظرت للساعة.. إنها السابعة صباحا.. من سيتصل به في هذا الوقت؟ ولماذا؟ لم أشأ أن أذهب للاستطلاع أو

..... فنجان .. قهوة ..

لاكتشاف هوية المتصل .. إلا أنني أدركت أن هناك أمر ما ... بعد برهة ..
اتجهت للغرفة بخطوات خفيفة .. دخلت بهدوء .. رأيته مرتديا ملابسه
كاملة .. قال على عجل .. أُمي بالمستشفى ... ثم رحل ...

شهر ونصف شهر في ردهات المستشفى .. أقبع في أركان الغرفة
الواسعة أخدمها وأطمئن على حالها ... كانت الطريقة الوحيدة التي
تسمح لي برؤيته أكثر وأكثر .. بل طوال اليوم ... أردت أن أثبت له حبي ..
كنت أتحرى ابتسامته الحنون التي كان يمنحها من وقت لآخر لإحدا ..
أنا أو أمه ... يشكرني على رعايتها ويحثها على الشفاء .. حين كنت أحصل
على مكافأتي (ابتسامته) وبالرغم من جو المرض و رائحة الأدوية كنت
أحلق بجناحين من فرح وسعادة ... أنفاني أكثر في خدمتها وبكل الحب
والحنان .. فهي أمه ... أحبها من محبتي له ...

لم تتحسن ... تدهورت صحتها .. وتعبت أنا بدوري ... شحب لوني ...
وأصبح الغثيان رفيقا لي طوال اليوم فرائحة الموت عمت المكان .. أشعر
بأنني أتنفس مرضها .. وأتقمص موتها .. ولم أحدث أحدا بما أعانيه ..
ولم يشعر أحد بتعبني .. كنت أحمد الله على ذلك .. آخر ما كنت أريده أن
يرغموني على العودة للبيت كي أرتاح ... لا أريد مفارقتة .. لا أريد الابتعاد
عنه ... وكما لكل شيء نهاية .. للمرض نهاية .. إما الشفاء وإما الموت ..

ماتت .. بكل هدوء .. بكل صمت .. لا أدري لماذا كنت أعتقد أن
للموت ضجيجا .. وأن له لونا أيضا .. فاجأتني حياديته .. لا لون ..
لا رائحة .. لا صوت .. كعادتي كنت أنام على سرير المرافق بغرفتها ..
صحوت كي أطمئن عليها .. لم يكن أحد معنا .. كانت ساعات الفجر
الأولى .. لم تكن تتنفس .. لم أصدق .. أنرت إضاءة الغرفة كلها .. فتحت
عيني بفزع ... هل ماتت؟ هل انتهت قصتها؟ استنجدت بالمرضة ..
خلال ساعة كانت الغرفة كمستودع رجال .. هو وإخوته .. باثروا
بإجراءات الاستلام والتجهيز .. انزويت في ركن الغرفة أصارع غثياني
ودموعي ... تقوقعت على نفسي ... فكرت .. حين أسلمت الروح كنت
أغط في نوم عميق ... كنت أنا وهي وهادم اللذات في غرفة واحدة ...
أقشعر جسدي .. وانهارت دموعي خوفا و رهبة وحزنا ... أبكي دون
صوت .. كطفل صغير أمسح دموعي بظهر كفي ... أشهق بين الفينة
والأخرى .. تمنيت أن تكون أُمي موجودة معي بتلك اللحظة .. أريد
أن أرمي بنفسي في حضنها .. أستسلم لعويل طويل ورجاء ودعاء بأن
يحفظها لي .. وكأنني إن تمسكت بها بقوة لن تدعني طوال حياتي ... أين
أنت يا أُمي ... وأدرت رأسي في أرجاء الغرفة وكأنني أبحث عنها ...
التقت عيني بعيني حبيبي ... قرأت ألمه ... أوجعني حزنه ... دموعه
أحرق فؤادي .. أتبكي يا أعز ما في دنياي ... هل تسمح لي بأن أمسح
دمعك ... وأحضنك ... وألثمك ... و أمسح على شعرك .. طفلا صغيرا

كان للحظة ... خفضت رأسي أهرب من عينيه .. لم أره يقترب مني ولكنني شعرت به .. شممت رائحته .. أحاطني بذراعه أخرجني من الغرفة .. همس لا تخافي .. لماذا يهمس؟ مسح يده على رأسي .. مسح دمعتي ... في تلك اللحظة وددت لو أقول له أشياء كثيرة ... تمنيت أن أبقى متعلقة بذراعه حتى نهايتي .. نظرت له بسرعة .. فتحت فمي أريد أن أتكلم ... قال لي بهدوء ... انتظريني .. حين أعود للمنزل سأسمعك حتى النهاية .. دفعني بحنان لداخل السيارة .. أمر السائق بالذهاب إلى المنزل ... انتهت مهمتي .. وعدت إلى بيتي ... كلمة واحدة فقط هي كل ما احتجت إليه ... انتظريني .. انتظريني ... وجلست أردها حتى وصلت لمنزلي أبكي ... وأبتسم ... ثم أبكي .. وأعود أبتسم ...

قال لي: انتظريني ... ثلاثة أيام مرت وأنا أنتظر ... ما بين مجالس العزاء وازدحام الناس ... الكثير الكثير من الناس .. أخذ مني التعب كل مأخذ ... حين نغلق أبواب المنزل بعد آخر زائر .. أتجه بكل ثقل .. أسحب نفسي حتى السيارة ... وأنام بعمق وكأني غرقى في بئر سحيقة ... يوقظني بهزة خفيفة ... أعذر .. يقول لي بحنان .. لا عليك .. أنت تعبى ..

أحاول أن أغسل وجهي وأبعد عني التعب ولكن سلطان النوم كان أقوى من الشوق ... وأعطى في نوم عميق حتى اليوم التالي ... انتهى العزاء ... ولملمت الأحزان ... طوينا الكثير من الآلام مع ما جمعته من حاجياتها ... صففناها بحقائب خصبنا للسلوان لم أخبركم بأن

..... فنجان .. قهوة ..

حبيبي هو وحيدها... لا أخ له ولا أخت من أمه... ولكن لديه الكثير من الإخوة والأخوات من زوجات لأبيه أخريات... واقفا بين إخوته قويا.. أبي.. لا يرف جفنه.. أعلم أنه لو أغمض عينيه لتساقط منهما دمع اليتم... أربعيني.. ويشعر باليتم! ولم لا؟ من قال إن لليتم عمرا؟

ما أشعر به من إعياء وغثيان وتعب... كلها إشارات جميلة لحلم كل زوجة.. دعوت الله أن يكون ما أشعر به فعلا إشارات حمل.. سررت لأمي... وذهبنا للطبيب.. وأكد لي الخبر... أحمل في جوفي حبا جديدا.. نبضا صادقا.. روحا عطرة... أملا أكيدا.. قطعة منه ومني.. للأبد معا... انتابتنى رعشة شديدة... حضنتني أمي.. قلت: لا أصدق.. أجابتنى أمي بقبلة حارة على رأسي ودمعة فرح سقت بها خدي.. ودعتني عند بيتي.. أعطتني الكثير من الوصايا.. انتبهي... لا تتعبي نفسك.. لا تفعلي... لا تعملي... لا ترهقي نفسك... يجب أن تأكلي... وتشربي وتنامي... و...و...و...حتى قلت لها: أمي حبيبتى.. أبي بانتظارك... وبابتسامة رضا أغلقت باب السيارة وانطلقت تدعولي...

كنت أشوق للاختلاء بنفسي... هذه اللحظات تاريخية... أريد أن أرتب أفكاري.. كلماتي... مشاعري.. أحاسيسي..

سأخبره... ولكن متى؟ سأخبره اليوم.... ولكن لم يمض على وفاة

..... فنجان.. قهوة

والدته سوى أيام.... أخاف أن ينغص الحزن سعادته... هل سيفرح؟
لديه أربعة أولاد؟ فرح أربع مرات قبلا.... لم نتكلم قبل اليوم عن
الأولاد.... لا أعرف إن كان يريد أطفالا أم لا.... ولم لا؟ لم الشك
والقلق؟ لماذا فطرنا على فرض شروط على سعادتنا؟ أنا سعيدة بطفلي..
وسيكون هو الآخر سعيدا به.... أتمنى أن تكون فتاة.... أريدها أن
تكون طفلة المدللة... أميرته... زهرة في حياته و حياتي... غمرني
رغبة كبيرة بالرسم... انطلقت لغرفة الرسم... بحثت عن قلم الفحم...
وضعت لوحة بيضاء وبدأت أخط صورة طفل.. أرسم ثنايا يديه.. أخط
أصابعه... إصبعاً.. إصبعاً... يديه... رجليه... بطنه... عينيه... أنفه
الصغير... أذنيه.. رقبته.. خديه... واكتملت الخطوط الأولى... أنا
سعيدة... سعيدة جدا...

سمعت صوت الباب... تأخر اليوم... قارب الليل على الانتصاف...
لا يهم.. المهم أنه وصل.. سأتحين الوقت المناسب لأخبره... سيفرح..
سيضمني لصدرة.. ويارك لي.. ويقبلني.. وسنقرر معا اسما يليق
بأميرتي... وسنذهب معا نشترى لها سريرها الوردى.. ألعابها..
ملابسها.. أحذيتها..

حين دخل ونظرت بعينه.. تلبكت بأفراحي.. تعثرت بزغاريدي...
مشاعري المبعثرة في كل زوايا منزلي ركضت ألاممها.. لن أخبره.. ما

زال لدينا الكثير من الوقت لنفرح .. نظرته تقول لي إنه مهموم... وإن
هناك ما يكدره... خبأت ابتسامات الفرح بين ثنايا ملاحي .. ووادت
زغاريدي تحت طيات حروف سلامي وترحيبي به... خفت أن يقرأ في
عيني ويسمع في صوتي أحلامي... همست مرحبة به... لم يجب.. بدأت
أفلق... وبلحظة نسيت الحمل والطفل والأحلام والفرح... وأضحى
تفكيرى كله به... احترت كيف أحدثه... انتقل من يمينه ليساره حيرى
... كيف استطيع أن أزيل عنه بعض ما يكرهه؟ تتم بعض كلمات لم
أفهم منها شيئاً.. اتجه لدورة المياه... كفرخ صغير يخاف الضياع..
لحقته... أغلق الباب دوني... وقفت أنتظره... طال انتظاري... مضت
نصف ساعة.. تعبت... استندت إلى الباب.. همست... آه لو تعلم كم
أحبك... جلست على الأرض أمام الباب.. لن يتأخر أكثر.. سيخرج
في أية لحظة.. الآن.. عيب أن يراني جالسة هنا.. سأسمعه حين يهم
بالخروج فأقفز واقفة... حاولت نقر الباب بخفه لعله يجيبني... لكنه
لم يرد... احترمت خصوصيته... لعله يحتاج إلى بعض الهدوء... ولكن
من يرتجي الهدوء في دورة المياه؟ .. وما دخلي أنا؟ مع انتظاري وتعبى
وفرحي وقلقي... وحلى... غفوت.. أسندت رأسي إلى الباب.. وبكل
بساطة غفوت... كدت أسقط حين فتح الباب... تفاجأ.. مد ذراعيه
القويتين وحملني بخفة.. عاتبني بكلمتين .. وضعني بالسرير .. أحكم
علي الغطاء وقال: نامي.. أنت متعبة.. ثم خرج... بهدوء... ودون أن

..... فنجان .. قهوة ..

يقول حرفا واحدا آخر... أطفأ الإنارة.. أغلق الباب.... هل ستبقى الأبواب بيننا دائما بمنزلة فواصل في قصيدة عشق من طرف واحد؟

الظلام حالك... لماذا لم تدع بصيص نور في الغرفة؟... لماذا يرتبط النور بك؟.. الآن عرفت معنى أن تكون نورا لدربي... لم أجرؤ على اقتحام عزلته ووحدته... ثبتت نظري بسقف الغرفة.. لا أرى شيئا... قرأت الكثير من القرآن.. دعوت كثيرا.. ابتهلت كثيرا.. رباه... هل تسمعني؟ ارزقني حبه.. حنانه.. فأنا أحتاج إلى كل الحب ... كل السعادة... كفاني يتم مشاعر....

نمت.. وحلمت... وصحوت... ثم عدت ونمت... وصحوت... حتى سمعت أذان الفجر... ولم يأت بعد.. مكانه في سريرنا بارد... سخيف.. نهضت بروية... توضأت.. صليت.. توكلت على الله واتجهت للباب.. فتحت به حرص وروية لا أريد إصدار أي صوت حرصا مني على عدم إزعاجه... كان جالسا على المقعد... غافيا.. وقد مال رأسه جانبا.. وملامح الإرهاق تعلو وجهه ممزوجة بحزن عميق... قرأتها في شفثيه المشدودتين وجبينه المجعد وحاجبيه المعقودين.. وقفت على بعد خطوتين أتأمله.. فكرت.. قد يكون عمري معك قصيرا.. لم نتعد الشهور.. إلا أنني حفظتك وعشقتك وأحببتك.. وهل بعد الحب شيء؟ ما الذي يشغل بالك؟ هل هو العمل؟ أم أحد أولادك لا قدر

الله؟ أم هل أكون أنا السبب؟ هل ضايقتك بشيء؟ أم أن حزنك على وفاة والدتك مازال يؤلمك؟ هل أخبرتك بأنك تستطيع البوح لي بكل ما يخطر ببالك؟ بكل ما تريد قوله؟ بكل أحلامك؟ آمالك؟ آلامك؟ هل قلت لك يوما إنني أمك؟ أختك؟ حبيبتي؟ زوجتك؟ أريد أن أكون كل النساء لك؟ هل أخبرتك بأنني أحببتك منذ الصغر؟ منذ بدأت أحلم بالحب.. منذ بدأت أشعر بأنوثتي المدفونة تحت تلال قبحي... منذ اخترت أول فستان زفاف لي بالخفاء... منذ لونت شفتي بأول حمرة شفاه أرتجي بعض الجمال... منذ بكيت وحدتي قهرا... منذ خططت أولى لوحاتي... أنت موطن ابتسامتي.. وفرحتي.. أنت مملكتي.. أنت لي عمر فرح.. ودهور شوق.. ونبع حب..

اقتربت منه أكثر.. جثوت على ركبتني.. وضعت كفي على يده أمسحها بخفة.. همست اسمه.. ففتح عينيه.. لم يقل شيئا.. نظر بعيني.. ثم أرخى نظره.. لديه الكثير ليقوله.. قل.. احك.. أفرغ ما في جيوب خاطرك على منضدة إصغائي.. أعطني بعضا من حملك الثقيل... لنضع همك على بساط سحري به ثقوب كثيرة صغيرة... سأحمل طرف البساط.. واحمل أنت الطرف الآخر.. ولنحلق به عاليا فوق محيطات النسيان... سيتساقط تباعا لتبتلعه أمواج عالية من جنود خفية مهمتها ألا تدع للهم درب عودة لدياك... سحبتة من يده أريده أن ينهض وينام.. سار معي للغرفة.. كطفل صغير... لم أره قبلا هكذا.. استسلم لأوموتي.. أحببته

..... فنجان.. قهوة

طفلا بقدر حبي له رجلا... يا طفلي ويا رجلي.. أحبك بكل أعمارك...
وضعته بالسرير.. أحكمت الغطاء حوله.. استلقيت جانبه.. أتأمله..
أحاول نبش خواطره من صمته... انصهرت حنانا وحبا.. دون أن
أفكر... مددت يدي.. وضعتها على رأسه... عربدت أصابعي في شعره
بحياء شديد.. كم أستحي منه.. من رجولته.. من صمته.. يملكني
بكل لحظاتي.. سكناتي.. مشاعري... بالرغم من هذا كله.. ما زلت
أخجل منه... تتورد وجنتاي حين أقرب منه.. يرجف قلبي حين أراه..
قرأت الكثير من القرآن.. غير تنهيدة حارقة لم يقل شيئا.. بعد لحظات
انتظمت أنفاسه ونام بهدوء... ليلة غريبة طاف بها الكثير من الأحاديث
الأحادية... أنا وحدي.. وهو وحده.. متى ستنصهر بي لنكون ثلاثتنا
واحدا.. أنا.. وأنت.. وأنت الصغرى... طفلتنا؟ أخيرا... سكنت
أفكاري من شدة الإعياء.. و استسلمت عيناى للأحلام.. ونمت
موجوعة... أوجعني همه... وأعياني صمته.. حتى نسيت أنني فرحى..
ونسيت أنني حبلى... كنت في تلك اللحظة حبلى به.. به وحده...

هل كانت بضعة أيام بلياليها أم دهورا من سكير انتظار وهيب
ترقب؟.. حاصرني بدقائقها.. ثوانيتها.. لسعتني.. أحرقتني.. جعلت
مني حطبا.. لم أعد أقوى على الانتظار.. وهو على حاله... صمت بارد..
برودة الأموات... كيف تحيا ميتا؟ لماذا لا أشعر بأنفاسك؟ أين أنت

..... فنجان .. قهوة ..

مني؟ قررت أن أواجهه.. عليه أن يعرف أنني حبل... أريده أن يفرح...
سيفرح مؤكدا... وسأخبره الليلة...

حين وصل نهضت لاستقباله كعادتي.. حاله لم يتغير.. ضائع
النظرات... بارد الأطراف... تائه الكلمات... لحقته للغرفة.. انتظرت
إلى أن أنهى اغتساله.. كنت أرتعش من داخلي.. خوفا ولهفة وقلقا...
حبا.. وشوقا وفرحا... استجمعت قواي.. تنحنحت.. قلت.. يجب أن
نتكلم... نظرت لي بعمق.. غاص قلبي بين أضلعي... هل أخطأت؟ وهل
من الخطأ أن تطلب الزوجة أن تتحدث لزوجها؟ طبعاً لا.... فاجأني حين
قال لي: بالتأكيد.... مشى متجهاً للمقعد.. تبعته دون تفكير.. جلسنا...
أمسك يدي بين راحتيه... اقشعر جسدي... لمسته تأسرنى.. ودفع
كفه يغمرنى بالسعادة... ابتسمت... أحيت رأسي خجلاً... تفاءلت
خيراً.. تنهدت... وبدأ الكلام... وأصغيت... واستمر بالكلام..
واستمر إصغائي... جملة خلف الأخرى... اتسعت عيناى دهشة مما
سمعت... وشففت آذاني غير مصدقة ما يقوله؟ هل هي هلوسات؟
هل هي أضغاث كلام؟ هل يعني ما يقوله؟ وقررت ألا اسمع... وقرر
أن يستمر... حاولت سحب كفي من يده... تمسك بها... لم يسمح لي
بيدي... كدت أقول له.. تملك فؤادي نعم... تملك جسدي بالتأكيد...
فروحك داخلي... طفلك بأحشائي... ولكن أرجوك اسمح لي بيدي..
اسمح لي بالهروب ولو لخمس دقائق... سأعود... أريد وقتاً مستقطعاً...

سأذهب للغرفة المجاورة لأصرخ... لأسكتك... لأكذب كل ما سمعته منك.... لا أستطيع أن أنعتك بالخائن... لا أستطيع القول إنك ظالم.... لا أستطيع كرهك... لا أستطيع لعنك... لا أستطيع.. لا أستطيع... أنا مقيدة... أسيرة... ذليلة... ضعيفة... والسبب حبي لك... وطفلك...

الآن أصبح لدي كل الأجوبة... الآن عرفت لماذا تزوجتني.... لماذا اخترتني من دون كل نساء العالم... لعبة كنت أنا ضحية فيها... زوجته وأمه.. القصة الأبدية.. بعد شجار كبير بينهما أقسمت الأم أن تزوجه وتؤدبها.. ورحلت زوجته لبيت أهلها.. هو وهي.. روميو و جولييت... حب أزلي منذ كانا صغارا.. ابن الجيران وبنت الجيران... منذ أن كان يقف على مدخل الحارة ينتظر قدومها والويل إن كان هناك من يتبعها... يدخل حروبا ضارية غيرة عليها... ذات يوم انكسرت يده بسبب شجار دفاعا عنها... ويوم آخر.. ويوم تال... لا أريد أن أسمع.... كل هذه قصص لا تخصني.. أين أنا في قصصك؟ هل أكون سطرًا عابرا في قطار الصفحات؟ أم جملة تصف مدى ما عانيته بعيدا عنها؟ أم أنك لن تذكرني مطلقا؟ شهور بسيطة كنت فيها معك.. حولك.. لك... فهل ستنساني؟ هل أكون في صفحات النسيان؟ هل ستشطب فوق سطوري بقلم ذاب رصاصه من كتابتك لحبك لها؟ ما دخلي أنا بقصة حبك؟ لدي قصة حبي أنا الأخرى... هل أقصها عليك؟ لا أحتاج لمعرفة شعورك نحوها... لا أريد... تجاهلتها من اليوم الأول في حياتنا... لم أسألك يوما عنها... لا

أريد أن أقارن نفسي بها... ببساطة سأخسر.. من أنا؟ ولماذا تحبني؟ كنت أعلم أنك لا تحبني... ولكن... لماذا جعلتني أحبك؟ لماذا عطفك علي؟ لماذا عاملتني بلطف؟ لماذا حنوت؟ أشفقت علي؟ طبعاً سأحبك... كيف لا أحبك وقد كنت عطشى للمسة حب وإن كانت مزيفة... كنت ألث خلف همسة حب.. أتوق لسماع كلمة أحبك... تفانيت بحبك... آمنت بأنك ذات يوم ستبادلني حبي... فمن يزرع حبا.. يحصد حبا.... أليس هذا ما تعلمناه؟ ولكن ككل دروس المثاليات والأخلاق التي لقتها في صغري تبين لي أن هذا أيضاً لا يحصل في عالمنا.... عالم الواقع... عالم القسوة... الألم.. الأنانية... لأول مرة أشعر بأن كلمة ألم لم تعد تكفي لوصف شعوري... أنا لم أعد أحس بالألم... أنا أشعر بوجع... ومن قال إن الوجع أقوى من الألم؟ لا أحد... ولا أعلم إن كان لغويا الوجع أقسى من الألم؟ ولكن هذا ما أحسه... لا أفقه شيئاً بلغة القلم فقد امتهنت الريشة..... ريشتي.. ألواني.. حتى هي... هجرتها... بالركن البعيد البارد في زوايا حياتي بجانب مرآتي تناسيتها... اعتقدت أن حياة أخرى تنتظرنني.. وكأنني تقمصت جسداً ووجهاً آخر بالبعد عنها... لماذا حملتها لعنة قبحي؟ لماذا تصورت أنني بالبعد عنها أمحو ملامح بشعي وكأنني أرسم لنفسي بريشة الوهم ملامح جميلة تكسو طبقات البشاعة؟ الآن أدركت أنني ألبست خيالاتي رداء ثقيلاً من العمى... وأن ملاحي مازالت كما هي.. و أنني لن أكون حبيبة لأحد يوماً... البشاعة والقبح

والدمامة... كلها جعلت مني سفيرة لها في عالم لا يرحم... عالم البشر... لماذا لم أخلق في المريح... أو الزهرة؟.... قد يكون هناك من يماثلني.. وقد أكون جميلة بينهم... هل بعثت للأرض خطأ؟ كيف لا وليس لي أشباه في كوكبي؟ أستغفر الله... هزرت رأسي... لا أريد أن أفكر... لا أريد أن أسمع... ما زال يقص علي قصته... يقول إنه أجبر على الزواج مني... خوفا من غضب والدته.... هل أبكي؟ هل أنوح؟ هل أمزق ثيابي وأنا أسمع كلامه؟ يقول... إنه لا يستطيع أن يبعد يوما آخر... وأنه لم يعد يقوى على غيابها.... وأنا... أنا لم أعد أقوى على الاستماع.... ما الذي تريده مني؟ ما المطلوب؟ لماذا علي أن أعرف؟ عودا كما كنتم.... صدقني.. لم أكن لأسألك؟ كنت سأقبل بغيابك... لن أحاسبك... وإن أبقيتني على هامشك كنت سأقبل.... وسأبقى أحبك... أنا أعلم بنفسى... اذهب .. عودا حبيبين.. زوجين... بأي مسمى كان.. أنت حر... وأنا سأبقى... سأكون هنا.. أنا وابنتنا سنعيش تحت ظلك... وننتظر ثمرك... ونحبك... وأعدك بأن أنسى كل ما قلته.. وأن شيئا لم يكن... أرجوك... لا ترحل...

كان مسترسلا بالكلام.. وكنت مسترسلة بالتفكير المشعث.. كلماته لا تلتقي بأفكاري... خطان عكسيان .. وكأني أرفض ما أسمعه... أعطني فتاتك... فتاتك سيصبح جوعي... ويغذي قصتي الوهمية التي عشقتها... عشقت أن أكون زوجة.. وحبيبة.. وسكنا لك... تنام

..... فنجان .. قهوة ..

بقربي كل ليلة... تخميني من ذئاب الوحدة... وما أدراك بها؟ لها أنياب
قاطعة... قاتلة... متوحشة... تفتك بكل ما هو حي... أخضر.. جميل...
أرجوك لا تدعني في صحراء رוחي وحيدة... ابق معي... وعد لها... لا
اعتراض... ولكنني أحتاج إليك... وبالرغم من كل صفاتي... أريد أن
أصرخ عاليا وأقول.. دميمة أنا.. ولكن لدي مشاعر.. لدي إحساس..
لدي رغبات.. آمال.. أحلام... احتياجات... هل فكرت يوما بي كإنسنة
بكل هذه المواصفات؟ أم اعتبرني فداء لرضا والدتك؟ وهل كنت أداة
ناجعة؟ وهل احتسبت إنسانيتي بمعادلة الرضا؟ وهل كانت مشاعري
ضمن حسابات انتقام والدتك من زوجتك؟

مد يده لكوب الماء.. رشف رشفة صغيرة.. وقال: أنا أحبها.....
ودمعت عيناه....

أتبكي؟ أتبكي من أجلها؟ وأمامي؟ هل تعي ما تقول؟.. وما تدمع؟
وما تفعل بي؟ نهضت من مقعدي حضنته... بكيت معه... كان يبكي
عشقا وكننت أبكي فراقا... همست.. لا تبك... عد لها...

قال متمتما: لا تكرهيني.....

نظرت له.. تركت الحديث لعيني... أعلم أنك تجيد قراءتي... كيف
لي أن أكرهك وأنت حبي الوحيد.. ثمرتك في أحشائي.. سأظل أحبك
ما حييت... أنت أصدق وهم في حياتي... وما يهملك إن كرهتك أو

..... فنجان .. قهوة ..

أحببتك؟ هل تهمك مشاعري؟ قل نعم؟ يكفيني ذلك... هل يعني لك
إن كرهتك؟ هل أدركت حبي لك؟ لا تخف... لن أكرهك.. لن أقوى
على تدمير ذاتي...

أمسك كفي قبلها... ارتعشت... لمستك كنسمة صباح تقبل ورقة
على غصن ظمئ... راقصني على إيقاع أنفاسي.. أحاول اللحاق بك
فتسبقني... أتعب ولا أياس.. نسيم عطرك سكن لأوجاعي... قلت
هامسة.. سأحبك أبد الدهر... قال ودمعه على وجنته:
أنت طالق.....

شعرت بغثيان... انهمرت دموعي... شهقت... ابتعدت... وما هذه
الدمعة التي على خدك؟ أياكون مؤخري دمعة يبخرها دفء حياتك معها؟
قلت مذهولة: أنا حامل....

لم تكن تلك خططي.... لم أكن لأعلن عن طفلنا القادم بلحظة ستبقى
مرارتها في أقداح أيامي

رأيت الدهشة والحيرة والخوف والغضب والخيبة تترج في ملامح وجهه
... تصلبت تعابيره... ولم تكن الفرحة ضمن أعاصير المشاعر التي اقتلعت
من عالم الحب الذي يحياه.. ارتطم بأرض الواقع..... نظر لبطني... ألا
تصدق؟ هل فاجأتك؟ كنت أقصد مفاجأتك؟ كنت أريد أن تكون مفاجأة
سعيدة.... حلمت وانتظرت كثيرا كي أخبرك .. اعذرني إن.....

..... فنجان .. قهوة

قطع أفكارى... قذف بكل ما كان يدور في رأسي من كلام في عرض
بحر ذهول... ورحل....
رددت كمجنونة:

أنت طالق... أنا حامل.... أنت طالق... أنا حامل....
وقعت أرضاً يأساً وإعلاناً بأنها النهاية...
أكانت النهاية فعلاً؟ أبداً.. بل كانت البداية... وأي بداية؟... بداية
لقصة حب جديدة في عالمي البسيط... أنا كما أنا.. ما زلت.. وسأبقى...
عطشى للمسة حب.. لنظرة اشتياق لهمسة وله... لقلبة عشق...
تمنيت حبا غير مشروط.. حراً... طليقاً.. له أجنحة من أحاسيس و
قلب من صدق...

هل انهرت؟ هل بكيت؟ هل انعزلت بغرفتي؟ هل تمنيت موتي؟ نعم...
تشرنقت بكل هذه المشاعر.. تكفنت بها.. وجعلت من غرفتي قبرا كئيبا...
يحاذي ملامحي.. ويليق بها.... كانت صدمتي أكبر مني لم أرض
بواقعي.. ولم أقو على مواجهة الحياة... توشحت بالسواد.. عدت لبيتي
... غرفتي.. مرآتي... أغلقت الباب.. رفضت الكلام.. الطعام... رفضت
العالم... كرهت العالم... كل شيء أتذوقه يغدو مرا... كل ما أغمض عيني
أرى أشباحا وسوادا وأمواتا... حتى أحلامي باتت كريمة...

حين تركت بيتي... انهارت بداخلي مدن الأحلام... وعلى عويل
ذئاب الوحدة... فأعماني... ثم أصممني.. وبلحظات.. فقدت حواسي
كلها... لا أرى.. لا أسمع... لا أتكلم... لا أتنفس... لا أعيش... ولم
الحياة؟ وكيف أحيا؟ ولماذا؟ وماذا أرتجي؟ ولم أطلع؟ باتت كل المشاعر
صماء... لا ردة فعل لأي فعل... لا أمان.. لا راحة.. سريري أشواك
من وحدة مسننة ووسادتي تفوح منها رائحة دمامتي... بقايا عطري
العذري ما زال يغلفها.. ذكرياتي مجلدات تكسو جدران غرفتي...
حتى مرآتي... لم تعد تعكسني... صوري غريبة... وأنا غريبة.. ودنيا
غريبة... حاسبت نفسي حسابا عسيرا.. عاقبت نفسي على دمامتي..
أمسكت بشفرة حادة.. قربتها من وجهي... وددت لو أقطع ملاحي
جزءا جزءا.. لن أتألم... بل سأفرح... سأتلخص من سبب شقائي... هل
أبدأ باقتلاع عيني... أم بجز أنفي... أم بفرم شفتي... قد أصبح جميلة
دونها... قد أصبح حبيبة أحدهم.... أو هل أقطع عروق الحياة عندي
..لأذرف دمي مع دمعي وأودع حياة كانت من اليوم الأول للآخر
معاناة وألما وقهرا وذلا وحرمانا؟... وضعت الشفرة على رسغي...
ضغطت عليها... فكرت... أين؟ على السرير؟ في دورة المياه؟ أم أمام
مرآتي؟ أريدها أن تشهد أمام الناس ويوم الحق أمام الله بأنني تعبت..
أرهقت... وبأنني أحتاج الآن للراحة... سأتلخص من قبحي.. ومن
احتياجي للحب... ومن وحدتي... توجهت للمرأة.. تحاشيت النظر

..... فنجان .. قهوة

لها.. لا أريد رؤيتي... أكرهني.... جلست على المقعد.. ورأيتني...
حزنت على نفسي... حتى أنا أكره شكلي.. فكيف بباقي البشر؟ سقطت
الشفرة من يدي.. وبكيت.. وبكيت.. وبكيت... أستغفر الله.. أعود
بالله من الشيطان الرجيم... توضأت... افترشت سجادتي.. صليت...
وكلما سجدت ازداد بكائي... أفقدته... أحن لصدى صوته.. بقايا
عطره... أبحث كالمجنونة بين طيات ملابسني عن شذاه.. فتشت عن
أي أثر له.. لم أجد شيئاً... كم يعذبني حنيني... حبي.. احتياجي...
ابتهلت في صلاتي... رجوت الله أن يعيدني لصوابي... قررت ألا أنهض
من مكاني حتى أنهى عذاباتي...

ولدت من جديد... ليست معجزة.. وليست أعجوبة... ولكنني
أقوى مما ظننت... ما عانيته في حياتي أمدني بقوة وإيمان ليس لهما
مثيل.. القدرة على البقاء.. كنت أعني بأن لكل شيء حداً وقد وصلت
لأقصى حدود الانهيار واليأس... انتهت مدة الحداد على نفسي.. بكيت
وتألمت.. أحبه نعم.. لا أريد أن أنساه.. ولا أريد كرهه.. ذكره في نفسي
وفي جسدي وفي كل أركانني... سأراه أنى التفت... وإن رحل.. وإن
هجر.. وإن نسي... سأبقى.. فهو حقيقة في حياتي وليس مجرد طيف...
خرجت من باب غرفتي... صمت يلف المنزل.. حزن يغلف وجوه
الجميع.. حتى الخادومات كن يعملن بصمت... يتكلمن بهمس...

..... فنجان.. قهوة

ابتسمت.. اتجهت لأمي.. حضنتها.. قبلت يدها.. رأسها... قلت لها.. الحمد لله الذي رزقنيكم.. بكى الجميع.. تقدم أبي... اتجه نحوي حضنني بكل حب العالم قال لي: اطلبي ما شئت....

زوجي قالها لي أيضا... نفس الكلمات.. اطلبي ما شئت.. أنا رهن طلباتك... سأحقق لك كل ما تريدينه...

هو وأبي لا يعلمان أن طلباتي أصعب من أن تحقق... وأصعب من أن أطلبها... المشاعر لا تطلب.. فهي غير متوافرة في الأسواق.. أو الحوانيت... أو عند بائعي الأرصفة... لا تكتب مع باقي طلبات المنزل.. لم أرها قط في قائمة أُمي الأسبوعية... أرز.. طحين... بقدونس... حب... شوق... هيام... ولع...

شوقي لك وحببي لك يسيران... أريد أن أطوف بكل الأماكن التي جمعتنا معا لآخر مرة... طفت شوارع الرياض.. دخلت بهو فندق كبير جمعنا أول أيام زواجنا صباحا وتناولنا قهوتنا به... اخترت مقعدا منزويا... جلست... فكرت...

أجالس أريكة وطاولة.. في بهو أنيق.. وفنجان قهوة باردا... ومزهرية بوردة حمراء وحيدة... أبحث عن عطرك.. عن نسائم رجولتك.. أحرك أصابعي بخفة.. أتذكر كيف داعبت شعرك ذات ليلة.. أنظر في وجوه الندل... في عيونهم... ألا تتذكرونني؟... كنت هنا... معه.. جلست

..... فنجان .. قهوة ..

على تلك الأريكة.. حضنتني نظرتة والوسادة المخملية.. أميل برأسي...
أداعب أذني حياء.. في تلك الليلة همست له... أحبك... وبتلك المشاعر..
ابتعت حياة... بنيت قصورا من عشق... وضعت أطفالا من شوق...
وانتظرت... ومنذ ذلك اليوم وحتى اليوم وأنا أنتظر... اليوم... هدمت
القصور.. هجرت الشوارع... كبر الأطفال... وطارت العصافير...
ومازلت أنتظر في مملكة مهجورة... ملكة مكسورة... وحلما ضبابيا بأن
تعود ذات يوم كي تروي ينابيع الحياة وتسقي جرار الورد... ولكن لا...
أريد أن أكون سيدة لنفسى من جديد.. فحبه أفقدني القدرة على التحكم
في ابتساماتي.. فرحي... سعادتي.. أصبحت كلها مشاعر وأحاسيس
مربوطة به بعد أن غدا مصدرا لكل فرح... حين لفظ كلمة طلاق.. وقع
لي تنازلا عن حقي الشرعي في اختيار مشاعري..

وهكذا الملمت شتات نفسي.. وعدت لعالمي...

جندت الوقت ليكون حليفا لي مع معركتي ضد آلام نفسي...
وانتصرت... بهت كما تبهت النقوش على جدران الزمن... صحوت ذات
صباح... أبحث عن إحساسي بك.. عن مشاعري المرتبطة بك... كيف
سلوتك؟ لم تعد راحة يدي تنادي حرارة كفك... لم أعد أنتظر حضنك...
حين أقشعر بردا... أبحث عن غطائي الوثير... ترى أين قطعت تذكرة
الذهاب بلا عودة؟ متى تركتك ترحل؟ متى أصبحت لا أهتم؟ أفتقد
افتقادك.... أتمنى اشتياقك... حين انصهرت بك.. أضعتك.. بدأت

..... فنجان .. قهوة ..

ألفظك عضوا تلو الآخر .. لا أريد أن نكون شخصا واحدا... بعد أن هجرني وتركتني .. وأنا أبى الخذلان... كن شخصا رائعا... حبيبا سابقا... ذكرى عطرة... لا أكثر.. فكياتي.. أحاسيسي... شوقي .. انتظاري.. كلها حقوق أريد امتطاء صهوتها في ميدان حياتي... وإن كنت ملكة معزولة في مملكتك.. فأنا الملكة المتوجة على عرش حياتي... ..

تذكرت كلمات أحلام مستغانمي...

أيها النسيان.. أعطني يدك ..

كي أسير في مدن الذكرى معك...

تحققت أمنيته.. واستجاب الله لدعائي.. وحانت لحظة الولادة... نور ملأ زوايا نفسي .. طفلة كما تمنيت .. بكيت فرحا.. حبا.. ولها.. أمسكت يدها الصغيرة قبلتها.. حضنتها.. دقت في ملامحها أبحث عني... نظرت لأمي برجاء... قلت: استحلفك بالله هل تشبهني؟

تشبهه هو فقط.. كم كنت أحبه.. وكم أحبها.. حبي الأول وحبي الأبدى .. ذكرى ومستقبل.. كلها اجتمعت بها... هو وهي سيقيان معي دوما.. نبعلا لا ينضب من ذكريات وحب وشوق ...

أخيرا سأغدو جميلة دون استثناءات.. دون شروط... دون انتقادات.. ستحبني ابتني وستراني أجمل نساء الكون.. كما أرى أُمي .. يا أجمل

..... فنجان .. قهوة

لوحاتي... من اليوم أعلن رسميا جمالي المطلق.. أنا حلوة شاءت الدنيا
أم أبت.. شاءت البشرية أم اعترضت..

معك يا صغيرتي ولدت من جديد.. بك اكتملت... من أجلك سأبدأ
مشوار حب موقفا... أزهرى.. أثمرى... فأنت الخير .. والجمال ...
أنت الحقيقة.. أنت الغد... أنت الحب..

January 2011 6

Beirut

Grand Caffé



لن نلتقي

أنا في أقصى الشرق..

وأنت في أقصى الغرب..



- البيروقراطية... قالها وأتبعها بصمت مقصود متفحصا بنظراته العميقة تأثير رأيه في ملامح وجهها...

قالت متعجبة: البيروقراطية؟ هل أنت متأكد؟ أعني من بين كل الأسباب الاجتماعية والمادية والثقافية وجدت أن البيروقراطية هي السبب الأول لوجود تجار المخدرات والعصابات والبلطجة؟ كيف؟ وتذكر أنني من المؤمنين بالبيروقراطية..

ضحك ضحكة قصيرة وقال: لم أنس للحظة.. بل إنني معجب بثقتك وإيمانك بها..

لكن دعينا نفكر بصوت عال.. لسن أي قانون أو تشريع أو إصدار أي قرار إداري مهما بلغ سخفه أو إدراج اختراع عبقرى ما.. أو لالتحاق بوظيفة.. أو حتى لطلب إجازة من العمل.. يجب أن تمر بخطوات مملة قاتلة.. مما أدى إلى لجوء شريحة لا تؤمن بهذا النظام إلى طريق أسهل.. بلا معاملات ورقية أو قرارات منع أو رفض.. مثلاً.. أيهما أسهل؟ تأسيس عصابة أم تأسيس شركة؟

ردت بدون اقتناع وامتناع: طريقة تفكيرك اليوم غير سوية.. لا أريد متابعة الحوار...

..... فنجان .. قهوة ..

قال ضاحكا: اصبري قليلا.. ليس من حقك إنهاء حوار فقط لأننا مختلفان في وجهات النظر..

قالت عابسة: ليس مجرد اختلاف .. بل تضاد.. أنا في أقصى الشرق وأنت في أقصى الغرب.. لن نلتقي في منتصف الطريق.. أنا أرفض وبشدة أن أصغي لما تقوله...

قال لها بابتسامة خبيثة: يهيا لي أن رفضك القاطع ناجم عن خوف...
قالت مدافعة : خوف مم؟

قال: جزء منك يتفق معي لكن لأن طبعك الوفاء بمعتقداتك لجأت لإنهاء النقاش..

- أممم.. تعمل الآن محللا نفسيا... تريد أن تؤثر فيّ .. توهمني بما تريد فأصدق.. لست ساذجة يا عزيزي....

تضحك بنعومة .. تشعر بالانتصار.. قالت: طبعك الوفاء بمعتقداتك... استخدامك لأسلوب المدح كي تخرجني برقيك و أسلوبك.. لكن لن أغير رأيي .. البيروقراطية يا عزيزي نظام كأي نظام موضوع.. له حسناته وسيئاته.. علينا نحن البشر اختيار ما فيه مصلحتنا والعمل به... اختيار تجار المخدرات وأفراد العصابات هذا الطريق ليس بسبب البيروقراطية وإنما لأنهم ضعاف الهمة.. لا ينتمون إلى قانون أو عرف إلا قانون النفس وعرفها.. على مبدأ أنا وما بعدي الطوفان..

غايتهم الربح السريع ومنهجهم نيروني صارخ.. ليحترق الجميع والكل كي أحقق أرباحا مادية وسلطة مهيبة.. و الدليل على ذلك... كيف يحمي تاجر المخدرات أبناءه من هذه الآفة؟ كيف يبيع السم وليس لديه ترياقه؟... هذا الموضوع يكهرب أعصابي ويشنجنني.. وتأتي أنت ببرود أعصاب تجعل من نظام لا حول له ولا قوة السبب في وجود المجرمين في مجتمعنا... يا عزيزي العيب ليس في النظام ولكن في تطبيقه.. نحن البشر نحتاج للأنظمة.. طبعنا أهوج.. لا نحب القوانين.. فوضعنا العقوبات.. نحاول أن نسيطر علينا.. ولا فائدة.. بذور الشر خلقت في نفوسنا مع بذور الخير.. نبتنا منا الصالح ومنا الطالح...

لماذا لا يكون سبب وجودهم هو قلة صبرهم؟ قلة إيمانهم؟ قلة اهتمامهم بالغير؟ أنايتهم؟ مشكلاتهم النفسية والاجتماعية؟ الأسباب كثيرة.. لكن تبقى حقيقة واحدة.. هي أنهم اتخذوا قرارا بفعل الأخطاء.. وعملوا على نشره.. بل قد يستمتعون بنتائج شرهم... بنظري هم فئة لا عذر لهم على أفعالهم مهما تكن المسببات...

قاطعها قائلا: المجتمع والقانون والعرف كلها اجتمعت على تجريمهم ووضع العقوبة الرادعة لهم.. افهميني.. أنا لا أدافع عنهم.. ما أقوله هو أن الأنظمة الموضوعه المعقدة و الروتينية والمملة سهلت استهداف قليلي الصبر وفقيري الموارد وضعيفي النفوس.. لا أكثر..

..... فنجان .. قهوة ..

قالت وقد سرح بصرها: هل تعلم أن زعماء العصابات ثروة وطنية؟
ضحك قائلاً: أفيديني..

قالت: لا تستغرب.. أن يكون للزعيم القدرة على ضبط جماعة نفوسهم تجاوزت خطوط الأخلاق وقيما ومبادئ تعارف عليها الناس.. أن يخطط ويأمر وينزل عقوبات وقد يرحم البعض.. أن يوزع مهام ويتابع تنفيذ عمليات غير مشروعة وفي الوقت نفسه يستطيع الهروب من الجهات الأمنية.. وفوق كل هذا.. تراه منعماً في حياته مستمتعاً في أمواله التي هي حصيلة لأرواح ومستقبل وصحة الكثيرين.. صغاراً.. كباراً.. شباباً.. رجالاً.. نساء..

هذا المجرم.. إن استطعنا استثمار قدراته الإدارية وتحويل فكره الإجرامي إلى إصلاحى لكننا بأحسن حال..

قال مقاطعاً: بالضبط.. هذا ما أعنيه.. وجود الأنظمة يعيق هذا الفكر... وإن كان تجار المخدرات وزعماء العصابات اتخذوا النظام البيروقراطي في معاملاتهم لاندثرت هذه المنظمات وغرقت تحت تلال من الملفات الإدارية والتوقيعات والأختام (ضحك.. ثم تابع) تخيلت المشهد.. لم لا نكون بذكائهم ونلغي نظام الهرمية والعلاقات الشخصية والمعاملات الورقية التي أثبتت عدم جدواها بل أثبتت تأثيرها السلبي في سرعة إنجاز المهام والتطور.. برأيي نحن متفوقون..

..... فنجان.. قهوة

قالت باستغراب: اتفقنا على ماذا؟ ألا نتفق مثلاً؟ أنت تدعو
لأنحلال الأنظمة .. تدعو للهمجية في دوائر الدولة.. لسيطرة القوي
على الضعيف..

قال لها بسرعة: اتفقنا على أن الأنظمة يجب أن توفر السبل لاستثمار
هذه الفئة بدلاً من محاربتها.. لكن اسمحي لي أن أسألك: ألا توجد
غوغائية وهمجية وتجاوزات واستثناءات في الأنظمة الحالية؟ ألا توجد
محسوبة؟

قالت: نعود لنقطة البداية.. السبل متوافرة يا عزيزي.. منذ ٤٠٠٠
سنة.. منذ الحمورابي... سُنت القوانين ووضع نظام الجزاء والعقاب
وتطور هذا النظام وأصبحت هناك الإصلاحات والسجون والمراكز ..
لكن يبقى في النهاية قرار الإنسان نفسه.. أكون شريراً أم شخصاً صالحاً؟
- وماذا عن الظروف؟

- لو توقفنا عن لوم الظروف وركزنا على إيماننا بالله وعلى العمل
الصادق فلن نحتاج لشماعة نعلق عليها ميولنا الإجرامية..

كل ما ذكرته طبعاً موجود.. نحن في النهاية بشر.. لكل منا نقاط
ضعفه.. من أحد أشكال الابتلاء هو عندما نكون في مواجهة مع نقطة
ضعفنا .. حينها قد تتزعزع مبادئنا.. وقد تنهار مفاهيمنا..

..... فنجان .. قهوة ..

نقول فلان لص لأنه تعرض للقهز وهو صغير.. فلان مغتصب لأنه تعرض للاغتصاب .. فلان مدمن لأن والديه انفصلا...لماذا؟ لماذا نستخدم أعدارا نفسية تعرض لها الكثيرون.. منهم من غدا خيرًا ومنهم من أصبح مأواه السجون؟

يتعذر اللص بقول.. إن لم اسرق فسيموت أولادي جوعا... وأقول بكل ثقة... لن يموت أحد جوعا.. الموت والحياة بيد الله.. اعمل.. اجتهد.. توكل على الله..

كم من شخص فقير تراه مدخنا؟ ألا تلاحظ ذلك؟ حسنا.. بدل من حرق قروشك ورثتيك اشتر رغيف خبز.. كراسة فصل.. قلم رصاص ومحاة...

- أشعر بالقسوة في كلامك.. ولم أعهدك قاسية..

- أبدا.. ليست قسوة.. أريد أن أصرخ قائلة.. قد يكون طريق الشر والفساد والحرام سهلا.. لكنه مدمر للنفس والمجتمع والقيم..

- لا يتشارك الناس المنطق عينه... للأسف.. قد يكون الإجرام منطقا عند المجرم.. والفضيلة ضعفا.. والتسامح رهنا بمنفعة.. كل القيم والمبادئ عرضة للتحريف.. كل يستخدمها حسب غايته..

- أتفق معك..

قال ضاحكا: أخيرا ..

ضحكت ثم نهضت من مكانها قائلة: حوارنا ..

- ما به؟

-مكرر.. مستهلك.. وسيجريه غيرنا كثيرا.. لكن أعتقد أنه ما دام
هناك من يتساءل ويتحاور فسنكون بخير... لأننا سنعمل ما هو الأفضل
لأولادنا وعالمنا...

-صحيح...

لكن إلى أين أنت ذاهبة؟

قالت وهي تغمز بعينها: ما رأيك بفنجان قهوة مضبوط؟

ابتسم بحب وقال: للمرة الثالثة.. أتفق معك...

لا
معه
معه

عشق زجاجة

أقف على تلال عمرى.. أرى سورًا يفصل بينى وبين أعدائى

المرض.. الخوف.. القلق

2002



2002 / 01 / 11

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

رددتها مذعورة.. أشعلت المصباح الجانبي .. جلست .. مررت يدها
على شعرها.. استيقظ زوجها.. سألها بقلق: مابك؟

- حلم بشع .. حلمت بأن مرض السرطان ظهر من جديد .. وأنني
أتعالج منه .. وأن شعري تساقط كله.. كنت أبكي بكاءً مُراً .. وكأن الأمر
واقع وليس حلماً.. كمية الحزن والألم في الحلم كانت عميقة وكبيرة..

- أضغاث أحلام إن شاء الله.. غداً نتصدق بما تيسر لعل الله يبعد
عنك المرض يا حبيبتي..

- إن شاء الله.

لكل ما يصيبنا حكمة.. وسبب.. وجزاء.. وبحكم إيماني العميق
بحكمة الله وسخاءه.. كنت أقوم بدوري في هذه الحُكم .. فأتجنب
أسباب المرض.. لا تدخين.. رياضة.. أكل صحي.. شراب الزنجبيل..
الماء والليمون.. الخضار والفواكه.. كلي ثقة بأن اجتنابي كل ما هو مضر
بالصحة سيحفظني من المرض بإذن الله...

في غرفة الانتظار بالمستشفى.. وفي قسم الأورام.. جلست أنتظر

..... فنجان .. قهوة ..

دوري بطمأنينة .. علا صوت الشاشة المعلقة في الجدار معلنا نداء رقم
المريضة التالية .. ها هو رقمي ..

دقائق سريعة مع الطبيب خرجت بعدها من العيادة سعيدة كالعادة ..
فقد طمأنني بأنني في حالة ممتازة، وأن السرطان ماض لن يعود .. خمس
سنوات مضت منذ إصابتي الأولى .. كزلزال أصاب حياتي .. لكن برحمة
الله لم يدمرني .. خسرت صدري الأيمن وأجريت عدة عمليات تجميل
كلها باءت بالفشل .. ست جرعات من العلاج الكيميائي و خمسة
أسابيع من الإشعاع .. كلها كفيلة لحصد كل خلية لئيمة من جسدي ..
ومع الأيام شعرت بالأمان منه .. لن يرجع .. قضينا عليه للأبد ..

عند الاستقبال وقفت أنتظر دوري كي أسجل مواعيدي القادم مع
الطبيب بعد ستة أشهر كما جرت العادة ..

وقفت بجانب فتاة جميلة كانت تنظر إليّ مبتسمة .. ابتسمت لها
بدوري .. قالت بخجل: اسمي كاسمك ..

أجبتها بصدق: أتمنى أن يكون لك نصيب من اسمنا وتكون حياتك
عنوان للسعادة والرخاء .. أنا حصلت على نصيبي من الاسم .. وغمرت
لها بعيني وأنا أبتسم ..

قالت: أعتقد أن طبيبك هو طبيب والدتي .. وأشارت بيدها نحو امرأة
تجلس على كرسي متحرك تنظر نحونا مبتسمة ...

..... فنجان .. قهوة ..

نادت اسمي موظفة المواعيد.. استأذنت من الفتاة واستلمت ورقة الموعد ... وجاء دورها بعدي.. أو مأت لها برأسي وابتسمت لها وهممت بالرحيل .. إلا أنني بدلا من التوجه لباب المصعد المؤدي إلى بوابة الخروج من عالم الأورام اتجهت للأم..

- السلام عليكم أم رعد..

- وعليكم السلام ورحمة الله..

- بارك الله لكي في ابتك رعد وشفاك الله وعافاك.. كنت أتحدث مع ابتك وأحببت أن أسلم عليك وأتمنى لكى الشفاء والعافية.

- جزاك الله كل خير يا غالية... أنت أخبريني ما هو وضعك مع المرض؟ ومتى أصبت به؟

- ٢٠١٢

- أنا أيضا ٢٠١٢ وكتب لي ربي الشفاء

- هذا من لطف الله وكرمه .. الحمد لله ربي كتب لي الشفاء أيضا

- لكن رجعت المرض الآن وبقوة.. يعاندني.. (ضحكت) فاجأني بانتشاره بالعظم والكبد.. لم أعد أقوى على المشي..

- أسأل الله أن يشفيك شفاء لا سقم بعده.. عزيمة بقوتك وابتسامتك الجميلة.. حماك الله وحفظك من كل شر..

..... فنجان .. قهوة ..

جاءت رغد الجميلة.. قالت: هاهي المواعيد كلها.. الإشعاع والإشاعات ولم يبق إلا أن نذهب لنستلم العلاج من الصيدلية..

قلت: لن أعطلكم.. بارك الله فيك يارغد.. وبارك في والدتك..

ابتسمت بخجل وقالت: أطل الله في عمرك وعمر أمي وشفاكم من كل شر..

قالت أم رغد: أحبتك كثيرا.. وأحبيت بساطتك وابتسامتك التي تدعو للتفاؤل.. سجلي رقم هاتفي كي نتواصل بإذن الله..

تبادلنا أرقام التليفون وافترقنا...

عابرتا سبيل.. وجهان جميلان.. نفسان راضيتان... مصادفة أضافت لي الكثير.. سمو روحي تربع على عرش الرضا وعباءة نسجت من خيوط الحظ.. غلفتني كشرنقة تحول بيني وبين المرض.. وتضخم إيماني بالله.. وبالقضاء والقدر ليحتوي قلبي وعقلي وأشعر باستحواذ خشية الله ومهابته على كل تفكيري..

خارج بوابة مبنى الأورام عالم يختلف عما بداخله.. عالمان منفصلان عن بعضهما تصل بينهما جسور الصبر والإيمان.. بوابة تعمل بالاستشعار.. تغلق بعد خروجي بتلقائية محتومة.. شهيق عميق وزفير طويل... أتنفس الحرية من قيود المرض.. أتقلد عقود العافية وأطرب لسماع تحبّطها فيهيأ لي أنها تغني لي أهازيج شفاء فأخلع حذاء المشي لأرتدري خطوات رقص تتماشى مع فرحتي بشفائي..

في الخارج .. شمس خجول تلحفت بغيوم ناعمة ومكتنزة .. نسيم بارد
منعش تتمايل معه الأشجار فكأنها ترقص على أغنية Sway with me
الشهيرة .. لا أرى عصافير لكني أشعر بها .. بين الغيوم وفوق الغصون
تنطلق مصفقة لحرية بلا حدود .. أنا اليوم النسيم والعصافير والأشجار
والغيوم وزخات المطر ... سأعود سيراً على الأقدام إلى البيت ... طاقة
تدفعني للمشي ... أريد أن أمشي بلا توقف .. مع كل خطوة أحمد الله ..
مع كل نفس يزداد عندي شعور بأن ربي أكرمني بأن المرض لم يعد ..
الحمد لله .. الحمد لله .. الحمد لله ... تسقط دمعة من عيني .. أمسحها ..
تلحق بها دموع لا أستطيع السيطرة عليها ... أتذكر أم رعد .. أدعو الله
أن يشفيها ... يخفف عنها الألم .. يزداد بكائي .. أشهق .. الحمد لله .. أزفر
الحمد لله .. تهمر عيني .. تنجلي نفسي .. أصل لمنزلي .. أمانى .. ملاذي ..
حصني .. مقابل منزلي يقع منزل أبي رحمه الله وأمي .. بجانب منزلي
منزل أختي .. خلفه يقع منزل أخي .. ومن الناحية المقابلة يقع منزل
أخي وأختي الآخرين .. نعمة أخرى من نعم الله علينا .. لنبق معا أنا
وأخوتي .. قرر والدي بناء منازلنا جميعاً في مربع واحد .. غدونا إخوة
وجيراناً .. أطفالنا تربوا معا في قلب واحد .. مبدأ واحد .. مرجعنا أمني
وأبي .. تجمعنا سفرة واحدة وسقف مزين بلآلئ الحب والرعاية .. كبرنا
ولم نتخل عن احتياجنا لهما .. ازددنا تعلقاً وحبا وعرفانا لهما بالجميل ..

..... فنجان .. قهوة ..

لم أدخل منزلي .. عوضا عن ذلك .. دفعت باب منزل والدي المفتوح دائما .. دخلت غرفة المعيشة .. وجدت أمي على مقعدها تجلس بهدوء .. تتابع أحد البرامج السياسية .. قبلت رأسها .. جلست بجانبها ..

سألتني: أين كنت؟

- عدت الآن من المستشفى .. الحمد لله طمأنني الطبيب أن أموري بخير .. لا أثر للمرض حمدا لله ..

- الحمد لله ...

قصصت عليها لقائي بأم رغد ورغد .. عبرت عن إعجابي الشديد بقوة احتمالها وتجربها على المرض والألم .. ضحكته الهادئة .. بريق عينيها .. صوتها المطمئن ..

شربنا القهوة .. وأتبعناها بفنجان قهوة آخر مع حديث آخر وتعليق هنا وكرى هناك .. مر الوقت وبهت أحداث الصباح وعدنا لممارسة حياة كُتبت بأدق التفاصيل على لوح محفوظ بقلم مليك مقتدر ..

استيقظت من نومي وصوت في أذني يقول: لقد أصبت بالمرض من جديد .. كنت أعرف موضعه تماما .. مددت يدي إلى صدري الأيسر .. وجدت كتلة .. لم أتشأء .. لكنني كنت متيقنة .. حجزت موعد مع

..... فنجان .. قهوة ..

الطبيب الجراح .. ذهبت .. قلت له من عشرة أيام كان موعدي مع طبيب الأورام وكنت بخير ..

قال: خيرا بإذن الله .. نحتاج إلى أشعة صوتية للصدر وماموغرام .. وسنأخذ عينة من الكتلة كي نعرف ماهيتها ..

قلت: أعرف كل ما يجب عمله .. طريق سرت به منذ خمس سنوات وهأنا أخطوه من جديد ..

قال: توكل على الله .. كل شيء سيكون على ما يرام ..

خرجت تحوطني خيبة أمل وأطواق حزن .. غريب هو الإنسان .. كلمة تحمله على بساط الريح تنقله بين سماءات الفرح .. وكلمة تسقطه في باطن حوت حزنا وألما وخوفا ... لا شيء لا نهاية له .. كل شيء سيمضي .. ويغدو ذكرى .. الحاضر يغدو ماضيا .. والمستقبل سيصبح ماضيا .. أيام متتالية لا تقف .. شئنا أم أبينا .. بها خيارات كثيرة .. نحيها برضا .. أو بسخط .. نصبر لمرور سفننا في بحر تتلاطم به الأمواج العالية تحاول مشاكستنا .. نغرق إن لم ندر الدفة بحكمة .. إن لم نرخ أشرعتنا .. إن لم نرم بأحمالنا الزائدة في خضم مياهها المظلمة .. أنا القبطان اليوم ... أرخيت أشرعتي .. ورفعت راية الجهاد .. النصر حليفي بكل الأحوال .. نصر في الدنيا ونصر في الآخرة .. كم أنا محظوظة .. ما يثقل كاهلي ويعتصر قلبي ويدمي مآقي .. أبنائي .. زوجي .. أمي .. إخوتي ... س يحملون معي

..... فنجان .. قهوة ..

أيام المرض .. ويتجرعون أدوية الأمل .. ويتألمون خوفا من غد مجهول
تنيره مصابيح الإيمان بالقضاء والقدر.

جلسنا كعادتنا عصرا في الحديقة .. أمي .. زوجي .. إخوتي .. حول
الخطب المشتعل .. تحت أشجار ولدت في صباح يوم ما منذ أكثر من
أربعين عاما .. أستطيع أن أقول إن هذه الأشجار بمنزلة أختي الصغرى ..
ولدنا معا في هذا البيت .. نشأنا معا .. ربته أمي .. كانت تسقيها وتحرص
على تغذيتها وتشذب أطرافها .. تحنو عليها .. تحبها .. تغضب إن أوقعنا
بها أذى .. كبرنا معا .. طالت .. تفرعت .. كافأنا بدورها .. جادت علينا
بالظلال .. حالت بيننا وبين أشعة شمس قاسية .. هكذا هي الأخت ..

اقتربت من أمي .. وضعت رأسي على كتفها .. همست .. لا أريدك أن
تحزني .. أو تقلقي .. عديني ..

نظرت لي أمي .. غاصت عيناها داخل روحي .. عرفت .. لم تكن
لتصدق .. قالت تتقمص الاطمئنان: خيرا؟

قلت: رجع المرض .. لكنني بخير .. قلتها وأنا أبكي .. ملايين
الأحاسيس تطير حولي وفي عقلي .. أنا طفلة صغيرة أكتفي بهددة أمي
لي كي أطمئن من جديد .. أنا أم جبارة لا تبكي ولا تخاف .. أنا زوجة محبة
فقدت نصف جسدها من خمس سنوات وفي طريقها للتخلي عن نصفها

..... فنجان.. قهوة

الآخر تدعي بأنها ما زالت زوجة.. وجميلة.. وكاملة.. كما كانت..
أنا قوية وضعيفة.. أنا أبكي وأبتسم.. أنا الأمل والخوف.. أنا الإيمان
والشك.. أنا أعوام من ذكريات عمر جميل ومستقبل مجهول..

قالت بهدوء: كيف عرفتي؟ ذهبت للطبيب؟ هل أخذوا عينة؟

قلت: نعم

قالت: النتيجة؟

قلت: غدا

قالت: إن شاء الله خيرا.. قلبي مطمئن.. سيكون خيرا..

قلت: يارب..

أعلم أن العينة ستكون إيجابية وستظهر الخلايا السرطانية معلنة
عودتها.. ومعلنة بدء فصل جديد من عمري..

وجهت أُمِّي نظرة تساؤلًا لزوجي.. أو ما لها بأن كلامي لا يوجد به
مبالغة وبأن الموضوع شبه مؤكد..

كعادي.. بعد أن رميت بشوالات همومي في مخزن أُمِّي.. وبعد أن
سقيت مشاتل القلق بدموعي.. تركتها وذهبت لمنزلي الملمم أقمشة
الشجاعة من خزائني العتيقة لأخيط رداء سميكا يحميني من خناجر
الخوف والقلق...

..... فنجان.. قهوة

قال الطبيب: العينة إيجابية.. لكن أريدك أن تطمئني.. تحتاجين إلى عملية استئصال للثدي كاملة وبعدها العلاج الكيميائي.. ولن تحتاجي إلى الإشعاع لأنك اكتشفته مبكرا.. لا تقلقي أمورك بخير..

يتكلم بلطف وعفوية وقوة توحى بالثقة.. لا أعلم إن كان متعاطفا مع حالتي أم هذه طبيعته.. لا أحتاج إلى التعاطف أو طبطبة كتف مواسية.. ما أحتاج إليه هو المعرفة..

سألته: أريد أن أعرف ما الذي سيحصل لي؟ ما هو مصيري؟ هل علي أن أستعد للنهاية؟ هل سيستجيب المرض للعلاج؟ هل سأنجو؟ كم من الوقت تبقى لي في هذه الدنيا؟ وهل سأستطيع البقاء حتى يكبر أولادي؟ هل سأكون معهم حين يحتاجون إلى وجودي؟ أم كُتب عليهم اليتيم؟

أجابني: كل هذه الأسئلة والأفكار لا تهم.. يجب عليك أن تركز على نفسك الآن.. أمامك طريق وستجتازينه بإذن الله.. لا تحملي نفسك عناء أسئلة لا أحد يملك إجاباتها إلا الله..

نفضت هذه الأفكار لتتطير في أرجاء العيادة.. ما قاله الطبيب هو تحديدا ما أؤمن به.. لن أدع الوسواس الخناس يحبك خيوطة حولي ويشتتي في بقعة ظلام في شبكته ليجعل مني فريسة سهلة.

بهذا المعتقد والفكر خطوات أولى خطواتي في درب الشفاء...

..... فنجان .. قهوة ..

خرجنا معا.. أنا ورفيق دربي.. زوجي.. شريكي.. في الخير والشر.. في
الغنى والفقر.. والهم والمرض.. رافقني في كل مواعيدي.. يسأل الطبيب
عن صحتي.. علاجي.. تفاصيل تطمئني.. يهمس لي بكل جوارحه..
أنا معك.. لست وحدك..

في بيتنا.. غرفتنا.. وقفنا متقابلين.. في رءوسنا كل تفاصيل العلاج..
نعي جيدا ما ينتظرنا..

اقترب مني.. نظرت لعينه بثبات.. قال لي الكثير.. وحكى له
الكثير.. كل ما يخيفني.. ما يرعبني.. أولادنا.. حياتنا.. زواجنا.. حبنا..
ما مصيره.. هل سأشفى؟.. هل سأبقى حبيته؟ هل سيراني بعين الحبيب
فلا يرى جروحي ولا يرى تشوها سيصيب جسدي البالي؟

حضنني.. شعرت بحبه وحنانه.. قال لي: منذ خمس سنوات مررنا بهذا
الدرب.. كنت رمز الإيمان والثقة والتفاؤل.. اليوم أنت أقوى.. كنت
جميلة واليوم أجمل.. دعي عنك الخوف والشك واجعلي من حبي لك قلعة
تحصنين بها من كل ما يقلقلك.. أنتي زوجتي وحبيتي وابنتي التي كبرت
أمام عيني من صبية ذات الثمانية عشر ربيعا لتصبح أروع السيدات..

بدرع بشرية اسمها فيصل.. وبسيف الإيمان المسلول.. أعلنت حربي
ضد مرضي.. موقنة بالانتصار..

..... فنجان .. قهوة ..

في غرفتي .. تحديدا في ركن صلاتي .. على سجادتي مرتدية شرشف
صلاتي الأزرق جلست أفكر .. رحمتك يا الله وسعت كل شيء .. كم كنت
رفيقا بي حين هياتني لخبر مرضي .. حلم .. ثم مقابلة أم رغد بالمستشفى ..
إشارات عديدة .. جعلت الخبر الحقيقي يصل إلى بنعومة وسلاسة وتقبلته
لأن وضعي أفضل من وضع أم رغد .. بل على العكس .. شعرت بأنني
محظوظة وبخير .. شكرا لك ياربي .. وحمدًا لكرمك ورحمتك ..

- أمهليني دقيقة ..

ابتسمت ..

أطلت غمازتان في منتصف خديها استجابة لابتسامتها المتفائلة ..
بادلتها الممرضة الابتسام وقالت: اضغطي زر النداء عندما تكونين
جاهزة ..

خرجت الممرضة من الغرفة بسرعة لديها الكثير من الأعمال والمرضى
والمسؤوليات التي لا تنتهي إلا بانتهاء مناوبتها ..

الغرفة: ١٠٣

الساعة: السادسة صباح يوم بارد من شهر يناير.

..... فنجان .. قهوة ..

سرير أبيض.. جدران مصبوغة بلون أخضر فاتح به دعوة مبطنة للحياة.. يداعب أوتار اللاوعي ويرسل أشعة من أمل لترفع من نفسية المريض وتحثه على الشفاء.. مقاعد وثيرة .. مغسلة .. ونافذة كبيرة..

لم تكن تهتم إلا بالنافذة.. تحتاج للضوء.. السماء.. الشمس نهارا.. القمر ليلا.. أن ترى تراقص غصون الأشجار مع الرياح.. آخر لحظات السحر وملاحقة ظلالها.. تسلل خيوط الفجر الأولى.. انسحاب الظلام بكبرياء لتتربع ألوان الصباح بكل عنفوان..

وقفت عند النافذة .. رفعت يديها أمام وجهها.. أرخت عينيها أرضا.. همست: اللهم إني استودعتك نفسي... توكلت على الله .. إنا لله وإنا إليه راجعون..

ضغطت زر نداء الممرضة.. واتجهت للسيرير.. استلقت بهدوء.. سلمت نفسها لله.. وستسلم جسدها للجراح.. وعقلها للمخدر.. وروحها متعلقة بمشيئة الله..

مدت ذراعيها واعتقدت أنها تصرخ مستغيثة: أنقذوني.. إني أقع.. لا تركوني... لم تكن تدرك أن بقايا المخدر بعد العملية أثرت في إدراكها.. حين هموا بنقلها من سرير العملية لسرير غرفتها شعرت بأنها تسقط من على جرف نهر تحت قدميها.. حاولت التشبث .. طوحت يديها في الهواء..

..... فنجان .. قهوة ..

خرج صوتها ضعيفا.. بكت.. ألما وحزنا.. كل ما فيها يؤلمها .. كل عصب في جسدها.. كل زاوية .. تجندت كل أحاسيسها لتكون طوعا لآلام حاده تحترق نفسها وجسدها فتمزقها.. وهي بين الوعي واللاوعي .. الإدراك وعدمه.. تتلعثم.. تشهق.. تتعثر بدموعها.. تبتهل..

من بعيد جاءها صوته الذي تحبه وترتاح لسماعه.. فيصل ..

- حبيبتي .. أنت بخير.. لا تقلقي .. أنا هنا بجانبك .. وهاهم الأولاد كلهم حولك.. الحمد لله العملية تمت بنجاح .. وطمأننا الطبيب بأنه استأصل السرطان بالكامل.

كان يمسح على شعرها.. يهمس بحنان.. يشحذ قوته.. يغالب دموعه.. عليه أن يكون قويا.. سيكون عوننا وسندا لها.. كما اعتادا.. ٢٣ سنة تقاسما فيها كل لحظة..

فتحت عينيها تبحث عنه.. بكت حين رآته.. هدهدها قائلا: لا عليك.. نحن بخير.. وأنت بخير..

- لماذا تركت الأولاد يرونني هكذا؟ لا أريدكم أن يحملوا على ظهورهم حقائب مثقلة بأوزان قلق وخوف..

أصروا أن يكونوا موجودين .. لم أستطع منعهم.. ثم رؤيتهم لك ستطمئنهم..

..... فنجان .. قهوة ..

مسحت دموعها .. تنحنحت .. حاولت الجلوس لم تستطع .. تأملت ..
ابتسمت .. مدت ذراعيها ..

- أحبابي .. أنا بخير لا تقلقوا ..

تقدموا تباعا يسلمون عليها بحذر .. يخشون التسبب لها بألم أكبر .. إلا
أنها ضمتهم بكل ما استطاعت من قوة لصدرها حينها أدركت أنها غدت
بقايا جسد بعد أن طلبت من الطبيب أن يستأصل مع السرطان كامل
الثديين والمبيضين ..

فتحت عيني .. تلفتت حولي .. يتمايل الظلام في أرجاء الغرفة بهدوء
تحركه رياح هادئة من حب منبعها أمني الغافية على الأريكة .. الساعة
الواحدة صباحا .. باقات صمت تزين الزوايا .. تطلق شذى الصبر ..
أشعر براحة نفسية وجسدية .. مزيج دواء المورفين ودندنة حبات المطر
على نافذتي .. والتوكل على الله جعل من تلك اللحظة لحظة سلام خالدة
سكنت روحي وقلبي .. قررت ..

لا أريد أن يرتبط الشتاء والمطر بالمرض والألم .. ولا أريد لأحد أن
يحضر نزاعاتي معها .. لأنني لن أستسلم .. ستكون بيننا جولات كثيرة ..
سيلكمني الألم ويصفعني الوهن ويركلني اليأس وبدوري سألكم
وأصفع وأركل بالمقابل .. سأصيح عاليا .. سأفزعهم .. ولن يكونوا إلا

..... فنجان .. قهوة ..

رمادا بعد أن أحرقهم بنيران الرضا .. سيهربون في كل اتجاه .. سأقبض
على كل حرف من حروف اسم هذا المرض .. أخنقه بحبال الأمل وأرمي
به في محيطات النسيان .. لا يمثلني .. ولا أخافه .. لست أسيرته .. ولا
أهابه .. ضيف حضر دون دعوة ولن يبقى كثيرا ..

أريد هاتفي .. لا أستطيع الحركة .. تيارات ألم سرت في جسدي كله ..
كدت أصرخ .. تمالك نفسي .. أمي النائمة تعباً بجاني لا أريدها أن
تستيقظ .. لتبق في عالم الأحلام الجميل بعيداً عن رائحة المعقم وأصوات
المرضات .. لا بد أنها تعب .. أتعبتها السنون .. فقدان أبي .. ألم ظهرها ..
همنا .. مرضي ..

دمعت عيني .. ابتهلت إلى الله ..

ربي لا تجعلني سبب دمة على وجتها أو آهة تهرب من شفاهها .. ولا
تجعل مني همّاً يسكن حجرات قلبها ..

تحاملت على نفسي ومددت يدي بروية حتى استطعت أن أمسك
بهاتفي .. فتحت ملف الرسائل .. كتبت لزوجي .. (لا تدع الأولاد
يحضرون إلى المستشفى حتى أتمكن من الألم .. اختر لي بعض الكتب من
مكتبتني وأتني بها لو سمحت) ..

غفوت أحلم بالسقوط بين ذراعي كتاب في الغد ..

..... فنجان.. قهوة

بين الفينة والأخرى.. أسمع صوت باب الغرفة يفتح.. أستيقظ..
تدخل الممرضة.. تقيس النبض.. الحرارة.. الضغط.. تبسم.. تحقق
المضاد في العلاج الوريدي.. تطمئنني أن كل شيء بخير.. ابتسم لها..
أشكرها.. أنظر نحو أمي.. لا أريدها أن تستيقظ في كل مرة تدخل
الممرضة.. لكن ما بيدي حيلة.. خوفها علي يجعلها متنبهة لكل نفس
في الغرفة.. تتبادل بعض العبارات.. أطمئنها بدوري أن كل شيء على
ما يرام.. تغفو مرة أخرى.. أنظر للساعة.. إنها الخامسة صباحا.. وأنا
متصلة بالكثير من الأنابيب.. المغذي والعلاج والقسطرة وجهاز محفز
الدورة الدموية المثبت في ساقِي.. أريد أن أمشي.. همست للممرضة..
قالت بحماس: رائع.. دعيني أنزع الجهاز عن ساقيك أولا..

اعتدلت أمي حين سمعت حوارنا.. وقالت سأمشي معك..

حاولت الجلوس.. لم أستطع.. الألم يغلفني.. نهضت أمي بسرعة
تسندني.. مدت الممرضة ذراعها تساعدني.. قلت: أريد أن أجلس بدون
مساعدة.. سأقدر على الألم.. نفس عميق.. ببطء حركت ساقِي نحو
طرف الفراش.. تألمت.. قبضت بكفي طرف السرير.. لففت جسدي
نحو اليمين.. تألمت أكثر.. أنزلت رجلي.. أنين ينزلق من شفتي أعجز
عن كبته.. بلهفة تطلب مني أمي أن أدعها تسندني.. أطمئنها.. أنا بخير..
أحتاج إلى أن أنهض من مرقدتي بنفسي.. لن أرضخ للعجز.. لن أسلم

..... فنجان .. قهوة ..

نفسي للألم .. أتنفس بعمق .. أحبس نفسي بداخلي وأدفع جسدي بعيدا
عن السرير .. كشرت جروحي عن أنياب حادة تريد نهشي .. واقع يفرض
نفسه .. على التعايش معه .. ببساطة .. لا مفر .. الرضوخ للواقع يكون
بمنزلة توقيع هدنة معه .. صلح يجمعنا .. أوقع باسمي الجديد .. رضا ..
تلامس رجلاي الأرض .. أنهض أخيرا .. أمني تنحني أمامي تريد أن
تلبسني خفي .. تخاف علي من برودة الأرض .. أغص بدمعي .. تحتلط علي
الأمور .. ألم جروحي .. مع ألم نفسي .. تخطيت الأربعين وما زلت بحاجة
لأمني ... وددت لو أبقى تحت قدميها ما حييت .. أحبيت احتياجي لها ..
شكرت الله على وجودها ..

أعطيتها ذراعي كي تنهض من جلستها .. تلقفتها بحب .. نهضت ..
تمسكت بي .. سرنا نتكى على حينا .. سعادة حقيقية .. أقف .. بجانب
أمني .. أخطو خطواتي الأولى .. كما خطواتها من أربعة عقود .. تسندني
بحبها ويديها وبشجيعها .. شكرا لوجودك يا أمني ..

اليوم الثاني بعد العملية .. بين الحلم واليقظة .. تراءت لي صديقتي
سعدة رحمها الله .. تشاركنا العمل عشر سنوات .. تقاسمنا الملفات
والمعلومات وأحلام الوظيفة .. أصيبت بنفس المرض .. شفيت منه ..
بروح جميلة وبإيمان ثابت .. مثل أعلى لكل مصابة .. هاجمها المرض

..... فنجان.. قهوة

بلا رحمة للمرة الثانية.. لم يبق ولم يذر.. توفت بعد أن تركت وراءها
ذكرى وابتسامة نقشت على جدار ذكرياتي.. اليوم.. بين غفواتي تطل
علي سعدة.. كعادتها مبتسمة.. بحجابها الملون.. وحاجبيها الرفيعتين..
تسألني بحنان أم خلفت أولادها الستة وديعة عند الله.. كيف حالك
يارغد؟

ابتسم بدوري لها: الحمد لله.. بأفضل حال..

أجابتنني: ونعم بالله..

قلت لها: وأنت كيف حالك؟ دائما أذكرك..

قالت ضاحكة: أحسن منك..

ضحكت بدوري..

يد حانية لمست رأسي.. همست لي.. رغد.. هل تحلمين؟

فتحت عيني.. أما زلت مبتسمة.. اتسعت ابتسامتي حين رأيت
أختي..

قالت بسعادة: كنت تضحكين..

أغمضت عيني ثانية.. جرعة المخدر المزوج مع المغذي تغلبت على
فرحتي برؤية أختي.. وعدت لأحلام بيضاء ساطعة النور..

..... فنجان .. قهوة ..

قالت لي أمي: لا أريد أن أتركك وحدك

قلت: لا تقلقي .. سأكون بخير .. اذهبي .. اغتسلي واطمئني على أمور البيت وارجعي .. أضفت ضاحكة: لن أذهب بعيدا .. سأنتظرك ..

قالت: أستطيع الاغتسال هنا ..

قلت: أمي أنا بخير .. لا تشغلي بالك ..

خرجت أمي مترددة وبقيت وحدي .. هدوء .. لا صوت إلا صوت أفكاري الذي بدأ يعلو تدريجيا ..

كمصارع ضعيف في حلبة مصارعة تضم أعتى المصارعين كنت مع أفكاري .. تلطمني يمينا وتلكمني شمالا .. ترفعني عاليا وترمي بي بكل قوتها أرضا .. تكسرت أضلاع نفسي .. وانهمرت دموعي حزنا .. كنت أنتظر هذه اللحظة منذ عرفت بمرضي .. لكنني لم أكن أبدا لوحدي .. كل ما احتجت إليه بضع دقائق لأجعل من أفكاري السوداء همم بركان ما إن انفجرت حتى خمدت .. نهضت ببطء .. غسلت وجهي .. سرحت شعري .. نظفت أسناني .. وعدت لسريري بهدوء وكأن شيئا لم يكن ..

فتح الباب .. دخلت بابتسامة كلها حب .. صباح الخير .

قلت: أهلا .. أهلا منال .. صباح الورد ..

- كيف حالك اليوم؟

- أنا بخير دائما وأبدا..

جلسنا نتحدث نحو ربع ساعة ثم قلت لها.. في عقلي فكرة مجنونة..

قالت وقد لمعت في عينيها شقاوة: احك..

قلت: أريد أن أشرب قهوة من كافيتريا المستشفى..

قالت بحماس: هيا بنا..

بسرعة أحضرت لي عباءتي.. ألبستني إياها بالرغم من الأنايب الموصولة بي..

انطلقنا بشقاوة طفلتين وبالسرعة التي سمحت بها آلامي.. نزلنا.. طلبنا القهوة.. حملت كوبي وكأني أحمل كأس انتصار على نفسي وآلامها.. لا أريد السرير.. سأجلس بجانبك على الكرسي..

بصعوبة جلست.. ملت بجسدي كي أخفف ألم جروحي.. قلت لها: منال.. اشهدي على ما سأفعله.. انتبهي.. سأضع رجلا فوق رجل..

قالت: لا تتهوري يا مجنونة..

قلت لها بثقة: لا تخافي..

برداء المستشفى الأزرق المخطط بالأبيض.. وبالأنايب الموصولة بجسدي.. وبصدر منبسط تماما.. وبكل أنفة.. وضعت رجلا على

..... فنجان .. قهوة ..

رجل .. وبدأت أشرب قهوتي كسيدة مجتمع راقية في صالون ثقافي .. غير عابئة بكل نواقص هذه الصورة.

ما يهم أنني خطوات خطوة أخرى للشفاء .. نحو الحياة .. والتفاصيل التي أعشق . هأنذا أعود لأحيائها من جديد..

تعج الغرفة بالمحبين والأهل والأصدقاء .. كالبلسم .. كالعطر .. كالزهر .. كالمسك والعنبر .. سعيدة بوجودهم .. بأحاديثهم غير المترابطة .. بمداخلات المواضيع كجسور متقاطعة فوق طرق مزدحمة .. يجلسون حولي وفوق سريري .. يحنون علي يقبلونني .. يهمسون بأذني أدعية الشفاء .. وأقول .. اللهم آمين ..

قالت لي بدرية: جزء منك سبقك للجنة إن شاء الله ..

فرحت كثيرا بكلماتها .. صور من الجنة تعبر خيالاتي .. أنتهد شوقا وأملا في الله ..

بهذه الكلمات هانت آلامي وهانت أجزاء جسدي المقتلعة والمدفونة في مقابر الأعضاء .. يعود الجسد للتراب والأرواح للخالق .. لنكون قوتا لدود الأرض .. نذوي .. نتحلل .. ونبقى متمرغين في التراب حتى نُبعث من جديد في دار البقاء .. ما أهمية الجسد؟ لا شيء .. كل من عليها فان .. والخلود لله ..

..... فنجان .. قهوة ..

تحوطنا الملائكة بجلالة رقيقة اسمها الرحمة.. نفوسنا هادئة.. مطمئنة.. فرحة صادقة تغمرني.. فقد تخلصت من المرض باقتلاعه من جذوره.. هدمت صوامعه.. وأحرقت أغلاله.. أعلم أنني انتصرت في معركة وسيكون النصر حليفي في المعارك القادمة.. بروح معنوية رفعت بسواعد حب من حولي نهلت من جداول الشفاء وعدت لبيتي بعد خمسة أيام من العملية..

قال الطبيب: كل شيء يبشر بالخير.. استئصلنا المرض بالكامل.. لا أثر لأي انتشار في العظام أو الكبد أو المخ.. نتائج الأشعات كلها في صالحك والله الحمد.. لا أثر لامتداد المرض للعقد اللمفاوية.. مما يجعلك في الدرجة الثانية بسبب حجم الورم.. أريد منك أن تستعدي.. سيكون العلاج أقوى من المرة الأولى... عليك التحلي بالصبر والإيمان بأنك ستجتازين صعوبة هذه المرحلة.. معركة بينك وبين السرطان وعندي يقين بأنك ستنتصرين.. سأعطيك ثلاث نصائح إن اتبعتها فستصلين لبر الأمان.. التزمي بأوقات الأدوية بالدقيقة.. اشربي الكثير من الماء.. وإذا ارتفعت درجة حرارتك فتحضري للمستشفى حالا..

أومئ برأسي فقط.. أحاول استيعاب كلمات الطبيب.. أستغرب لكلامه.. هل عدم تخطي هذه المرحلة أمر وارد؟

أسأله: مم تخاف يا دكتور؟ هل يجب أن أقلق؟

قال مطمئنا: أبداً أبداً.. إذا اتبعت التعاليم حرفيا فلن يكون هناك داع للقلق.. كل ما في المسألة أنك إذا لم تشربي كمية كبيرة من الماء فمن الممكن أن تصاب كليتك بالفشل وتدخل في دوامة أخرى أنت في غنى عنها.. وإن لم تأخذي العلاجات في وقتها فقد تصابي بآلام في المعدة تزعجك .. وارتفاع الحرارة بعد الكيميائي يدل على أن مناعتك منخفضة جدا .. ولذلك عليك أن تكوني متيقظة وتتبعي التعليمات..

قلت بإذعان وتوجس: حاضر يا دكتور.. التعليمات بسيطة والالتزام بها أسلم من إهمالها... سأخوض الحرب وأنتصر بإذن الله..
هي الحرب إذن .. فلتكن..

نفسي تهفو للكعبة.. لا أدري هل هو نداء أم رغبة أم دعوة أم احتياج؟.. نعم.. أعتقد أنه احتياج.. أريد أن أصلي في الحرم المكي.. أريد أن أختلي بنفسي في بيت الله.. هل تجوز العمرة بدون محرم؟ بحثت كثيرا في الفتاوي.. أجمعوا على أن سفر المرأة لا يجوز بدون محرم لأنها لا تأمن عواقب السفر.. ولأني أو من بأن ديننا لكل العصور وليس مقصورا على زمن الرسول.. ولأن السفر أصبح من الوسائل الآمنة ولا خوف من السباع أو الموت عطشا في الصحاري.. فقد قررت الذهاب للعمرة

..... فنجان .. قهوة ..

بدون محرم.. فإن قبلها الله فهي مكسب.. وإن لم تقبل كعمرة فلي أجر
الطواف والسعي والصلاة وقراءة القرآن.. هديني هو التقرب إلى الله
تعالى.. ووضع نفسي بين يديه.. والاستسلام الكلي له.. أسبح وأدعو
وأصلي وأسجد ابتها لا الله ..

استأذنت زوجي.. حجزت تذكرة الطائرة.. أحتاج إلى ليلة في رحاب
الله لا أكثر.. أعني أن الله موجود في كل الأماكن والأزمنة.. أعني أنه تعالى
يسمعني وسيستجيب لدعائي أينما كنت.. ولكنني أتوق لضيافة الرحمن..
فلا أكرم منه..

يوم وليلة من أجمل أيام عمري.. جميلة هي الكعبة .. شائخة.. متألفة..
هيبتها تطغى على كل ما في الكون.. مثل كل مرة.. عند رؤيتها.. تحمّلني
موجة مشاعر مختلطة ساخنة... تغمرني.. تتساقط دموعي خشية وأملا في
الله واتكالا عليه.. بين الطواف والسعي وانتظار موعد الصلوات سعادة
لا تنتهي.. بركة تحوطني.. كل ما حولي جميل.. القرب إلى الله متعة ..
جلوسي على أرض الحرم مقابلة الكعبة لا يعادلها أي إحساس.. فالحمد
لله على نعمة الإسلام..

يوم الجرعه ...أسقط في قاع زجاجة.. لا أعترض.. فلا
مكان للاعتراض.. لا بالقول ولا بالعمل ولا بالاعتقاد... إنه

..... فنجان .. قهوة ..

الاستسلام للقدر.. فقدرى قاع زجاجة اليوم.. بكل هدوء أستلقي ..
أسلم نفسي للممرضة.. تحضر العلاج.. أنخيل جرعة الكيمائي بيدها
مشرط نجاة .. كي أشفا ستقطع شرايين الورم بنصله الحاد .. وتمتص
الحياة من عقر خلايا بشعة، مسخة، دخيلة، لصة، امتهنت سرقة أيامي
وقطع من جسدي.. وبين فينة وأخرى تحاول سرقة آمالي، ذاك المشرط،
ذو النصل الحاد، غدا أقوى أصدقائي، نعم .. فأخر العلاج الكي .. وإن
كان مقدرا لي أن أكوي وأقطع وأمتص روحا شريرة توالدت في خفايا
فؤادي .. روح وقحة تتمختر في جسدي هنا وهناك... بكل السعادة ..
بكل الرضا .. بكل الإيمان .. بكل الثقة.. أقول بابتسامة تحرسها غمازتاى
اللتان عشقهما أبى رحمه الله.. أقول أخطأت العنوان أيها الشقي .. فبحول
الله وقوته سأبيدك وأرمي برمادك في جوارير أسنة وستقر عيني بنعيم
الدارين الدنيا والآخرة بإذن الله، فطوبى لمن يرى ويشعر ويتنفس أملا
في الله.. تطول أوردتي وتنفخ عروقي بسوائل الكيمائي المتدفقة بروية
ولتحصد آفة ابتليت بها ككثيرات غيري..

لست مميزة فأنا واحدة من ملايين.. ولست الأولى.. فقبلي الكثيرون..
ولن أكون الأخيرة.. فبعدي سيكون آخرون... ساعة يغلبني النوم..
وساعة استخرج إبرة الكروشييه وخیوطي الملونة لأنسج مع كل عقدة
تسبيحا أو استغفارا وتضعي الكلمات إن كنت أعمل على قطعة أعد بها

الغرز.. استغفر الله.. استغفر الله.. واحد.. اثنان.. ثلاثة.. غرزة عمود
بلفتين.. واستوعب خطي وأعود للتسبيح ومن ثم للخطأ.. والمرضة
صاحبة الابتسامة الملائكية بين الفينة والأخرى تسألني: أحتاجين إلى
شئ؟ وأبتسم بالمقابل وأقول: لا أشكرك من كل قلبي.. أهمس بيني
وبين نفسي: أحتاج إلى رضا الله وكرمه والصحة.. ككل الأيام تمضي
ساعات نهار يوم الجرعة وأبدأ بانتظار قدومها.. أصغي السمع.. أخفض
صوت التلفاز.. وبالرغم من أنني أقضي أياما أقنعها ألا ترافقني في يوم
جرعتي... وأعلم أنها لن تصغي لي.. وأعلم أن راحتها على الكرسي ذى
الوسادة الخضراء الناعمة الذي يتكى بجانب سريري بالمستشفى.. فإننى
أشفق عليها من تعب الانتظار بجانبى ساعات.. واتفقنا على أن تلحق
بي بعد صلاة العصر.. يصدح المؤذن بصوت عذب: الله أكبر.. أقفز من
سريري.. أسحب أنابيب غدت ملحقا لأوردي أتجرع بها سما فيه شفاء
بإذن الله.. أنابيب موصولة بعامود يعلق عليه أكياس من رعب وأمل..
وله دواليب أخرج بها الأنابيب والعلاجات وابتهالاتي.. وأهرع
للوضوء.. أرى ملاحي.. بعد أن غسلت خافي العيوب وسالت بودة
حمرة الخدين... أسال نفسي ضاحكة: هل أبдо كمريضة سرطان؟ وأتذكر
جواب زوجي: أبدا يا حبيبتى... أنت جميلة بكل حالاتك.. أتذكر جوابه
وجوابي له وأضحك.. قلت له: تعرف أنني أعرف أنك ألطف وأرق من
أن تؤلمني بكلمة.. أحب كذبك علي في هذا الموضوع تحديدا..

أعود لغرفتي متناسية ملاحمي التي اتشحت بهيئة مرضى السرطان..
أصلي.. أقرأ أدعية المساء.. ستصل بأي لحظة.. هي الأمل والراحة
والاطمئنان والابتسامة الصافية.. سكن الأمل تجاعيد وجهها الجميلة
فزادتها جمالا.. هي عندي مزيج لذيذ من بشرية ملائكية.. من بعيد
أسمع خطوات عصاها.. تقترب.. وتقترب.. وتفتح الباب بتمهل..
نورا للدياي.. ودربا لجنتي.. وناقوس دعاء لي لا يفتر.. أمي.. ثم أمي..
ثم أمي.. وتمضي الساعات المتبقية أنهل من كلماتها وابتسامتها أو عقدة
جبينها وحاجبها إذا لم يكن الموضوع موافقا لعقليتها أو معتقداتها..
أنتظر ردها على كلمة أو موضوع مني بفارغ الصبر.. أنتظر أن أكون
موضع فخر لها ورضا.. وتأتي الممرضة لتعلن انتهاء العلاج.. نتوكأ على
بعضنا بعضا.. نمشي دون استعجال.. كأننا في نزهة بإحدى حدائق
لندن التي أعشق.. أمي جاءت لتشاركني قاع الزجاجاة.. تخاف علي
من وحدة موحشة.. تدفعني لأول خطوة باتجاه عنق الزجاجاة.. تسلمني
لزوجي الذي ينتظرن لي لمسك بيدي ويرفعني لأول فقرات عنق الزجاجاة
العشر.. ليكون رفيقي في دروب حياة منها الحلو ومنها المر ومنها القصير
ومنها الطويل.

مع أول يوم لأول جرعة كيميائي وآخر قطرة من الدواء تتمثل
أمامك زجاجاة.. أترك لكم عنان تخيلها.. قد تكون من زجاج شفاف أو
مزركش بألوان زاهية.. أو مخطوطا عليها بحروف عربية آيات من القرآن

الكريم.. الزجاجة لها عنق طويل له عشر فقرات .. كل فقرة طولها ٢٤ ساعة في كل ساعه ٦٠ دقيقة.. وفي كل دقيقه ٦٠ ثانية.. كساعة اليوم المتعارف عليها والتي تحدث بسبب دوران الأرض حول نفسها.. لكن الفرق كبير.. هذه ساعة تحسب مرور الوقت وتلك تحسب المسافة بين فقرة وأخرى في عنق زجاجة زلقة.. الساعات والدقائق والثواني تزحف ببطء لزج يثير أعصابي ويتسلق هممي.. لا أعني هل يدفعني تجاه الثانية التالية أم يدفعني لقاع الزجاجة من جديد؟.. هي ساعة مسافات بدون عقارب؟.. تضعيع الثواني في متاهات الدقائق وأعماق الساعات.. حتى أفقد الاهتمام بهم جميعا.. وأعط في نوم أشبه بالخيال ... أسمع ما يدور حولي ولا أعنيه.. أغمض عيني أبحث عن حلم قد يعيدني لسنين طفولتي الجميلة حيث أبي وأمي وإخوتي.. قبل أن تسرق الأيام مني بعض ابتساماتي وتهب لي الكثير من الآمال والسعادة أيضا..

تقبع الزجاجة في ركن الأيام في زاوية مظلمة لا ترى بالعين المجردة حتى أول يوم علاج .. تظهر فجأة من مكمناها.. تتراقص أمام عيني .. أسمعها تقول سأكون موطنك لعشرة أيام.. فأحبيني.. صادقيني.. وثقي بأنك ستسلقين فقراتي العشر ذات الأشواك اللامرئية وستمكنين من الخروج.. هنا فراشك.. حيث ستلحفين تارة بالألم.. وتارة سيلفك اليأس.. وتارة ستتدثرين بالأمل.. وهنيهة ستبكين.. لا تخاف دموعك.. أنت بحاجة لها.. ستدفعك باتجاه الخلاص..

..... فنجان .. قهوة ..

أجد نفسي في قاع الزجاجة .. وحيدة داخلها .. كون قائم بحد ذاته .. وفي الخارج منها يلتف حولي كونهم .. يرونني .. أكلهم .. أسمعهم .. أجالسهم .. لا يرون الزجاجة لكن يشعرون بها .. فهم أحبتي .. يشعرون ببعض ما أشعر .. كم أصلي كي لا يصلهم كل ما أمر به .. خلال رحلتي داخل الزجاجة وعنقها أحاول عزل نفسي في غرفتي .. أختبئ من عيونهم التي تسبر أعماقي وتقتلع مصادفة حمايتي لهم من حمل أطنان همي ..

لكنني بدلا من ذلك .. أنهض من سريري .. أزحف لمنزل الأمان والراحة .. أمني .. أرتمي بأحضان مقعدي المفضل .. أقول .. أنا بخير .. أغمض عيني واستسلم لنوم كالخيال .. أسمع كل ما حولي ولكنني في عداد النيام.

تختلط أحلامي مع هلوساتي وأمنياتي .. لا يهمني إن كنت أحيا حلما .. أم أن للدواء تأثيرا شقيا في صور عقلي .. أم أن ما أتمناه بدأ يتمثل أمام عيني ويتراقص بصور مختلفة ..

هاهو أبي الحبيب .. يزورني .. يجلس بجانبني ..

قال لي بوهن أثقلته أعوامه السبعون بأنفاس قصيرة لاهثة سريعة: كم أحبك يارغد. أحبك لدرجة أنني أراك في أحلامي.

..... فنجان .. قهوة ..

ازدردت ريقى أبتلع بها دمة اختلطت بمشاعر كثيرة لا أريد أن
أذكرها كي لا أفقد لذتها.

أبي .. لشوقي أين يسكن سكاكين شوق تنهال علي لتلفظني أشلاء
روح وقلب .. إنني أتألم حيننا لك ..

هل سينبت للذكرى يوما سيقانا لتلحق بظلك أينما توجهت؟ وهل
ستنطق كلماتي يوما تحاول أن تعوض خذلان حروفها عن وصف ما
أشعر به تجاهك؟

أطيل النظر به لعل أحفر ملامحه التي أعشق فأشكل بها منحوتة الخلود
أحميها في ثنايا أيامي .

ألتقط كلماتك .. أجمع ألحان صوتك لأنظم بها أحلى القصائد وأحن
النغمات ..

أنت لي كون .. عالم .. بكل بداياته وشموسه وأقماره ...
أعيد حساباتي .. دین كبير لك علي .. يتعدى ثقل الجبال وارتفاعاتها ..
غطاء نُقشت عليه آلاف المشاعر .. أتدثر به .. يشعري بالكثير .. حتى في
دینك حنون ..

أحبك وأدعو لك بالرحمة وأغبط نفسي عليك .. أنا منك ولك ...
بالأمس واليوم والغد.

حبك لي فريد من نوعه .. فكم من شخص في هذه الدنيا يحبني حتى يراني في أحلامه .

كل ليلة سأنتظرك لعل روحك الجميلة تطوف أحلامي .. كل ليلة ..
أغمض عيني لأنام .. أتمتم ... رحمك الله يا ضياء دنيائي .. أرسم ملامحك
بقلم هذبه أشواقي .. أخط حاجيك .. عينيك .. أنفك .. شفئك .. اعلم
أن أجمل ذكرياتي (بسمتك) .

أفتح عيني .. ثم أغمضها بسرعة .. أرتجي بقاء صورته .. أحاول أن
ألتقط بقايا صوته .. بضع دقائق أخرى .. أو بضع لحظات .. لا شيء ..
جاءني .. أسعدني .. ورحل ..

مع صوت أذان الفجر أسأل الله أن يكون في دار النعيم الأبدي عزيزا
رفيع المكانة كما كان بيننا .. رحمك الله يا أبي .

أحتلي بنفسي .. اختطف الثواني من أعشاشها .. أفتش حقائب
ذكرياتي .. فيروز .. أنغام البيانو .. ضحكته الصافية .. خطوط رسوماته
الجميلة .. أقلب أوراق الأيام .. ابتلت الصفحات بدموع ترنحت على
دروب الشوق .. وكأنني أسمع صوته يدعولي .. كم أحتاج إلى دعائه ..
وكم أحتاج إلى صحبته وسمره .. أحتاج إليه كل لحظة من عمري القادم
كما احتجت إلى عمري الذي مضى ..

تفاصيل صغيرة أجمعها معا لتصبح منحوتة بتفاصيله .. بكل رقيه
وعذوبته وقوته وحكمته وحنانه ...

..... فنجان .. قهوة ..

أخبروني بأن ألم الفراق يخف مع الأيام.. وأقول لهم إنه لهب يتقد
بحطب الأيام لن يخف ولن يزول حتى لو بعد العمر عمر.

• ما رأيك لو تذهبن معي للمدينة المنورة؟

بحماس أجبتي صديقتي دينا.. بالطبع.. أحلم بزيارة الرسول عليه
الصلاة والسلام.. لكن لن أستطيع السفر إلا بعد ٤ أيام كي أكون
اجتزت مرحلة انخفاض المناعة بعد جرعة الكيمائي..

قالت بسعادة: سأحجز إذن الفندق .. واحجزي لنا التذاكر..

بلهفة عاشق مشتاق انتظرت زيارتي لرسول الله.. دينا الغارقة في
حب مكة والمدينة قررت البقاء في المدينة ليلتين .. أما أنا فقررت أن
تكون زيارتي يوم الجمعة أحضر صلاة الجمعة في المسجد النبوي وأعود
للرياض بعد صلاة العشاء..

أريد أن أختزل كل لحظة من رحلتي في دهاليز ذكرياتي.. عظمة البناء
والتوسعة زادت من انبھاري وسعادي.. أتلفت حولي كطفلة في حديقة
فراشات... أحاول الإمساك بكل التفاصيل.. أتأمل الوجوه.. كل
الملامح تنطق لهفة للقاء رسول الله.. كلنا عاشقات...

..... فنجان .. قهوة ..

بعد صلاة العشاء.. فتحت الأبواب الكبيرة تدعونا لدخول الروضة الشريفة.. هل الشوق أم الحب أم اقتراب لحظة الفراق هي سبب انهمار دموعي؟ في رحاب الروضة صليت ركعتين.. سجدت لله شكرا أن منحني القوة والقدرة على زيارة الرسول عليه الصلاة والسلام..

في طريقي للمطار تساءلت: هل يكفي الإنسان بمن يحب؟ هل يوجد مستوى تشبع؟ أم أن الحب كالأفق نراه ولا نلمسه؟ للحب سبع سموات .. لم يبلغها إلا القليل.. أعلم أنني أحلق في السماء السابعة.. بين سحب من قلوب دافئة..

خلال رحلة علاجي.. كنت أبحث عن كل ما هو جميل.. فكرة.. حلم.. وجوه.. لحن.. كتاب.. لكن زيارتي للرسول عليه الصلاة والسلام كانت أجمل ما فعلت..

من كل حذب وصوب، كطبول تفرع في المآقي والآذان، كأنياب ذئاب تنهش أنامل الحياة، يتوارى بريق الروح خلف ستار لا يستر، يبحث عن ملجأ يودع فيه يقينه وإيمانه.. فلا يأتمن إلا فؤاده.

أحاول فهم كل ما أمر به من أعراض وآثار للعلاج.. كثيرة.. كثيرة.. أكثر من قدرتي على الاستيعاب.. سأحاول شرحها.. كالعقدة الكبيرة..

ذكرتني بعقدة خيوط الكروشييه حين تتشابك معا.. لكن ما أشعر به الآن أكثر تعقيدا..

نهضت من نومي بحماسي المعتاد رافعة راية «أنا بخير» لن أغير من روتيني اليومي.. صلاة الفجر.. وقت مدارس أولادي.. وعلى صوت الشيخ العفاسي يقرأ أذكار الصباح.. أشرف على إيقاظهم وتهيئهم للمدرسة.. أستودعهم الله ثم أمارس رياضتي الصباحية بنشاط.. كان اليوم السادس من الجرعة الأولى.. كل الأيام السابقة كانت محتملة ولم يكن بها ما هو مخيف أو مقلق.. كانت القارورة كريمة مضيافة رحبة القاع.. في لحظة تغير كل شيء.. حين رأيت العنق الطويل للمرة الأولى... تحت رذاذ الماء الفاتر في أثناء اغتسالي بعد ممارسة الرياضة.. زحفت على جسدي ظلال من ثقل لم أفهمه جيدا.. لم أعد أستطيع الوقوف وكأنني أحمل أطنان رمل.. لم أعد أستطيع التنفس.. شيء ما يقف حائلا بيني وبين الهواء حولي.. توقف عقلي عن الفهم.. ما الذي يحصل؟ لماذا؟ أزلت بقايا الصابون بسرعة.. توضأت بسرعة.. اتشحت بمنشفتي وهربت للخارج ألتقط أنفاسا هاربة.. لا أريد أن أقع في دورة المياه أو أفقد الوعي.. جلست.. هدأت.. أستطيع أن أصلي الضحى... فأنا بخير... الركعة الأولى صعبة لكنني أكملتها.. الركعة الثانية كدت أقع وهنا فسجدت متلقية الأرض داعية الله أن يمدني بالقوة.. تشهدت وسلمت... بوهن شديد ارتديت ملابسني وارتيمت على السرير.. منذ ربع

ساعة كنت أمارس الرياضة.. والآن لا أستطيع حتى الحركة.. بؤبؤان يتحركان هذا كل ما أستطيعه.. أحاول مد ذراعي.. لا أستطيع.. تحريك رأسي.. لا أستطيع.. على سريري.. شاخصة البصر في السقف.. أطنان من أثقال غير مرئية تثبطني.. ولا أقوى على الاعتراض... أحاول فهم ما يدور حولي وبني.. فكرت.. حاولت أن أشغل نفسي.. أشتت ضياعا.. أبدد وحدتي.. ٦٠ جرعة من العلاج الكيميائي يفصل بينها ٢١ يوما.. في كل يوم ٢٤ ساعة.. والساعة بها دقائق وثوان كثيرة.. أكثر من قدرتي على حسابها.. سأركز على عدد الأيام.. ١٤٦ يوما تقريبا حتى انتهى من زوابع العلاج.. تخيلت جدولا كبيرا به خانات.. كل خانة بها ورقة ملصق عليها رقم ابتداء من ١٤٦ وانتهاء بالصفر.. وعدت نفسي أن أسقط من كل خانة ورقة كل يوم لتمثل لي خطواتي ودربي وتقربني من الفوز والانتصار.. فهي معركة بيني وبين الكثيرين.. المرض.. العلاج.. الآثار الجانبية للعلاج.. وسوسة الشيطان.. التشاؤم.. الإحباط.. وأنا مدججة بأسلحة ستنصرني عليهم جميعا.. أولهم.. تعلقني بالله تعالى.. ثقتي عمياء.. تشبثي بحبال أمل من نور يذكرني بأرجوحتي حين كنت طفلة.. دائما تبعث السعادة والضحك.. حضوره سبحانه وتعالى لمناجاتي ليلا.. ثم أتذكر رضا والداي.. وجود أُمِّي.. زوجي.. إخوتي.. أبنائي... هل علمتم من سيكون الفوز حليفه بهذه المعركة؟ هي أرقام.. وساعات.. وأيام.. منها ما سيمر سريعا ومنها البطيء.. منها الصعب

ومنها السهل.. فيها ألم وفيها ضحك.. فيها أمل ولا مكان فيها لليأس.. صعود وهبوط معنويات كإنفاسي التي بدأت تنتظم.. كأطراف أصابعي التي بدأت أشعر بحركتها.. حتى دبت الروح في مرة أخرى واستطعت انتشال نفسي بروية بدون أي أصوات من الممكن أن توقظ الغول الذي استولى على كياني وهربت لحضن أمي أشتكى لها منه.. حملت مغارف الهم والخوف من قدور نفسي وصبيتها تحت أقدام أمي فسالت جداول أمل وراحة... أدركت حينها أنني في قارورة.. وأن عليّ صعود عنقها الطويل.. إن كنت أريد الخلاص.. وأن هذه كانت أولى فقرات التعارف.. وأن المسألة برمتها مسألة وقت لا أكثر. زالت الآلام وسكنت النفس ونسيت أو تناسيت كعادي.. لا يهم أبدا.. ولكن يهمني في آخر الأمر أن أبقى الابنة والزوجة والأم والأخت والصديقة لكل من هم حولي.. ولنفسي أيضا..



للحياة دروب طويلة وقصيرة.. متشابكة.. نسير بها دون تخطيط مسبق منا.. نعرف الطرق باللاوعي.. لا إشارات.. بدون خرائط.. بمركبة تحمل معنا ركاب غيرنا.. محطات تقابلنا.. يهبط عندها البعض ويبقى البعض.. منهم من نحبههم.. ومنهم من يصعب علينا فراقهم.. ومنهم من نتظر لقاءهم.. منهم من سبقونا.. ومنهم من نسبهم للمحطة الأخيرة.. بعض الدروب بها علامات توقف.. نقف عندها.. نلتقط

..... فنجان .. قهوة ..

أنفاسنا.. نعيد حساباتنا.. نتزود بوجبات سعادة.. أو نلقي بمهمات
هم ليخف حمل الطريق.. في درب المرض صادفتني محطة سميتها نور..
انتهت الاختبارات الفصلية.. ستبدأ إجازة نهاية العام بعد تعب فصل
دراسي.. كانت سكرات المرض فيه تحديا كبيرا.. فأنا الأم والمعلمة في
البيت.. وأنا المريضة في دهايز المشفى.. وبين هذه وتلك انتهت الفترة..
اليوم تسلم الشهادة..

- نور .. حبيتي .. هيا استيقظي كي تذهبي لتسلم الشهادة..

ابتسمت بسعادة.. فركت عينيها.. قالت: ستذهبن معي؟

- سأنتظرك هنا.. اتفقنا؟

- اتفقنا...

لم أكن قادرة على الذهاب معها لتسلم الشهادة... كان التعب
شوالا أحمله فوق كتفي.. يعيق حركتي في درب المرض.. انتظرتها..
دخلت تركض سعيدة.. تلوح بالشهادة قائلة: الأولى.. نجحت..
وترتيبي الأول..

توقفت في محطة نور... امتلأت دنياي بسعادة النجاح.. دمعت عينا
فرحا.. سجدت لله شكرا أن فتح لي منفذا للسعادة.. تنفست فرحا..
طربت سعادة.. لا يوجد حزن ولا مرض ولا تعب أبدي.. هناك رحمة

..... فنجان .. قهوة ..

وطاقات فرج وحمام سعادة وأمواج أمل مرسله من الله أن شرعنا أبواب
قلوبنا ستصبح من نصيبنا وتكون مراكبنا في دروب الحياة.

اليوم ليس زمنا لكأس الأمل.. لن يجدي.. ولن يفني بحاجتي.. ولن
يروى ظمئي.. لدي زجاجة ملاءى بالإيمان.. وتفويض الامور لمن بيده
الأمر كله.. ملأتها بدموع الرضا والحب والتوكل والامتنان وحسن
الظن بالله تعالى. ملأتها بأسماء من أحب ومن كانوا معي في كل لحظة..
يحسبون لي أيام التعب بعد العلاج.. تصبح أنفاسهم قصيرة متتالية
خوفا علي.. عندما يرونني تضيق عيونهم.. يتفحصونني.. يقرءونني..
يعرفونني.. أنت اليوم تعب.. أو الحمد لله أنت اليوم أحسن كثيرا.. أو
اليوم هو الخامس من التعب.. هانت.. بضعة أيام أخرى ويزول الشر..
وأجيب بالتأكيد دائما... فهم دائما على حق..

الأيام خلال العلاج الكيميائي كون صغير قائم بحد ذاته، بين كل
جرعة وأختها ٣ أسابيع، وتبقى الآثار الجانبية بين ٣ أيام إلى أسبوعين
كحد أقصى تزيد مع عدد الجرعات.. والأسبوع الثالث ألتقط فيه أنفاسي
المتعبة من أرضها.. وألملم قوتي قطعاً منشورة من حبل غسيلها.. أقطف
أنفاساً من زهور العطور.. وأخطف أطيب الأكل من شجر القدور..
أملأ فمي لضحكة كبيرة.. وترسم على شفتي ابتسامة صُنعت بيد فنان

اسمه الرضا.. تصبح الحياه شفافة سهلة بسيطة قريبة جميلة، كل ما فيها كالحلم الوردي.. أسبوع من غسل.. يصبح العالم جميلا بالرغم من حروبه وأمراضه وسرقاته وأنفس شياطين تقمصوا أجساد بشر.. ألبس نظارة التفاؤل وأسير دروبا من أمل.. وفي ركن الأيام يقبع منبه كبير له صوت ناقوس خافت يحصي الأيام والدقائق المتبقية للجرعة التالية.. صوته يكدر صفائي.. أختار طوعا أن أسمع بدلا من قرعه المزعج حكايا والدتي التي أدمنتها.. أجالسها.. أطلب منها أن تقص لي حياتها وهي صغيرة .. تحدثني عن جدي وجدتي وعالم عشقته من صوتها وطريقة سردها.. تحملني بحنان لبيتها الذي ركضت فيه بين الغرف لالعبة... أزقة حارة حفظت حجارها وأبواب بيوتها.. حين كان للرجولة والأنوثة والخيبة والحب والصدقة معان مختلفة..

بجانب المنبه الذي لا أحب أرى عمالا وهم يبنون زجاجة جديدة.. يحضرونها لي.. ستكون زناناتي بعد أيام.. أو لحظات.. وسأبقى فيها حتى أتسلق عنقها وأنجو من ضيقه.. بعد أسبوعين أو أيام.. كل جرعة زجاجتها مختلفة وغير متوقعة.. لكنها جميعا تتكون من قاع وعنق.. الأعناق منها الطويل ومنها القصير.. والخروج منها جميعها مضمون.. لأنها مفروشة بأثاث صنع من دعاء الأحبة.. فهذا سرير من أمي.. وكروسي هزاز من أختي.. ومراة من ابني.. وأصيص زرع من أخي.. وورد من صديقتي.. وورد آخر من صديقتي الأخرى.. وقرآن

من زوجي.. ودب أحمر من ابتتي.. ولوحات من رسومات أبي..
ووسائد من خالتي.. وإيشارب من قريتي.. وثريا من أصدقاء كثر
صنعوها معا تدلت من سماء الزجاجاة بنورها الأبيض الهادئ لتنير ليالي
التي غاب عنها قمر الصبر.. خزانة كبيرة امتلأت ملابس نسجت من
أدعية وخيطة بخيوط من الرجاء ملونة بأبهى الألوان لتستر عري
نفسي إن خلعت الرجاء يوما.. صنعها لي كل من دعا لي بظهر الغيب..
أو تذكرني في ليلة خشوع أو في صحن الحرم المكي أمام الكعبة المشرفة..
أنا أعرف أنهم كثر... فخرانتي ممتلئة وكبيرة.. الزجاجاة طليت جدرانها
بابتهالات ودموع كونت نتوءات مؤلمة شائكة لكنها ثابتة تساعدني في
تسلقها.. مع كل حركة تدمي أنا ملي وقدمي.. أسمعها تهمس لهم.. لا
عليكم من الدماء.. تجاهلوا الألم.. كل قطرة دم تعني اقتراب الفرج..
تعني الحرية.. تعني النور والفرح.. واستمر.. وأقرب من الفوهة..
وأقرب أكثر.. وأكثر.. وأصلي..

في لحظة.. فجأة.. وبدون أي مقدمات أو تمهيدات أو إشارات أو
تنبيهات أجد نفسي أسيرة الزجاجاة.. بذهول أتطلع حولي.. أستكشف
موطن أيام قادمة صعبة.. لا أعلم حقا إن كنت هبطت للقاع أم أن
الزجاجاة استوطنتني.. أول مرة حللت ضيفة فيها لم أفهمها كثيرا..
خفت.. توجست.. وحدة.. عتمة.. وحشة... وحدي في الداخل

والكل خارجها.. وقعت أسيرة الذهول.. على السرير تجمدت أطرافي..
بؤبؤان يتحركان يميناً ويساراً أعلى وأسفل.. بطرف عيني أقرأ عقارب
الساعة.. رويدا رويدا.. بعد ساعات حسبتها عمرا.. عادت الحياة
في جسدي.. تحركت نهضت هرعت لحضن أُمي.. أحتمي بها.. حبها
درعي.. واطمئنتها حصني.. وهدوءها أمني... ومع كل ذلك..
فجأة.. وجدتي أعود لقاع الزجاجة.. لحقت بي حتى في منزل الأمان
والحماية.. وعرفت أنها ستلازمني لكن إلى متى؟ هذا ما لم أعرفه طوال
فترة علاجي.. كأرجوحة غدوت لعبةً للزجاجة.. تارة تحملني عالياً..
وتارة تنزل بي حتى أكاد أرتطم بالقاع.. إن حصل التصادم فسأصبح
ألف رغد.. من سيكون فتاتي؟ من سيلصق قطعي الألف؟ من سيبحث
عن قطعة مفقودة ليحرص على اكتمالي ثانية؟ ولم أتفاجأ بعد ذلك.. في
كل جرعة علاج كنت أرتطم وأتفتت وأكنس وأُجمع وأُصق.. وأعود
لسيرتي الأولى من جديد.. لملتني أُمي مرّات.. ومرّات كثيرة زوجي..
وإخوتي وصديقاتي كنّ يجمعنني في حجرات قلوبهن الدافئة ويلصقن
قطعي بغراء الأمل والحب.. أما أولادي فتارة يكونون القاعدة التي ثبت
نفسي عليها كي لا أقع من جديد.. وتارة يغدون كسدٍ أختبئ خلفه بزهو
من كل ما لا أحب.. وتارة يغدون كشعلات تضيئ لي الطريق الآمن
الوحيد في مدينة سميتها قاع زجاجة.. لا يقطنها إلا أنا وخيالات وأفكار
كثيرة.. أعيش فيها عمرا كاملا من أيام..

أبحث عن سجادة الصلاة.. أجدي حملتها تحت ذراعي.. أحتاج للصلاة .. أبحث عن القبلة.. أعرفها جيدا.. أتجه للقبلة.. أفرش السجادة.. أثبت الغطاء بإحكام حول رأس تخلى عنه شعره فبات موطنا للصلع .. الله أكبر.. وبدأ الشيطان يوسوس في عقلي.. هل أنت متأكدة من وضوئك؟ متى؟ ألم تنامي عندما كنتي مرتمة بأحضان الوهن فوق السرير؟ أو على مقعدك المفضل أمام أمك؟ أليس النوم مما ينقض الصلاة؟ أنذكرون أن طيف والدك كان يحوم حولك منذ برهة؟ أليس هذا ما تطلقون عليه الحلم؟ أسلم يميناً ويساراً وأذهب للوضوء.. وأعيد الصلاة .. صلاة الضحى.. وصلت لقراءة سورة قصيرة.. على غير العادة قرأت آخر آيتين من سورة البقرة في الركعتين الأولى والثانية.. وقرأت سورة الانشراح.. كان أبي يردد هما دائماً في صلواته.. كل حرف وكل معنى وكل دعاء وكل تذكير سيطر على روحي... أحببتهما وكأنني أقرأها لأول مرة.. في ذلك الركن كنت أشعر بوجود الله .. في صلاتي ودعائي كان أمام عيني.. لا أراه... لكنه جل وعلا يسمعني.. والملائكة تحفني من كل جانب تؤمن على دعائي.. أمسح دموع الرجاء وأسجد... السجود عالم آخر.. يحملني الدعاء كبساط الريح .. يطير بي فوق ذلك العالم.. أدخل غلافه.. أجد أشجار من البركة وبحيرات من المغفرة وثمار من الاستجابة.. لا أريد العودة لعالم الزجاجة.. فعالم السجود أجمل كثيراً.. ولأن لكل شيء نهاية انتقل من عالم لآخر وأختم صلاتي.. وأجلس في موضعي.. دعاء..

..... فنجان.. قهوة

تسبيح.. رجاء.. لا أريد النهوض.. قصيرة هي الصلاة.. ومريحة.. أريد أن أبقى في حضرة الله تعالى.. وأتقرب من جل جلاله.. ويأتي الوهن وتضعف عضلاتي حتى وأنا مفترشة الأرض.. تنمل قدمي تستجدياني أن انهضي إلى السرير أو إلى ذلك المقعد.. كلما نهضت تدور بي الدنيا وتسحبني للأسفل.. إحساس غريب مقيت.. وأكابر.. وأتجاهل... وأردد.. أنا بخير.. أستلقي بخضوع للوهن... وأفقد السيطرة.. وأعود لقاع الزجاجة... دون مقاومة.. وبنفس الذهول.. أعط في نوم عبارة عن مزيج من الاستسلام لله و تمنى أن تمر الدقائق لأجتاز أيامها...

في القارورة.. الصلاة لها طقوس مختلفة.. تارة أصلي قاعدة.. وتارة واقفة.. لكن لا أستطيع السجود.. وتارة أقاوم وأصلي واقفة أرتجي أن تلامس جبعتي الأرض.. قد أصلي أول ركعة واقفة ثم أرتمي على مقعدي الذي جعلته خلفي تحسباً لهروب قوتي من أرجلي... لكل صلاة شكل مختلف.. لكن... عندما يشتد بي التعب.. تتداخل الآيات وتختلط السُور.. وقد أنسى كلمات كانت نقش جدران فؤادي.. وأعيد القراءة من جديد حتى أرضى عما قرأته وعما وعيته من الصلاة.. وأثق بأن الله تقبل مني كل صلاتي ودعائي.. أشعر به سبحانه وتعالى هناك عاليا.. أشعر بالكثير من صفاته وقد أظلمتني بستار من الطمأنينة والرضا..

كالعلق تلتصق بي أفكارى السوداء تمتص دماء الأمل . أهرب منها .. لا أستطيع ... أختبئ .. تجدني .. تحت رذاذ الماء الحار أغتسل .. لعلها تتساقط عني .. وتبقى .. تنتعش .. تغلي .. أخرج مسرعة .. أرتدي منشفتي .. أتلحف بشرشف الصلاة الكبير .. الله أكبر .. تهجم بشراسة .. لا ترحمني .. تطوف داخل عقلي وقلبي .. تبهر في عروقي .. أبكي بحرقة .. تملكيني الخوف من نفسي وأفكاري .. سأقع فريسة فقر الأمل .. أسلم يميناً ويساراً .. خوفي يشل أطرافي وعقلي .. خوفي المتصاعد كبركان يثور ما بداخله ويتصاعد حتى يقذف حممه في كل حذب وصوب ليحرق حقول عمر كامل زرعتهها ببذور ضحكات أولادي البريئة وأحلامهم الوردية ..

يتضخم الخوف ويكبر .. يصبح غولا متلبسا أعماقي .. هيئته مرعبة .. أتعر هرباً منه .. أسقط .. أنظر لذلك العملاق الذي كان علقه .. شعر بجداول القلق .. عينان بحدقتين مظلمتين .. أحاول أن أصرخ خوفاً .. عاجزة .. ضعيفة .. أعني جيداً أنني لا أملك أمر نفسي .. خلية عجفاء قلبت حياتي رأساً على عقب .. لم تبق ولم تذر .. بقايا جسد قطعه مبضع جراح .. أعتبر جسدي أرض معركة قرر الانتصار فيها فأقتلع الخير والشر .. ونفسا شردها الخوف من الغد .. لحظات ضعف عصفت بي أحالتني رمادا يتطاير في سماء دنياي .. يا الله .. كلمة نطقها بشفاهي وعقلي وقلبي وبكل قوة إيماني .. صحت .. يارب .. من ضعف لقوة .. ومن خوف لجسارة .. ومن رماد لشعلة من رجاء .. أرفض أن أودع

..... فنجان .. قهوة ..

نفسي قبر اليأس .. فأنا جبل من أمل .. وأنا سحب من أمنيات .. وضعت
مارد الخوف على مقصلة جلادها .. ثقتي بالله .. وانتهيت من وسواس
خناس .. كورته وقذفت به بعيدا جدا ..

سجدت داعية: ربي وإلهي .. سيدي وخالقي .. يا من كتبت لي المرض
وكتبت لي معه الرضا والشفاء .. أسالك أن تمنعه عن بناتي وتبعد عنهن
أي شر أو مكروه .. وتحمي كل من أحب وسائر المسلمين .. بيدك الأمر
كله .. سلمتك واستودعتك نفسي وجسدي وأفكاري .. يا من لا تضيع
عنده الودائع .

بعدها .. نمت كما لم أنم أبداً .. أتلحف ابتسامة رضا .. وأعانق وسادة
الأمل بالله ..

جدتي رحمها الله .. توفيت منذ زمن بعيد .. ذكرياتي عنها ومعها جميله
بريئة كطفولتي . تذكرتها اليوم .. كنا نتحدث عن حب الحياة .. أحببت
الناس والطرب والضحك والعطور والكلمة الحلوة والمعنى الأصيل
والزهر ونسيم الصباح وقمر الليالي .

كل صباح تشرب قهوتها في تراس بيتها الكامن في أعلى إحدى بنايات
حلب الجميلة . ذاك التراس كان عبارة عن حديقة مملوءة بالزعر والزهر
وتوسطه نافورة تدندن ألحان محبة وسعادة وشوق .. تمشي ببطء تبحث
بين أصص الزرع عن زهره تلتقطها تزين بها شعرها .

..... فنجان .. قهوة ..

ذات صباح لم تجد أي زهره أو وردة أو فلة .. ابتسمت .. مدت يدها بكل بساطة .. والتقطت ساق جرجير أخضر .. ضحكت ثم شبكته في طيات شعرها وثبته بإحكام خلف أذنها كي لا يقع.

توفيت جدتي وبين طيات كفنها نثرت بذور السعادة الصافية والبسيطة ومحبة .. نعم الله بدون فزلكات عصر وضعتنا وفق جدول تصنيفات ومسميات وأجبرتنا على الانحياز والتعصب فأضاعتنا .. لنرفع قبعاتنا احتراماً للحياة .. وليكن شعارنا الأمل .. الابتسامة .. الحياة ..

عدل هو الله، ميزان حق في الحساب، إن أخطأنا جوزينا بقدر الخطأ، وفي الوقت نفسه هو جل جلاله الكريم الوهاب إذا جاء وقت الجزاء ضرب الحسنه بعشر وأنبثها سنابل تنثر الخير لصاحبها ومن حوله ..

معادلة لا نجد لها إلا عنده سبحانه وتعالى .. عندما شعرت بإصابتي بالمرض للمرة الثانية كانت في أواخر شهر يناير من عام ٢٠١٧ . اليوم ٤ يوليو ٢٠١٧ أنهيت العلاج الكيميائي .. الحمد لله .. وسيبقى آثاره ضيفا علي .. يزيدني رفعة عند الله .. ويقربني منه أسبوعان .. أي بنهاية شهر يوليو .

..... فنجان .. قهوة ..

كم أنت عدل يا الله... نصف السنة تماما.. ستة أشهر.. وسيكون
النصف الثاني أجمل من كل السنوات السابقة.. هكذا هو ظني بالله...
وهكذا أريده أن يكون... فالحمد لله على عدلك ياربي... الحمد لله على
كرمك... الحمد لله على رحمتك بنا.. وأتذكر نصف الكأس الممتلئ
والنصف الفارغ.. أول دروس الحياة التي علمها لي والذي رحمه الله وأنا
في الثانية عشرة من عمري..

بمفتاح الصبر أفك قيود المرض الضخمة المجدولة حول معصمي
وكاحلي.. وأخلع رداء الوهن الثقيل.. ورداء المناعة التي تهرب متوارية
من جسدي حين ينقض العلاج فيتمشى متبخترا في أوردتي بزهو بحصده
كل ما يأتي أمامه.. يفقد صوابه.. فلا يفرق بين عدو وحبیب.. أوليست
الحرب؟.. رداء يلف لساني بسيطا تطلق طوال الوقت.. طعم معدن
ومرارة فيتغضن أنفي امتعاضا.. وتلتوي شفتاي حزنا.. وأبتهل في
صمت: هانت.. وأعد الأيام المتبقية في الزجاجة... هأنا أخلع رداء العرق
المعبق برائحة العلاج الكيميائي.. له رائحة مُرّة كطعمه.. لا ينضب..
لا يتوقف.. ينشط ليلاً.. مسام رأسي القاحل تبث العرق لتجعل من
مخدتي مسبحا أغرق في قطراته ورائحته.. لا أقوى على الاحتمال.. أنهض
أغسل رأسي بصابون كنت يوما أعشق رائحته.. تغيرت كل الروائح من

..... فنجان .. قهوة ..

حولي.. غدا ثقيلًا صعبًا لا أقوى على تحمله.. أنظر لمخدتي الغارقة..
أبعدها.. وأضع واحده جافة.. مخدتي الوفيتان.. صمدتا لآخر لحظة..
عنوانا للصبر والتضحية.. بعد قليل ستكون الأولى جفت والثانية بُلّت..
وسيتبادلان الأدوار حتى آخر ليلة لي في زجاجتي المنيعة..

قد يكون الرضا ببسمة طفل أو نظرة حب أو قطعة خبز طازجة..
من ومضات طفولتي التي أعشق.. حين كنا نقف أمام المخبز نشترى
خبزًا نلتفقه.. نبسم بسعادة ونفتح كيس الخبز الحار ونبدأ بأكله.. نتذكر
أن نقول بسم الله الرحمن الرحيم قبل أن تنتهي الأرغفة بلقمتين.. وقد
يتمثل الرضا بالإحساس أو بدمعة أو بضحكة أو بكلام لا معنى له أو
منطق.. يغمرنى الرضا من رأسي حتى أخمص قدمي فأسبح في أمواج
نعيم خُطّت في صفحات من كتاب أقداري بقلم الرحمن الرحيم.. ربي
لك الحمد ولك الشكر.. فأنا كنت.. وسأبقى راضية.

اليوم جرعتي السادسة والأخيرة.. اليوم بداية المفاوضات لإعلان
الهدنة بين روحي المتطلعة للكمال وجسدي الممزق والسرطان.. حين قال
لي الطبيب موعدك القادم بعد ٣ أشهر بدلا من ٣ أسابيع سمعت مزلاج
وعكتي ينزلق ويتفتت ليصبح بذور زهر ربيعي له شذى الفردوس..
غدوت حرّة.. ابتسمت.. نصرًا من الله.. وابتسمت.. رضاً وثقة بالله..
تذكرت الآية القرآنية التي يرددها زوجي دائما (إن ينصركم الله فلا غالب

لکم).. فالحمد لله حمدا ملؤه السماوات والأرض. بين الخوف من آثار الجرعة والسعادة لانتهاء العلاج مشيت بثبات ونصف ابتسامة خلف الممرضة.. في غرفة العلاج جلست بنظري أبحث عن النافذة.. حمدا لله غرقتي بها نافذة كبيرة تطلع على حديقة المستشفى التي طالما أحببتها وركض فيها أولادي صغارا.. ألم أخبركم سابقا بأنني كنت أعمل في المستشفى؟ تحديدًا في قسم الأورام؟ ليست سخرية.. إنما أقدار.. لم يتغير شيء منذ استقالتني.. الأروقة.. الممرضات.. الأطباء.. كلهم تجمعني بهم أجمل الذكريات والمشاعر والاحترام.. في غرفة المنسقة.. كان الاختلاف الذي أدمع عيني.. قلت لمنيرة.. كنت أجلس سابقا بجانبك.. واليوم أجلس في الطرف الآخر من المكتب.. فرق بسيط كبير.. وكأن سطح المكتب يمثل هوة عميقة لم أعد قادرة على تخطيها والعودة لحياتي السابقة.. لكنني كما قلت منذ بضعة أسطر.. وبضع صفحات وبضع جرعات.. إنني راضية..

في وسط الزجاجة.. هل أقف.. أطيّر؟ أم أرقص؟ هل يهم؟ أبدا لا يهم.. المهم أنني في وسطها الآن.. أستعد للرحيل.. أخلع عن جسدي أسما لا من أدوية وحبوب ارتدنتني طوال ستة أشهر.. أغتسل بالأمنيات.. أتعطر بدخون الفرح.. أضع تاج الصحة على رأسي من جديد.. أيام وأغادر الزجاجة بإذن الله.. أنتظر ظهور منابت شعري من جديد بفرح.. سيكون أبيض اللون كالمرّة السابقة.. ثم سيعود للونه أو بعض منه.. وأنظف مرارة غلفت فمي وأسنانني بسواك الحمد ما حييت.. وأشذب

..... فنجان .. قهوة ..

أظفاري بمبرد من اطمئنان.. وأطليها بطلاء الحياة.. سأضع رموشا من
دلال.. وأكحل عيني بكحل أسود لتتلاأ السعادة نجوما فيه.. وألبس
كل ما هو زاه وجميل.. يجب أن يليق بالنجاة.. النجاة كالولادة.. ولدت
من جديد.. أمر يستحق الاحتفال..

للذكرى وجوه كثيرة.. في كل وجه فم يهمس في أذن العقل تفاصيل
الذكرى لتبقى حاضرة في أذهاننا.. تارة تكون مضحكة وتارة حزينة
مبكية وتارة يتبدل الشعور ونفقد الإحساس نحوها.. هذا تحديدا ما أشعر
به تجاه أيامي في المستشفى.. منذ دخلته كموظفة حديثة التخرج حتى
اليوم.. أروقته شهدت ضحكاتي ودموعي.. آمالي الكبيرة وإحباطي..
كل ذكرى جميلة اقتسمتها مع صديقاتي.. صديقات العمر.. ورفيقات
درب العمل.. اجتهدنا ونجحنا.. حققنا آمالنا.. وكبرنا معا.. حين
مرضت.. اقتربن مني أكثر.. تألمن لألمي.. جلسن بجانبني على السرير..
أمسكن بيدي.. ابتسمن لي.. غدا للذكرى مرضي وجوها مبتسمة وقلوبا
من ياسمين عطر نقشت عليها أسماء صديقاتي الوفيات..

سنة أشهر مرت منذ نهاية العلاج .. سعادتي بالحياة تطفئ على
إحساسي بانسحاب كتائب العلاج الكيميائي من جسدي التي خلفت

..... فنجان .. قهوة ..

وراءها ذكرى انتصاراتها على عدوى السرطان .. فكل ما فيّ يصرخ فرحا ويرقص طربا مهللا لوصول تاج الصحة .. بكل فخر أقول إنني نجوت من السرطان .. للمرة الثانية بفضل الله .. كامرأة مقاتلة في حلبة ضيقة .. شددت شعره .. قضمت ساعده .. لويت ذراعه .. ثبته أرضا .. رفعته .. أوقفته أمامي .. وضعت عيني بعينه .. أوجعته لكما .. ركلته بعيدا .. قوية أنا .. فالله هو الحكم والمخلص ..

كل يوم احتفال .. أقف أمام المرأة .. أدقق .. ما الجديد؟ نبت شعري من جديد .. أحتفل وأحتفي به .. أهلل وأكبر .. وأشكر الله .. يوم آخر .. أستطيع رؤية رموشي ... أحتفل .. أشكر الله .. أضع بعض الماسكارا .. بالرغم من قصرها الشديد .. سعيدة أنا بها .. فخورة .. أحتفل .. أهلل وأكبر وأشكر الله .. يوم آخر .. حاجباي .. أخاطبهما .. أهلا وسهلا بكما من جديد .. افتقدتكما كثيرا .. أرمي قلم رسم الحواجب .. لا حاجة لي به بعد الآن .. أرفعهما عاليا .. ثم أخفضهما .. أرقصهما بسذاجة .. أضحك .. سعيدة أنا .. أحتفل .. أهلل .. أكبر .. وأشكر الله .. يعود وجهي لطبيعته رويدا رويدا .. يتخلص من آثار الكورتيزون .. يخف تورمه .. بدأت أعرف على وجهي من جديد .. أعرفني .. هاهي رغد تظهر من بعيد في انعكاس المرأة .. كل يوم تقترب أكثر .. وكل يوم أحتفي بنفسي .. وكل يوم أشكر الله .. وأشكر الله .. بات للحياة طعم مختلف لا يدركه إلا من كاد يفقدها .. كشعور أم للمرة الأولى .. تحب وليدها

..... فنجان .. قهوة ..

وتخاف أن تفقده.. تنهض من النوم كل بضعة دقائق تطمئن عليه.. تقترب من وجهه.. تحبس أنفاسها لتسمع أنفاسه.. ثم تزفر حمدا لله أنه بخير.. بقايا حشائش قلق برية تنبت بعشوائية في نفسي بين الحين والحين.. بمنجل الاستغفار والتوكل على الله أقتلعها من جذورها.. فتربتي ليست موطن لحشائش سامة تتسلل لتقضي على زهور نفسي.. أو لتغزو جذور إيماني بالله..

أقف على تلال عمري أرى سورا يفصل بيني وبين أعدائي.. المرض.. الخوف.. القلق.. أراهم أشباحا يراقصون خلف ذلك السور.. بانتظار ظهور ثقب ليدخلوا أرضي.. يغزوني.. يعيشوا في حياتي وعمري ما شاءوا.. رافعة الرأس أمامهم.. خافضة الرأس أمام الله.. رافعة كفي له.. هذه أسلحتي.. بها انتصرت المرتين الأولى والثانية.. أعني وجودهم.. أحذر منهم.. لكنني تحصنت منهم بسور من الإيمان والثقة بالله تعالى.. يا الله.. خالقي ومدبر أمري.. يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين..

نهاية قصتي لم تحن بعد.. فما زال لدي الكثير من الوقت.. الكثير من الأيام لأحيائها.. الكثير من الأهداف.. الكثير من السعادة.. لن تنتهي القصة اليوم.. لا أعلم متى.. قد تكون بعد سنين طويلة.. هذا ما أتمناه..

..... فنجان .. قهوة ..

وهذا ما أريده.. لن تكون نهاية مخزنة أو مفرحة.. هي النهاية الطبيعية
لكل المخلوقات.. حين تنتهي أيامي من هذه الحياة ويحتضن جسدي
التراب.. ستكون روحي بين يدي خالقها الرحمن الرحيم.. سأشتاق
لأحبي في الدنيا.. لكنني آمل أن ألتقي أحبة لي سبقوني.. أبي.. أختي..
جدتي.. عمي.. جدي.. أعلم أنهم بإذن الله في جنات النعيم ينتظروننا
جميعا لنكون معا من جديد..

في الموت وما بعده لحظات فرح خالدة.. عجباً لمن يخافونه...
لكن هذه الصفحات لن تكون عن الموت وإنما الحياة.. لنحيا أيا منا
ونعشق ماضيها ونحلم بمستقبلنا..

رغد السعد

٢٠١٨/٢/١٥



مع نفسي

لن تكون رجلا.. إن لم أكن لك امرأة



الحوار كالتالي

الزوج لابس ومتعطر.. وعود وبخور طالع من الغرفة لا يلتفت يمينا
ولا يسارا

أنا وأولادنا جالسون في الصلاة

مر علينا قال بسرعة:

- يا الله أنا بطلع

ما وقف ولا سمعني أقول : في أمان الله.

اليوم وأمس وقبله كل يوم المشهد نفسه يتكرر. ونفس الحوار.

أتبعه بنظري إلى أن يخرج باتجاه السيارة .. أسمع صوت المحرك.. يأتي
من بعيد صوت محمد عبده يدندن على أنغام العود في جلسة (صوتك
ينادينني)

انظر لأبنائي .. هم لا يدركون وأنا أعاند إدراكي بأن شيئا ما في هذا
الحوار خطأ... من غير الممكن أن تتمحور الحياة الزوجية على بضع جمل
بترت مشاعرها وعلقت على مشارب السنين..

غدا سأسأله وأناقشه وأطالبه بحقي في الحوار ...

وغدا ..

الصالة .. هو يخرج مسرعا .. يتمتم بأنه خارج ...

أقفز خلفه راكضة ..

فلان

لا يلتفت ... يسرع أكثر نحو الباب ...

فلان ... أناديك ليش ما ترد ...

يقول بسرعة: مستعجل .. خير ..

- أبغا أكلمك ... اصبر شوي ..

يقف فجأة ... يلتفت .. أقرأ في عينيه نفاذ الصبر .. أتردد .. أتذكر

وعدي لنفسي وقراري ..

استجمع هدوئي ...

قال: إيش عندك؟

قلت : أبغى سلامتك بس حبيت أسألك فين رايح ؟

يجمع حاجبيه عابسا ... يضخم صوته غضبا ... - ومنذ متى تسأليني

وين رايح وين جاي؟

- عادي يعني ... أسأل عنك .

- منذ متى الحرمة تسأل وتحاسب زوجها؟ هزلت ..

خرج ... ابتلعت سؤالي ودمعة قهر ..

بعد ساعات ..

أنا على السرير ... يطوقني ظلام الليل ... أنتظره ..

دخل .. الساعة ١ بعد منتصف الليل .. قلت:

لك عندي كلمتين ..

لن تكون رجلاً إن لم أكن لك امرأة

- من فين جبتي هالفلسفة؟

- هي مو فلسفة قد ما هي احتياج وإحساس

- ينتهي الاحتياج والإحساس لما يكون في كلامك تعدي على رجولتي

- وهل تهدد الرجولة بسؤال؟

- فريقة ورايقة ما عندك سالفة .. نامي ولا عاد تستجوبيني ... أنا

زوجك ولي حق القوامة وأفعالي ما هي موضوع نقاش ولا مساءلة ...

- انظر نحوي ... ضع عينك في عيني ... لم أنه كلامي .. أراد أن

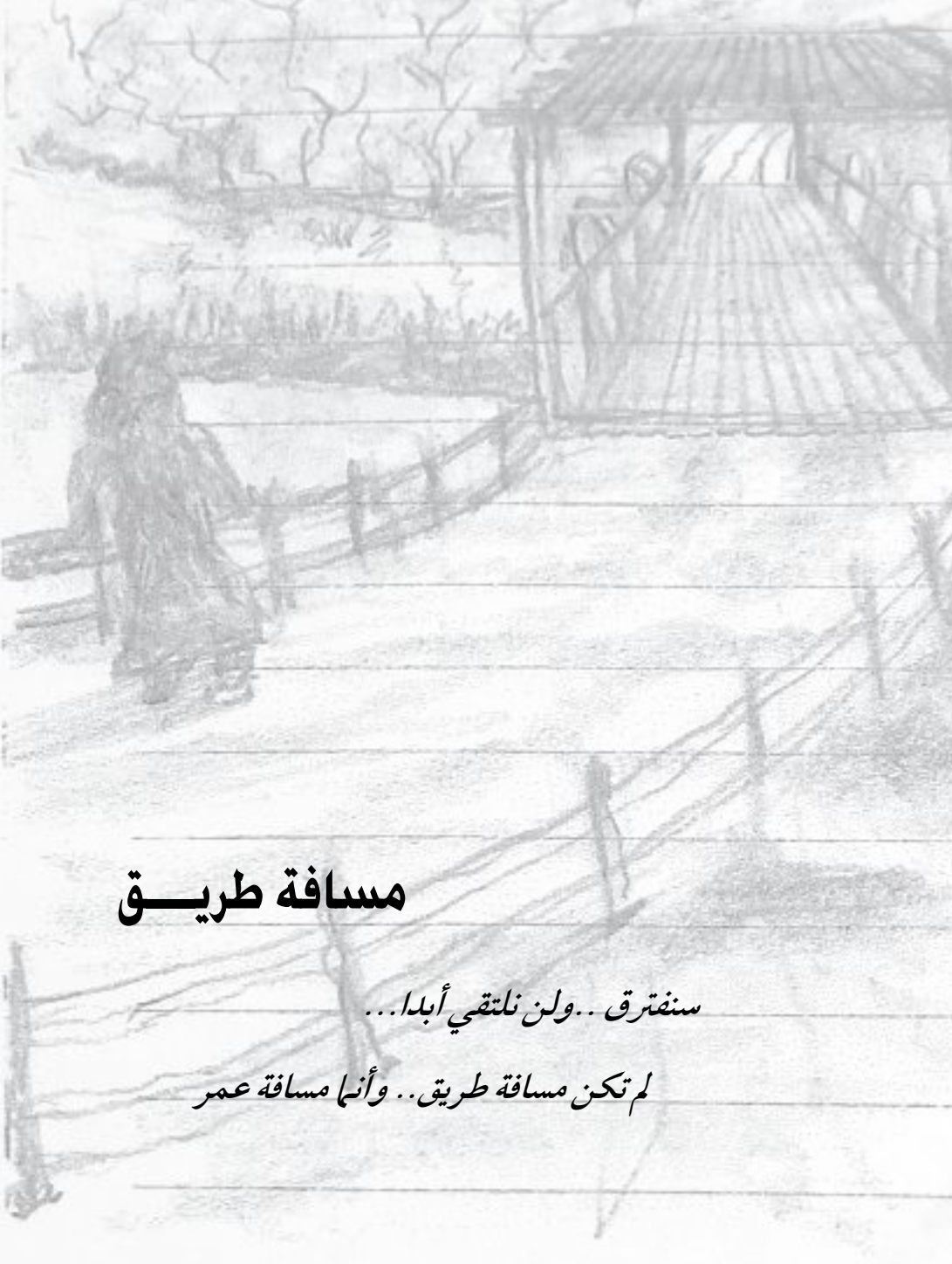
يقاطعني .. أكملت بحزم ... لك أن تختار .. حب أو لا حب ... مع

حبي لك يأتي اهتمامي وليس فضولي .. خوفي عليك وليس قلقي منك ..

..... فنجان .. قهوة

بسؤالى عنك أبني قناطر مكسوة بدعاء أن يحفظك الله لي .. أنا قسمتك
وأنت نصيبي ... أنا بيتك وأنت سكني ... أنا سهاؤك وأنت مطري ..
فهمتني؟ دع عنك عباءة ملطخة برجولة مقلدة ... اكسني بدثار باطنه
دفع الحب وظاهره الأمان ..

حوار لم يتعدى هذه الصفحة ... الأسئلة والأجوبة تدور كعربات
قطار على سكة مهترئة تتأرجح بين أفكارى ... استسلمت للنوم ...
غدا .. يوم آخر .. أعدك يا نفسي بأن أحاوره وأكلمه ... و يمر العمر
وتبقى نفس الأسئلة والحوار والمشهد يتكرر دون كلل أو ملل ... ولا
أفقد الأمل ..



مسافة طريق

سنفترق.. ولن نلتقي أبدا...

لم تكن مسافة طريق.. وأنا مسافة عمر



الإشارة حمراء.. علينا التوقف.. هداً من سرعة السيارة حتى توقفت تماماً.. نظرت له بطرف عيني.. لا أريده أن يسألني لماذا أنظر إليه.. لا يوجد لدي جواب حقيقي.. فعلاً.. لماذا؟ هل أقول إنني اشتقت للامح وجهه؟.. قد يبتسم.. وقد يسألني بحيرة عما أقصده... فهو وأنا مثال الزواج الناجح.. تفاهم.. اتفاق.. ولاء.. تحسني كل صديقاتي عليه.. يقلن لي وبكل صراحة.. نريد أن نعرف سركما.. لا تفترقان أبداً.. من أين لك هذا؟ ماذا فعلت كي تجعله ساكن المنزل لا يطيق فراقك؟ هل سحرته؟ أضحك من كل قلبي.. ولا أجيب...

ثلاثون عاماً.. عمر زواجنا.. لا أذكر آخر مرة اختلفنا بها.. دائماً على وفاق.. رأيي كرايه.. أعرف ما يريد وأفعله دون انتظار طلبه.. ويعرف ما أحب ويقدمه لي دون أن أسأل.. هادئة.. سلسلة.. لم يرفع صوته يوماً في وجهي غاضباً.. ولم تدمع عيني بسببه.. لم يجرحني قط.. أستطيع القول إن سعادتي هادئة.. رتيبة.. لها إيقاع واحد لا يتغير ولا يتبدل.. هل عشت حياة مملة؟ لا.. ليست مملة وإنما مستقرة.. لكن.. ماذا عن بهارات الحياة؟ المشكلات التي تواجه كل زوجين؟ اختلاف.. غضب.. أصوات وجمل متداخلة.. حروف تنطق لكلمات غير مسموعة.. ثم اعتذار.. وتراض.. وحب متأجج.. هذه الصورة غير موجودة في ألبوم ذكرياتي... إذن من الممكن أن نصنف حياتي تحت خانة المستقرة حتى الملل..

ما زالت الإشارة حمراء.. ما أطولها.. لوهلة تمنيت أن أفتح باب السيارة وأترجل منها.. ترى هل سيعترض أو يشك في رجاحة عقلي؟ هل سيغضب؟ هل سيخاف أن أصطدم بالسيارات التي ستتحرر من قيود الإشارة الحمراء وتنطلق مبتعدة عنها كي لا تحاصرها بتوقف آخر.. مددت يدي أمسك مقبض الباب الباردة.. داعبتها بأصابعي.. إن شدتها نحوي فلن أستطيع التراجع.. إنه قرار عليّ اتخذه.. لكنني لم أعتد أخذ القرارات وحدي.. ترى هل أستشيره؟ يا لها من فكرة ساذجة..

أفكار تصطف في عقلي كاصطفاف كل هذه السيارات.. يومض الضوء الأخضر.. بقي الباب مقفلاً.. وبقيت على مقعدي.. تحركت السيارات بروية.. بطرف عيني أنظر ليديه.. أرى خاتم الزواج.. لم يخلعه أبداً..

الطريق طويلة... عائدان من المطار بعد أن أوصلنا ابننا مع عروسه.. قصة جديدة ستكتب في مجلدات الزواج.. أتمنى أن تكتب مع قصص الحب الخالدة وأن تغلف السعادة أيامها..

تساؤلاتي وأفكاري المشبعة ليست مرتبطة بسفر ابني الوحيد أو بزواجه.. ولا بأزمة منتصف العمر.. ولا بأي سبب آخر..

إشارة حمراء.. هدأ من السرعة حتى توقف تماماً... تمنيت أن تهدأ أفكاري من تدفقها لكن هيهات.. كسيل حط من عل.. جرفت معها كل هدوء السنين..

نظرت من النافذة .. التقت عيناى بعينى سائق السيارة التى تقف من ناحيتى .. غالبا من الهند .. أسمر اللون .. شعر ناعم لامع متهدل على جبينه .. من الواضح أنه لم ييخل عليه بالزيت .. متوتر .. يتشبث بالمقود بقوة .. أحنى جسده للأمام بتأهب .. قد يكون حديث عهد بشوارع الرياض .. رحمته و احترامته .. بعيد هو عن كل ما يجب .. أهله .. ناسه .. أولاده .. زوجته .. ترى هل يفتقد زوجته؟ تخيلت زوجى وقد سافر بعيدا للعمل .. ترى هل سيفتقدنى؟ لكن .. لماذا أتخشى النظر لزوجى ولا أمانع تفحص ملامح سائق وتكهن تاريخه و استنباط مشاعره .. شخص تجمعنى به لحظات انتظار خلف إشارة حمراء .. سنفترق بعد ١٠ ثوان ولن نلتقى بعد ذلك أبدا .. وإن حدث والتقىنا فلن ندرك ذلك ... غدت المسافة بين مقعدى ومقعد زوجى ثلاثين عاما بدلا من ثلاثين سنتيمترا ...

صمت .. يتلو صمتا .. ثم صمت .. يلحقه صمت آخر .. وهكذا .. سنة بعد سنة .. كأدوار ناطحة سحاب تعالت السنون بصمت .. حتى اعتدته .. يهيا لى أن بعض الليالى كان لها صوت مخيف عميق نسج من صمت ..

قالت لى الخادمة قبيل خروجنا للمطار: متى أحضر طعام العشاء؟ هل ستأخرون فى المطار؟

أجبتها: مسافة الطريق .. لن تتأخر .. نوصلهما ونطمئن على راحتيهما ونعود فورا ..

لم أكن أدرك أن المسافة لم تكن مسافة طريق وإنما مسافة عمر .. عمر أسير بكل أيامه .. أراجع خطواتي .. لماذا لا أشعر بالحب؟ لماذا لا أشعر بالشراكة؟ أأست شريكته في العمر وفي البيت والحياة وابنا وتربيته ونجاحه و سعادته؟

ياله من طريق طويل ما كان ليتتهى... أتلفت حولي أحاول تمييز موقعنا من المباني المحيطة بنا.. ها هي مدرسة ابني التي درس فيها كل مراحل الدراسة.. اقتربنا من المنزل.. ها هو منزل صديقه المقرب.. نقترّب أكثر من المنزل.. ها هي الحديقة العامة التي كان يلعب فيها وهو صغير.. وكأنه بالأمس.. أراه يركض مسرعا ليرمي بنفسه فوق الرمال يلعب ويضحك ويلحق به صديقه يرمي له الكرة يتلقفها بحب.. حبيبته الثانية هي الكرة.. أنا حبيبته الأولى بالطبع.. عذرا كنتيا جميلة الحبيبة فأنت حبه الثالث.. أخيرا وصلنا.. حيث المنزل المشترك والحلم الواحد.. هنا بذرنا براعم حب قد يكون صامتا لكنه أزهر بأجمل ثمرة.. قبل أن يترجل من السيارة أمسكت بذراعه.. همست برجاء.. عبرة تعثرت في حنجرتي.. قلت: هل تحبني؟

نظرتي.. ابتسم.. قال بهدوء: بل أعشقتك ...



المحتويات

أبواب موصدة	٥
عزف منفرد	١٣
أقبل الليل	٢١
دفتر مذكرات	٧٧
سيدة الحمرا	٨٧
ليلة	١٧٥
دميمة	١٨٣
فنجان قهوة مضبوط	٢٦٩
عنق زجاجة	٢٧٩
مع نفسي	٣٣٥
مسافة طريق	٣٤٧

رقم الإيداع